مكتبة
الحبر الإلكتروني
@bookkn
d110d

لطيفة الزيات

صاحب البيت

رواية

مختارات الكرمة

صاحب البيت

مكتبة الحبر الإلكتروني
مكتبة العرب الحصرية

الرجل الذي عرف تهمته

الشيخوخة

لطيفة الزيات

صاحب البيت

الرجل الذي عرف تهمته

الشيخوخة

لمزيد من المعلومات عن الكرمة : facebook.com/alkarmabooks

حقوق النشر © لطيفة الزيات 1986، 1994، 1995

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب

بأي طريقة من دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر .

الزيات، لطيفة .

صاحب البيت / لطيفة الزيات - القاهرة: الكرمة للنشر، 2019 .

1- القصص العربية

أ-العنوان

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: 21973 / 2018

تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

صاحب البيت

الفصل الأول

لم تستطع رنات الجرس أن تُوقظ سامية. تردَّدت في سمعها متصلة كما تتردَّد كل ليلة، منذ ليلة إلقاء القبض على زوجها محمد، وتحوَّلت، كما تتحول كل ليلة، إلى طَرقات تتلاحق وهي غارقة في النوم مكوَّمة، فخذاها تلامسان ذراعيها. واستقام جسد سامية، وأطلقت صرخة، وهي تكتشف أن الطَّرقات ليست حلمًا هذه المرَّة. واندست في ثوبها المنزلي، والريح تعوي والسماء تُمطر: ماذا يريدون هذه المرَّة؟ !

تطلَّب الأمر بعض الوقت لتدرك سامية أن الطارق هو رفيق صاحب محمد، وليس رجال الشرطة كما توقعت، وتساءلت: ما الذي أتى برفيق في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ منذ يوم إلقاء القبض على زوجها لم ترَ له وجهًا، كان من المفروض أن يعاودها في غيبة محمد، وحمدت الله لأنه لم يفعل. فما الذي أتى به في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ وخمنت سامية أن للأمر علاقة ما بمحمد، وإن لم تقطع بماهية هذه العلاقة. هل تحقق الحلم أخيرًا وتم الإفراج عن محمد؟ وتراجعت تفسح الطريق لرفيق وهو يقول هامسًا، وفيمَ الهمس؟ !

ـ الخبط اللي اتخبَّط يصحي الميت !

وندمت سامية لأنها أفسحت لرفيق الطريق: عُدواني كما العادة ومُقتحم. وتعجبت وهو يتقدم بنفس الخطى المقتحمة: كيف اختفت صورته من مخيلتها بمجرد إلقاء القبض على محمد؟ اختفت وكأن لم تكن، وها هي تعود وكأن لم تختفِ قَطُّ، يتمدد بها الهواء ويكاد يضيق بها .

وواجهت سامية رفيق متحدية :

ـ حضرتك عايز إيه في الساعة دي؟ !

ونبَّه رفيق سامية إلى ضرورة خفض صوتها. فيمَ الهمس؟! وطرق السيجارة على سطح علبة سجائره المذهبة، وترك سامية تنتظر لحظة متوترة، وقال :

ـ محمد تحت، في العربية .

واندفعت سامية تجاه الباب الخارجي، وهي تُنحي رفيق عن الطريق في شراسة غريبة عليها، واستوقفها رفيق في منتصف الطريق يكتم صرخة احتجاج قبل أن تنطلق .

ـ أنا عارف من الأول إنك حتخسَّري كل حاجة، ولولا محمد صمم ما كنتش أشركتك في العملية دي خالص !

قال رفيق، ولم تعد سامية في حاجة لأن تسأل: لِمَ يجلس محمد مختبئًا في العربة؟ ولِمَ لا يدخل بيته كما يدخل الناس بيوتهم؟ لا يتعلم الإنسان بما فيه الكفاية، كلما تعلمت اكتشفت أنها توهمت العلم. ترفض متعمدة أن تتعلم، وبالبقية الباقية من البراءة تتشبث. فكرة الإفراج عن محمد التي تشبثت بها لوهلة، رغم كل القرائن المضادة، أبلغ دليل على أنها لا تتعلم. ويتعين عليها من الآن أن تتعلم، وأن تتقبل الأشياء على ما هي عليه في ذات الوقت، وإلا أفسدت فعلًا كل شيء .

وقال رفيق :

ـ حضَّري هدومك وهدوم محمد، أقل حاجة ممكنة .

ـ على فين؟

ـ بعدين تعرفي، اتحركي، مستنية إيه؟ البوليس؟

وأخرجت سامية حقيبة خفيفة، وبدأت ترص فيها ملابسها وملابس محمد الضرورية، وقال رفيق وهو يقف على عتبة باب حجرة النوم إن الخطة التي أعدها لتأمين هروب محمد خطة جهنمية، وغيب سؤال سامية عن طبيعة هذه الخطة، وأكد أن من المهم أن تلتزم سامية بتعليماته حرفيًّا، وذلك نزولًا على مقتضيات الأمن، ولأن محمد مسؤول منه شخصيًّا وكذلك هي .

والتزمت سامية الصمت وهي تواصل ترتيب الحقيبة، وتساءلت في توجس: إلى أين تؤدي هذه الرحلة؟ وكيف تنتهي؟ ليل التوتر ينتظرها ونهاره، لغته التوجس، وحدُّ السمع لخطى تبين ولا تبين، وانتظار ليس بالضرورة عقيمًا كانتظارها للإفراج عن محمد، الشرطة لن «تون» أو تكل إلا إذا أعادت إلقاء القبض على محمد، وستكون المطاردة بالضرورة عنيفة، فهل هي حمل كل هذا بعد سنة وما يزيد من العذاب؟ وتأكد لسامية أن كل شيء يهون مع محمد ويتأتَّى، محمد يبعثها حية قوية وقادرة، وهي مع محمد على استعداد لاقتحام الجحيم ذاته .

وتعجل رفيق سامية وقد عادت من الحمَّام ترتدي ثوب الخروج، وأسقطت سامية معجون الأسنان والفرشاة في الحقيبة. ليلتها ضيعتها نظرة من محمد، وأعادتها إلى الحياة نظرة، صرخت حين انتزع الضابط محمد من حضنها في الصالة، صرخة، مجرد صرخة، وأنكرتها عينا محمد: لستِ المرأة التي أحببت. قالت عيناه وضاعت هي. وجففت دموعها ولحقت بمحمد على السلم تناوله الفرشاة ومعجون الأسنان وتسترد كيانها، والضابط ذو الشارب الأصفر القصير يقول في سخرية :

ـ إنتِ فاهمة جوزك رايح رحلة ولَّا إيه؟

وهي تشيح عنه في شموخ وكبرياء، ومحمد يشد على يدها في اعتزاز، وأمها تقول صبيحة اليوم التالي: بقيتِ وحيدة يا بنتي، وتخطئ. كان محمد معها في غيبته، تبتسم ابتسامتها المهذبة وهي تواجه عائلتها التي جاءت بقضها وقضيضها تستردها إلى البيت القديم، وقالت أمها: عودي، وأشاحت بيدها في نهائية ـ بدت العودة إلى البيت القديم خيانة لمحمد، لا تدري لِمَ؟ وتنكرًا للطريق الطويل الذي خطته لتدخل الجامعة في القاهرة ولتتزوج الزيجة التي اختارتها في استقلال عن العائلة. وعبر التلفون قالت أمها: عودي، وكررت. وعلى مر الأيام اكتسب صوت أمها الفاعلية التي افتقدها بداية، وهي تنتظر عبثًا الإفراج عن محمد .

واستقامت سامية بالحقيبة تقول :

ـ أنا مستعدة .

ـ إنتِ متأكدة؟

قال رفيق في سخرية خفيفة وهو يتناول الحقيبة، وتلقت سامية سخريته واجفة. ماذا لو عرف؟ لو عرف محمد أنها حنَّت أحيانًا في وحدتها الطويلة إلى البيت القديم، وأمان ما بعده أمان، إلى رتابة لا يخل بها شيء ولا يكاد يمسها العالم الخارجي، إلى الصمت الرابض على البيت القديم لا يفصح ولا يريم، إلى خُطى لا يسمع وقعها أحد، تمضي لائذة بالجدران وكأن لم تمضِ، إلى جدتها بطرحتها البيضاء وثوبها الأبيض، تجري كفها على المسند المشروخ للمقعد المذهب، على أمل أن يلتئم الشرخ، والشرخ لا يلتئم، إلى «حي على الصلاة» من المئذنة المطلة على البيت، ودعاء جدتها في سكون الفجر يتسع في حلقات إلى أن يشمل المسلمين أجمعين، إلى طقطقة أبي فروة في المنقد، وطقوس لا يعود للإنسان معها حاجة إلى أن يفكر أو يدبر أو ينتظر شيئًا؟

وتنهدت سامية ضيقة بنفسها؛ ما كان الحنين إلى البيت القديم يعاودها لو كان محمد معها، كانت وحيدة وضعيفة، ومحمد الآن معها .

وقالت سامية لرفيق في هدوء :

ـ يلَّا بينا .

والمطر يهطل غزيرًا يلف الدنيا في ضبابية شاملة .

الفصل الثاني

ـ استعدي .

قال رفيق وهو يجلس إلى جانب سامية يدير محرك السيارة، وشدت سامية غطاء الشعر المبلل حول رأسها، ودارت مسَّاحتا المطر جيئة وذهابًا والسيارة تتقدم في بطء، ولا لقاء على الإطلاق. طارت سامية إلى محمد حين لمحت السيارة السوداء تقف على مبعدة من البيت، والريح تحملها وحنين العمر. ذوبت كيانها في نداء هامس: محمد، ولم تتلقَّ جوابًا .

أشار لها رفيق بالتزام الصمت، ودفعها في عجلة وفي إصرار إلى مقدمة السيارة، وقال متقطع الأنفاس وهو يدير محرك السيارة :

ـ استعدي .

وتساءلت سامية: إن كان الاستعداد يقتضي أن تعايش الصمت فلا تبوح بالشوق؟ أن تعاني الفراق وزوجها على مقربة منها؟ أن يمتنع عليها وعليه اللقاء؟ وأيقنت أنها ستخفق قطعًا ما لم تعرف لِمَ تستعد. وأشار رفيق إلى سامية بالتزام الصمت قبل أن يتبلور سؤالها في كلمات، وانزلقت السيارة في الظلمة بعيدًا عن البيت. ونهى رفيق سامية وهي تستدير تتبين أين يختفي محمد، وأصدر من جوفه أمرًا لمحمد ألا يتحرك، وأبطأت السيارة سرعتها كقطة تزحف، وإلى جانب الرصيف استقرت. ورجح رفيق أن السيارة القادمة من بعيد نحوهم سيارة شرطة، وإن لم يقطع. وبدت فكرة انتظار سيارة شرطة على الطريق العمومي لسامية فكرة جنونية، وفكرة الهرب مستحيلة، ولمست يد رفيق ترجوه هامسة أن ينعطف إلى طريق جانبي فلربما، وانعكس ضوء مصباح من الشارع على وجه رفيق، ولم تفعل. استبعدت نهائيًّا احتمال أن تكون السيارة القادمة سيارة شرطة، وتساءلت في عجب عما ينتظره في تلك اللحظة، وكادت تسأله، ولم تفعل. لن يسمع، وإن سمع لن يفهم، في لحظة النشوة لا يسمع الإنسان ولا يفهم. في اللحظة التي هي جماع كل اللحظات، ينصب وجودنا بأكمله في مجرى واحد، ما مضى منه، وما هو آتٍ. أي جمال يواتينا لحظة النشوة وأي ذكاء؟ أي معنى يكتسب وجودنا لحظة نعتلي القمة التي ليس بعدها قمة، نرقب المدينة وهي ترقد تحت أقدامنا، نعرفها وتعرفنا، ننبض بها وتنبض بنا؟ أي شيء رائع هذا الذي ينتظره رفيق، وليونة كليونة القطط تسري في جسده؟ لحظة الخطر؟ مستحيل أن يواجه رفيق لحظة الخطر بمثل هذه النشوة، وعينان من نور في الاتجاه المعاكس يضويان ليعودا يضويان أشد لمعانًا وتوهجًا، ورفيق يميل على عجلة القيادة إلى الأمام، يهمس مختنقًا، وكأنما يستعجل لحظة اللقاء :

ـ البوليس .

وعقدت سامية ذراعيها حول صدرها في استخفاف متعمد. مستحيل أن يستقبل رفيق لحظة الخطر بهذه النشوة، رفيق يلهو بها كما يحلو له دائمًا أن يفعل، وهو يلعب لعبة من ألعابه الصبيانية، ليثبت تفوقه عليها أمام محمد. واتسع الوقت لسامية لتتبين أن العربة القادمة عربة شرطة فعلًا، ولم يتسع لتتبين معنى ما يحدث. كرعد ينذر بالتحول إلى برق ولا يتحول، تجمعت في عقلها فكرة الخيانة ولم تكتمل. التقت نظرتها بنظرة رفيق وهي تتملص من ذراعه، وأدركت ما لم تدركه حين أمرها بالاستعداد، وودت أن تخبره بأنها استعدت ولا داعي أن يسحق بكفه مؤخرة عنقها، وارتفع صوت أجش يقول :

ـ فوتك منهم يا فريد دول حبايب .

وجاوبه صوت فريد مرحًا يفور بالضحك :

ـ خسارة! والحبايب مش من اختصاصنا .

وعاد الصوت الأجش يقول في انعدام صبر :

ـ يلَّا يا فريد، لو فلت ابن الكلب ده، البلد حتفلت من إيدينا .

وتقطع صوت فريد بالضحك، وصاحب الصوت الأجش يحاول ولا يفلح في اقتلاعه من مكانه أمام السيارة السوداء .

ـ وشرفك ما أنا ماشي إلا لما أشوفها .

ودهمها نور البطارية دون أن تستعد، وجدت رأسها يستقر على مسند المقعد، ونور البطارية يحرق حدقتيها، وماتت يد رفيق في مجرى من العرق بعد أن تشبثت كيد غريق برقبتها. وتحتم عليها الآن أن تفعل شيئًا يحرف النور عن محمد الذي يجلس مختبئًا في مؤخرة العربة. المهم أن تحرف النور عن كل ما عداها، أن تغوي الغريب الضاحك فلا يرى سواها. وكيف يتأتَّى لمن قضى العمر يفر من نظرات الغرباء أن ينصب الشباك لنظرات الغرباء؟ كيف يتأتَّى لمن يقشعر بدنه من الغواية أن يحترف الغواية؟! وواتاها صوت داخلي يقول: ابتسمي. وصرخ كيانها: لا أستطيع. وانفصلت عنها مخلوقة تستدير شفتاها في ابتسامة لزجة. كيف استطاعت؟ كيف جرؤت؟ من أين واتتها البديهة والقدرة على الفعل والتصرف في هذه اللحظة؟ هل اصطكت أسنانها وعيون أربع تُعرِّيها، تُلطخها، وجسد المخلوقة اللزجة يستدير في إغراء ويتكور، والألفاظ النابية تَرجُمها، والابتسامة اللزجة تزداد لزوجة، والضحكات الرخيصة تتباعد، والخطوات تغيب في جوف الليل، وباب عربة الشرطة ينصفق؟

وخطر لسامية وسيارة الشرطة تبتعد أن هذا، بكل تفصيل من تفصيلاته، حدث لها من قبل. متى وأين؟ لا تعرف، ولكنها عاشته من قبل وكيانها ينفصل إلى إنسان ينزف، ومسخ بلا جذور ولا دوافع يتحرك. وقال رفيق :

ـ برافو. بقيتِ مِعلِّمة .

وتساءلت سامية: هل تحولت إلى المسخ الذي أرادوا لها أن تكونه، مسخ بلا جذور ولا دوافع يتحرك؟ تربية العمر أثمرت، النفي عن العيون والقلوب، العزلة والحرمان، الضرب والتهديد، الوعد والوعيد، اللوم والعقاب، الهمس في الأركان: الويل لمن يختلف ! الطريق مع الرفاق مرسوم كما في البيت القديم مرسوم. الويل لمن ينفرد! قماط المولود في عينين سوداوين، وكفن الميت، ونظرة تحيي، ونظرة تميت، وطرقة على الباب، وصرخة يتحتم أن تموت . الويل إن انطلقت!

وخلف البطارية هوة بلا قرار. الويل لمن إلى مسخ لا ينقلب! يا أبي يا أمي يا جدتي، يا مئذنة تشرف على بيتنا القديم، يا رفاقي، يا كل الناس، أفسحوا لي مكانًا بينكم، ها أنا على وشك أن أنتمي، كما أردتموني جئتكم مسخًا بلا جذور ولا دوافع يتحرك .

ـ على فكرة يا محمد، وشرفك لولا أنا ورا سامية لكنا الليلة بايتين في التخشيبة .

قال رفيق ومسَّاحات السيارات عادت تدور، واستندت سامية إلى ظهر المقعد تقاوم رغبة في إفراغ ما في جوفها، وخطر ببالها أنها لم تعانِ الخوف لحظتها: قفزت من الإدراك إلى الدوار والقرف. وساد الصمت لحظة وسيارة تتبع سيارتهم، وحين تجاوزتها ترك رفيق عجلة القيادة تلمع بعرقه، وفرك يديه الواحدة بالأخرى :

ـ أهو كده الشغل ولَّا بلاش، وكله كوم وخطتي كوم، مش بشرفك يا محمد خطة عبقرية، خطة جهنمية؟ !

وتساءلت سامية: هل تتفتح أبواب جهنم ومحمد لا يرد ولا يصد، ورفيق يلمس عجلة القيادة بطرف إصبعه وهو ينحرف إلى شارع جانبي، يكاد يصطدم بالرصيف ولا يصطدم، والضباب يحجب الرؤية، والسيارة تفلت بمعجزة من الحوائط المسدودة؟ وصاحت سامية بصوت مخنوق: محمد. وقد تجددت مخاوفها ألا تجد محمد في العربة أصلًا، وعادت تتمتم لا تنتظر جوابًا لندائها: محمد .

وقال رفيق :

ـ تقدر تكلمها يا محمد، مفيش عربيات جاية .

وقال محمد وقطرات المطر تتساقط على نوافذ العربة قطرة بعد قطرة :

ـ أهلًا سامية، منورة يا حبيبتي .

وبحركة لاإرادية أغلقت سامية عينيها، وأبعدت ثوبها عن جسدها، وكأنما تخشى أن يتلطخ. ما هكذا تصورت اللقاء من خلال الآخر، الغريب !

وعاد محمد يقول :

ـ قلبي معاكِ يا سامية، المسائل حامية من أولها .

ولمعت الدموع في عيني سامية، وجسدها يرتخي، وتحسست بيدها مسند المقعد، ثم انقبضت يدها وهي تقاوم الرغبة في أن تلتفت إلى الخلف. أدركت أنه لا بد لها أن تستأذن لترى زوجها وهو مختبئ في قعر العربة .

وانطلق رفيق يدندن :

ـ يا عطارين دلوني الصبر أجيبه منين؟

واجتاحت سامية رجفة، هم الآن في بيتها، لا بد أنهم كسروا الباب، كل الأبواب، وبعثروا الكتب والأوراق والملابس. في المطبخ تركت حللًا قذرة، وأطباقًا في حوض المطبخ، وقشر البصل على المائدة . في الحمَّام تركت ملابسها الداخلية. في الدولاب... لو عرفت لسترت، ولكن الوقت فات ولم يعد هناك مجال للستر، وها هي تجلس هنا تندفع في جوف الظلام إلى المجهول، وها هي تقف هناك عارية في قبضة أيديهم الخشنة، في مضغة أفواههم البذيئة، في ومضة عيونهم الخبيثة .

وقال رفيق :

ـ زمانهم شمعوا شقتكم بالشمع الأحمر .

وقَرَ إدراك بنهاية الأشياء في وعي سامية، وقالت في غضب مكبوت :

ـ إحنا رايحين على فين؟

ولم تتلقَّ سامية إجابة لسؤالها، والأشجار تتراجع مدحورة إلى الخلف، والريح تئن، ومسَّاحات المطر تدور جيئة وذهابًا لتعود فتدور، ولحظة النشوة راحت، وكجراب أفرغ ما فيه يبدو رفيق وعجلة القيادة تلتمع بالعرق ينزف من يديه. مضت لحظة مجد رفيق، امتصت وجوده وتركته ينزف عرقًا. مضت اللحظة التي يدفع العمر ليحياها، وتدفع العمر لتتحاشاها. هل حياته ومضات متقطعة لا يربط بينها رابط؟ هل هي لحظة مجدها أيضًا؟ لحظة لملمت أسلحتها الموروثة والمكتسبة، وقد تعين عليها أن تواجه الرجل الضاحك على شفا هوة بلا قرار؟ هل كانت اللحظة، وقد أنقذت محمد من خطر مؤكد، لحظة هزيمة بالنسبة إليها، أم لحظة انتصار؟ تبقى الأسئلة بلا جواب، وهي الآن تندفع في الظلمة، إلى أين؟ لا تدري . بدأت الرحلة الآن، أم لحظة وُلِدت؟

الفصل الثالث

اتجهت السيارة إلى ضاحية صغيرة من ضواحي القاهرة، وتوغلت داخلها، وفي شارع جانبي أشبه بالحارة أبطأت سرعتها. وبدت الجيرة مظلمة فيما عدا نورًا ينبعث من محل بقالة صغير جلس صاحبه على عتبته يدخن الشيشة، والعربة تتوقف أمام باب حديدي كبير مغطى بالصفيح .

ووقفت سامية أمام باب السيارة الخلفي تنتظر أن ينزل محمد بدوره، وبقي مختبئًا في قعر السيارة، وتساءلت وهي تتبع رفيق إلى الباب المغطى بالصفيح: هل تم الاتفاق مُسبقًا على أن يختبئ محمد؟ هل هذا جانب من خطة رفيق؟ وإن كان الأمر كذلك، فكيف يكون وضعها هي في هذا المكان؟ وانفتح الباب دون أن يطرقه رفيق محدثًا ضجة كفيلة بإقلاق راحة الجيرة بأكملها، ولكن الجيرة، فيما يبدو، سادرة في نوم عميق .

وعلى عتبة الباب ظهر رجل يقول :

ـ أهلًا وسهلًا .

ـ صاحب البيت .

قال رفيق، وتأملت هي صاحب البيت في دهشة، شيء ما غريب في صاحب البيت هذا، العجوز؟! الشاب؟! صوته الضخم لا يتمشى بحال مع جسده القصير النحيل. بمن يُذكِّرها؟ وبماذا؟ وهل سبق أن واجهته بدل المرَّة مرات؟! وشيء ما غريب في المكان كله، الحديقة ليست بحديقة، ما من زهور، مجرد أرض مزروعة بالخس والفجل والجرجير تجمع ما بين مبنيين قميئين، واحد في أقصى اليمين والآخر في أقصى اليسار. في أيهما ستقيم هي مع محمد؟ ولكن كيف تقيم مع محمد ووجوده مجهول من صاحب البيت؟ وإلى أين تؤدي خطة رفيق؟ واستوقف نظر سامية أعلى المبنى أقصى اليمين برج بفتحاته الدائرية، وأحكمت معطفها وهي تتساءل: أهو برج حمام أم برج مراقبة؟ ومن خلف الفتحات الدائرية طالعتها عيون لا تغفل ولا تنام .

وقال صاحب البيت مُصافحًا رفيق :

ـ أهلًا سي فايق .

ورفيق يستجيب كما لو كان «فايق» هو اسمه الحقيقي. مقتضيات الأمن؟ وتأتَّى على سامية أن تُسلِّم ألَّا شيء حقيقيًّا في الموقف كله حين قال صاحب البيت :

ـ أهلًا بالعروسة. البيت نوَّر .

وسلمت سامية فرضًا بأنها هي العروس، وتأكدت من صحة هذا الافتراض وصاحب البيت يصافحها في حماس تنفر منه، وعيون ترقبها من خلف الفتحات الدائرية لا تغفل ولا تنام. أهي من مقتضيات الأمن أيضًا؟ ويدها راقدة في يد صاحب البيت يهزها في عنف، وخطة رفيق الجهنمية حقًّا تستكمل أبعادها. رفيق جاء لينقذ محمد أم ليرسخ على أنفاسها هي؟ هو العريس وهي العروس وأين دور محمد؟ أم لا دور له هنا على الإطلاق؟ وعنف صاحب البيت لا يزال يهز يدها، يتزايد المرَّة بعد المرَّة نفورها منه. ولكز رفيق سامية بكوعه منبهًا إلى ضرورة الاستجابة لحماس صاحب البيت .

وبدأت ترفع ذراعها وتخفضها في حركة آلية، ويدها مستقرة في يد صاحب البيت. لا بد، فيما يبدو، لمن يدخل هذا البيت أن يلعب دورًا، الدور الذي يرسمه له صاحب البيت. وماذا عن دور محمد أم لا دور له سوى أن يقبع متجمد الأطراف في قعر العربة؟ كيف لم يخطر في بالها من قبل أن محمد قد يتجمد من البرد؟ !

وبدا صاحب البيت لسامية ممشوقًا للغاية وهو يُحكم الرتاج الحديدي على الباب المغلق، وهو يقود الطريق إلى البيت في أقصى اليسار بخطوات سريعة وقوية عبر ممر من الطين وآخر مفروش بالحصى، يلحق به رفيق وخلفهما تلهث هي. وتوقف صاحب البيت فجأة مشيرًا إلى البيت ذي البرج في أقصى اليمين، واستعاد رفيق توازنه قبل أن ينطرح أرضًا، وضحك صاحب البيت حتى غابت ملامحه في غضون وجهه العميقة، ونغز رفيق في وسطه وهو يقول :

ـ مش عليَّ يا واد إنت، العب غيرها .

وتبادل صاحب البيت ورفيق النغز والضحك على شيء لم تدرِ سامية ما هو، وقال رفيق وهو يشير إلى البيت ذي البرج في أقصى اليمين بصوت لا يحمل أثرًا لضحكته التي انتهت مبتورة :

ـ وحضرتك عايش هنا مع العيلة طبعًا؟

ـ وحيد يا ابني وحيد، مقطوع من شجرة !

قال صاحب البيت، وتبادل هو ورفيق النغز والضحك من جديد، ونظرة سامية تستقر على المبنى الذي يتوجهون إليه أقصى اليسار. صغير إلى ما لا حد كبيت الدُّمى. ألم يجد رفيق مكانًا أرحب؟ كم حجرة يحتويها هذا المكان؟ رفيق جاء ليبقى فأين يقيم؟ وأين تقيم هي ومحمد؟ سيِّئ للغاية أن يقيما في نفس المكان مع الآخر والأسوأ! واستبعدت سامية الخاطر كمستحيل من المستحيلات وهي ترتقي سلمًا من أربع درجات، وصاحب البيت يُخرج من جيبه حلقة مفاتيح ضخمة، وكأنما جمعت مفاتيح المدينة مجتمعة، ويختار بلا تردد المفتاح المطلوب، ويفتح الباب الخشبي، ويضيء النور منتصرًا .

ـ مستحيل !

قالت سامية والمصيدة تطبق عليها. امتدت أمامها حجرة وحيدة، طويلة كالممر، يتوقع الإنسان أن تنتهي إلى شيء، ولا تنتهي إلى شيء. في عرض الحجرة المواجهة للباب انحشر سرير حديدي أسود، يرتكز على قطع من البلاط المكسور، وتكاد أعمدته تغيب في سقف الحجرة الرمادي المنخفض، وإلى يمين الباب امتدت أريكة تدلَّت أحشاؤها المعدنية على الأرض، وإلى يساره صوان ملابس تتوسطه مرآة مشروخة، يجاورها دولاب ساعة ذات بندول يتحرك جيئة وذهابًا، وفي وسط الحجرة، وما بين الأريكة والصوان، مائدة طعام حولها مقاعد أربعة .

وصاحت سامية وقد اكتشفت أن البيت من غرفة واحدة :

ـ مستحيل !

وتساءلت: أكان الآخر موجودًا دائمًا معها ومع محمد قبل أن تطأ هذا المكان، منذ بدء علاقتهما؟ وكادت تُسلِّم بأن الآخر هو قدر المحبين الذي لا إفلات منه، وودت أن تترك كل شيء خلفها

وتهرب، وتأكدت أنها لا تملك رفاهية الهروب، ومحمد يقبع متجمدًا في العربة، وتجاهلت نظرة التحذير تطل من عين رفيق، وقالت لا تنتظر لسؤالها جوابًا :

ـ فين بقية الأوض؟ !

ونهى رفيق سامية في صرامة ونهائية :

ـ البيت كويس كده يا زاهية !

وبدا صاحب البيت كما لو كان على وشك البكاء، ونغزه رفيق في وسطه وقال :

ـ ولا يهمَّك منها، البيت عال العال .

ولكن صاحب البيت لم يضحك هذه المرَّة، بدا مهمومًا، ونظرته مُركزة على سامية، وفجأة أشرق وجهه وهو يسحبها إلى المطبخ. ولاحظت سامية، وصاحب البيت يسحبها مقهورة إلى المطبخ، أن جسده المشدود كجسد صبي لا يتمشى بحال مع وجهه المليء بالغضون العميقة، ولمبة المطبخ محروقة، قال، ولكن الكهرباء سليمة مائة في المائة، والمطبخ صحي لا يعدله في البلد مطبخ، وستتبعها الشمس أينما وقفت تطبخ بإذن الله لقمة هنية. وجر صاحب البيت سامية من ركن إلى ركن، وهنا شمس وهناك، ولا شيء يبدو في الظلمة خلف زجاج النافذة سوى رذاذ المطر وسور شاهق الارتفاع ينتهي بأسلاك شائكة .

وصاح صاحب البيت :

ـ شمس .

ـ شمس .

تمتمت سامية وهي تدرك أن على من يعبر الباب أن يلعب لعبة صاحب البيت. وخطر في بالها أنها لعبت دائمًا لعبة صاحب البيت، متى؟ وأين؟ لا تعرف، وإن تمكن منها الشعور بأن صاحب البيت كان دائمًا معها بصورة أو بأخرى، يملي عليها دائمًا وأبدًا لعبته. وتساءلت: بماذا يُذكِّرها هذا الرجل وبمَن؟ بالحاكم الوحيد والأوحد؟ بأبيها؟ بواعظ المسجد يهدد بالنار وبئس المصير؟ بالمُعلِّم يطلب منها أن تفرد يديها؟ وانسحبت سامية من المطبخ منهكة، وجلست على مقعد إلى جانب المائدة. ولكن اللعبة لم تنتهِ بعد، فيما يبدو، فقد عاد صاحب البيت يحاول سحبها إلى الحمَّام هذه المرَّة :

ـ الحمَّام مُعتبر، ضروري أورِّيكِ الحمَّام .

وسحبت سامية يدها من يد صاحب البيت في نفور، وقالت معتذرة :

- بعدين .

وأكدت نظرة رفيق أن سامية ستُفسد كل شيء، وقامت هي واقفة تتبع صاحب البيت. وفي الحمَّام لم تُوفَّق سامية إلى الاستجابة المطلوبة، وصاحب البيت لا يكف عن أن يمد ذراعه إلى مفتاح النور ويعود يطويها دون أن يمس المفتاح. وأنقذ رفيق الموقف قبل أن يتأزم، صاحب حركات صاحب البيت وهو يردد: اللمبة محروقة، مش محروقة، وقفز يهلل للنور الذي اشتعل أخيرًا، وهرول صاحب البيت إلى صنبور المياه وهو يقول :

- الميه ميه معدنية مُعتبرة .

وذات اللعبة تتواصل، ورفيق يكرر: فيه، مفيش. وكرهت سامية صاحب البيت ورفيق، وتأكد لها أن محمد يختنق في العربة. وأوقف رفيق اندفاعتها إلى الخارج وهو يسد بذراعه باب الحمَّام.
ووعد صاحب البيت بملء الخزان عندما ينقطع المطر، والتقط حلقة المفاتيح من على المائدة، وقال :

- الليلة تحلى يا عرسان، الليلة مزاج، تصبحوا على خير .

واستوقفت سامية صاحب البيت قبل أن ينصرف :

- المفتاح. مفتاح الشقة .

وأخفى صاحب البيت سلسلة المفاتيح خلفه، وأوشك أن يبكي، ولم يقلل هذا من تصميم سامية التي عادت تقول :

- المفتاح .

ووعد صاحب البيت بإحضار المفتاح في الغد بعد تزييته تزييتة مُعتبرة. وحين طالبته سامية بمفتاح الباب الخارجي غابت ملامحه في غضون وجهه وهو على وشك الولولة، وتدخَّل رفيق منقذًا للموقف :

- جرى إيه يا زاهية؟! الباب البرَّاني ملوش مفتاح، له ترباس من جوه .

وطرق صاحب البيت باب الشقة خلفه وهو يقول :

- البر أمان، وأنا ما باغفلش ولا أنام .

الفصل الرابع

ما إن انفلتت سامية خارج الشقة رغمًا عن رفيق، وبلا سابق تفكير أو تدبير، حتى أدركت جنون فِعلتها. أفقدتها المناقشة مع رفيق عقب خروج صاحب البيت توازنها، كانت مُرة «كالحنضل»، وكان هادئًا متماسكًا، ولكل سؤال عنده جواب يعيدها إلى واقع تحاول عبثًا الإفلات منه. سيتجمد محمد في العربة، قالت. إما أن يتجمد أو نقع ثلاثتنا في قبضة البوليس، أجاب وأصاب. الوضع لا يحتمل بحال اندفاعاتها العاطفية. وانطفأ النور، قالت وهي تعني ما هو أكثر من انطفاء النور عند صاحب البيت، ورفيق يقرر ألا مكان للعواطف هنا، وأن الوضع يقتضي أن يتحول الإنسان إلى آلة تحسب وتخطط. وانطفأ النور، رددت وهي تندفع مجنونة خارج الشقة لتعود بمحمد. وما عسى أن يستطيع من هو محاصر بين عيون مغروسة في أعلى البرج، وصاحب بيت لا يغفل ولا ينام؟ برج حمام، قال رفيق: مجرد برج حمام. وصاحب البيت؟ مجرد صاحب بيت قد يكون أقل ضررًا من غيره من أصحاب البيوت، وما غريب إلا الشيطان، أكد رفيق .

وتنهدت سامية في ارتياح وقد فرغت من تحريك مزلاج الباب الخارجي دون أن يُحدث صوتًا، وتبقت ـ وعيون البرج مغروسة في ظهرها ـ مهمة أخرى لم تعمل لها حسابًا: أزيز الباب كفيل بإقلاق الجيرة مكتملة، فكيف يتأتَّى لها أن تفتحه دون أزيز؟ عليها أن تكون حريصة، في منتهى الحرص، فهم يرقدون على أنفاسها ينتظرون أن تفشل. مَن هم؟ صاحب البيت؟ رفيق؟ وكيف تجمع في نفس واحد بين رفيق الذي أنقذ محمد وصاحب البيت الذي يهدده؟ أكد رفيق وهي تندفع خارج الشقة أنها ستُفسد كل شيء، وبدا كما لو كان يود لو فعلت. واختلطت عليها الأمور وهي تزيح الباب قليلًا، ثم تُطلق أنفاسها وتعود واجفة تزيحه. ودفعت سامية الباب دفعة واحدة. لا فائدة، لا فائدة من الاحتراس، فقد فشلت، ووقف صاحب البيت على عتبته يسأل :

ـ مين؟ !

ولعب يلعب فهو لاعب، أفضل تعريف للسلوك المطلوب، قال رفيق، ولا يهم في شيء أن تريد أو ألَّا تستطيع، فما من اختيار في دنيانا هذه. والعبي، قالت أمها، وكررت، حتى انفلق الحجر وهي راغبة عن اللعب المحسوب .

وقالت سامية :

ـ أنا .

وتلقَّت بالطبع السؤال من صاحب البيت، وهو يتقدَّم يحمي رأسه من المطر بصحيفة :

ـ إنتِ مين؟

وأنا العروس، تقول، وتقطع فاقدة الهوية شوطًا طويلًا من التدريب المطلوب. ولعبة صاحب البطارية الضاحك كانت استثناء، واللعبة هنا هي القاعدة. ولكننا نلعب على رقابنا، تقول، وهذا بالضبط ما يحتم علينا أن نلعب، يجيب رفيق وأمها تقسرها على ما لا تريد، تقلم أظافرها تدجنها، وسؤال صاحب البيت يواتيها والصحيفة مبتلة على رأسه :

ـ رايحة فين؟

وتأكد لسامية أنها عاشت هذا الموقف بالذات، وشخص ما يشرف عليها منتصرًا، وهي تحاول عبثًا تجميع أشلائها. أين ومتى؟ في حضرة أبي في البيت القديم؟ في قاعة الدرس وسؤال مستعصٍ يداهمها؟ في لومة لائم، في نظرة إغفال، في ضوء بطارية فاضح؟ وأمها تتساءل: هل ضاعت تربيتي هباءً؟ وهي توجه السؤال لرفيق: وماذا لو لم أكن مؤهلة بما فيه الكفاية للعب؟ وما عساي أن أقول الآن، والإجابة الوحيدة للسؤال حقيقة لا ينبغي أن تقال؟ ولعب يلعب فهو لاعب. وما عساي أن أفعل الآن، وما من مفردة من مفردات اللعبة تواتيني؟! وأغمضت سامية عينيها في استسلام .

ونغزها صاحب البيت في وسطها يسأل :

ـ عايزين بيرة؟

ولم تدرك ما يقول، وعاد يكرر، وألقى لها من حيث لا يعرف بطوق النجاة والبقالة المجاورة مفتوحة الباب، والتزمت الصمت. استكثرت أن تجيب بالإيجاب والبيرة خارج كل سياق .

وغمز صاحب البيت بعينه غمزة ذات طابع جنسي فاضح، وقال :

ـ الليلة البيرة تحلى، تبقى مزاج .

ـ إحنا عايزين عيش، عيش وبس .

قالت سامية، والتمعت عينا صاحب البيت كالخرز، ونظرته تقول: مش عليَّ يا بت إنت، العبي غيرها .

وتوقف صاحب البيت عن الضحك، وأشار إلى سامية بالاقتراب منه، وهو يقول بصوت متآمر :

ـ آجي معاكِ؟

وهزت سامية رأسها بالنفي، وضرب صاحب البيت الأرض بقدمه، وأصابها رشاش الطين وأصابه، وودت لو أمسكت بزمارة رقبته وهو يردد :

ـ ضروري آجي معاكِ .

العبي يا سامية العبي، على طيلة العمر مقسورة تلعبين، ففيمَ التعفف الآن؟ العبي عبر جسدك مهدودًا وصوتك يكاد ينحبس، العبي. أوامر أمك تتكرر، تفلق الحجر، وزوجك يتجمد في العربة، ويتأتَّى أن تلعبي، ما من اختيار. لملمي مفردات اللعبة من حصيلتك الموروثة والمكتسبة والعبي .

وعدلت سامية رباط الشعر، وقالت بصوت معسول، وكأنما تهدهد طفلًا :

ـ ودا معقول! نخرج ونسيب البيت لوحده كده؟

ـ حانتظرك لما ترجعي، وأقفل الباب وراكِ .

قال صاحب البيت، ومضى يهرول إلى بيته، وانفلتت سامية خارجة. عليها أن تتصرف وبسرعة قبل أن يتنبه صاحب البيت: تُدخل محمد في حرص وسكون، وبمجرد أن يفلت من دائرة النور تلحق به. كيف؟ محمد غير موجود، قال رفيق، فكرتي، عريس وعروسته، حاجة في منتهى البراءة، في منتهى البراعة. وستكون الضربة ولا شك قاضية إن اكتشف صاحب البيت وجود محمد، وتساءلت هي: إلى متى نبقى تحت رحمة صاحب البيت؟ وقال رفيق: آدي ربك وآدي حكمته، وهو يقلد صوت امرأة عجوز، واندفعت سامية إلى السيارة، ودارت حولها حتى وقفت في الاتجاه المضاد للبيت، وأدارت مقبض الباب الخلفي تهمس :

ـ محمد .

ـ اتأخرتم عليَّ يا سامية !

قال محمد، وسامية تلقي له برباط شعرها، وتخلع عنها معطفها :

ـ البس .

وجلس محمد في قعر العربة يولي سامية ظهره، ووجهه مصوب إلى البيت، وهي تساعده على لبس المعطف وتقول هامسة :

ـ على طول، البيت على الشمال .

وقال محمد وهو يخرج من السيارة :

ـ وإنتِ؟

ـ جاية وراك على طول. ادخل .

وأضافت معتذرة وهي تشير إلى غطاء الرأس والمعطف النسائي الذي يرتديه :

ـ آسفة، دي الطريقة الوحيدة !

ولم يستمع محمد إلى بقية جملتها. دار حول السيارة وهو منحنٍ ثم مرق عبر الباب. وتوقفت أنفاس سامية وهي ترقب محمد يتقدم، ستتبعه إلى الداخل بمجرد أن يفلت من دائرة الضوء، وانطلقت

أنفاسها دفعة واحدة، والهواء من سخونة أنفاسها يتحول إلى دخان، وتقدمت نحو الباب الخارجي وهي تتصور وجه رفيق حين تدخل عليه مبتسمة في انتصار، وتسمرت سامية فجأة ملتصقة بالباب. جاءها صوت صاحب البيت من الداخل يقول لزوجها وقد خلط بين شخصيته وشخصيتها :

ـ تصبحي على خير يا عروسة. صباحية مباركة بإذن الله .

وانغلق الباب دون سامية، ونزلت قبضتها عليه دون أن تمسه، وصوت المزلاج مشروخًا ينزلق من الداخل، وصوت فخم ضخم جاف يقطعه السعال يردد كأنما يتغنى :

ـ البر أمان. البر أمان .

الفصل الخامس

انكمشت سامية في وقفتها، وهي تسدل ثوبها على ساقيها تحميهما من لفح الريح وقطرات المطر. تستطيع أن تحتمي بالعربة، ولكن من الأوفق أن تبقى قريبة لكي تنفلت إلى الداخل بمجرد أن ينفتح الباب. ومدت يدها إلى شعرها تزيحه عن عنقها وهي تعتصره من الماء. عليها أن تتماسك ولن يطول الانتظار. سيفتح محمد الباب مهما كلفه الأمر. وهذه حقيقة لا تحتمل الشك. أنا نفسي أعمل حاجة عشانك، حاجة كبيرة تثبت لك مقدار حبي لك، قال محمد وهو يمسح بشفتيه على جفنيها المسدلين، وحملت لها الريح رائحة الياسمين من المنازل المجاورة قوية نفاذة، ولمعت الدموع في عينيها. ضحك محمد وهو يملأ يديها بزهر المشمش، كفاية؟! لا أنا عايزة شجرة بحالها، لا دي تبقى حكاية، الشجرة عايزة جنينة، والجنينة عايزة بيت، والبيت عايز... وأطبقت بيدها على فمه حتى لا يكمل، لن تتركه يفسد الحلم الذي تعيشه بالحديث عن الماديات، والحلم بدا وذراع محمد تلتف حول خصرها، حقيقة لكليهما .

وجرت سامية إلى الباب، وحبست أنفاسها وهي تحد السمع لخطوات لا تبين. في السرير حدت السمع لتلك الأصوات التي لا تبين، ماذا لو أبانت؟ الأصوات على وشك أن تتشكَّل في كلمات ولا تتشكَّل، وتستلقي هي على السرير بلا حراك متوهجة العينين، متى يأتي النداء؟ لا تعرف، ولكن حناياها ترددد والجو مشحون به، حتى يخيل إليها أنها تستطيع أن تمد يديها وتحتويه، سيأتي النداء ربما في الغد، في اليوم، الآن، وعندئذ ستعرف السعادة التي ليست بعدها سعادة، ستمسك بالسعادة ولن تدعها تفلت، ولمَ تفلت منها؟ السعادة حقها ونصيبها، وما عليها إلا أن تمد يدها وتحتويها، وسيرقد العالم كله تحت قدميها. أنا جميلة، وأنا صغيرة، أنا في السادسة عشرة من عمري، في حناياي بحور من حنان لم يرتدها إنسان، شفتاي تينة متفتحة، يبللها الندى، لم يطلع عليها بعد صباح، خداي متوهجان بخمر الحياة، عيناي بحيرة من عسل لا تعكس سوى الجمال، فمتى يأتي النداء؟ الأصوات على وشك أن تبين ولا تبين، على وشك أن تتشكَّل ولا تتشكَّل .

وتراجعت سامية عن الباب مقهورة. لم يكن ما سمعته دبيب خطوات، بل حفيف أوراق الشجر. نور؟ هل رأت بصيصًا من النور؟ وعادت تنظر من ثقب الباب الحديد. هناك نور قطعًا يتسلل من عتبة باب، ومحمد لا بد أنه في الطريق إليها. لن يطول الانتظار، ولسنا في شهر عسل ولا في رحلة ترفيهية، قال رفيق وهي ثائرة لأنه لم يجد مكانًا أرحب وأفضل، مكانًا تتوافر فيه الخصوصية لها ولمحمد، وأكد رفيق أن الأشياء نسبية، وعامل الوقت تحكم في الاختيار وعامل الخطر، وتساءل إن كانت بطيئة الفهم أم ترفض الواقع، وتسعى إلى دنيا على هواها غير الدنيا؟

نعم يتأتَّى على كل من يدخل هذا البيت أن يتنكر، قال: وكفى مطلقات عن الهوية وهذا الكلام الفارغ، نعم على الإنسان أن يتكيف مع أوضاعه وتبقى الأشياء نسبية والبقاء للأصلح، قال: الأسماء المستعارة أنقذت محمد من السجن. وسؤال «مَن أنا؟»، سؤال لا تكف هي ترده، وشعرة تفصل ما بين النجاة والهلاك والرجل الضاحك يسلط نور بطارية في عينيك .

وأخيرًا، أخيرًا ستدلف إلى الفراش، إلى الدفء، وخطوات تقترب، أهي خطوات محمد أم رفيق؟ والخطوات تقتحم ولا تتسلل، والرعب يشلها، خطوات تدب في ثقة على أرض الشارع، وكأن صاحبها يملك الأرض وما عليها. وانحرفت سامية تختبئ خلف شجرة، وعسكري الدورية يمر، والتصقت بالشجرة وودت لو انفتحت وابتلعتها. سيعود حتمًا سيعود، وتسللت إلى الباب الحديدي المغلق تتحسسه بيدها، وكأن من الممكن أن ينفرج عن فتحة تنفذ منها. لا تغلق الباب دوني يا حبيبي، أرجوك لا تغلق الباب، دعني أدخل، في حناياي حب مضى وحب آتٍ، طيات فوق طيات، نسجتها كل ليلة في سريري، وأنا في انتظارك يا حبيبي، سريري بارد يا حبيبي، بدونك قبر يطويني بلا غفوة الموت، بيقظة الحرمان بأحلام القلق بوحدة الموت. متى تنكسر وحدتي؟ وانطويت عني وكتفك تلاصق كتفي، وعبيرك في أنفي، في جسدي، في أطراف أصابعي . أهو عبيرك أم عبيري أم عبيرنا معًا؟ أم هو لا أنا ولا أنت، بل هذا الإنسان الفريد نحن؟ وتمنيت لحظتها لو مت .

بودي لو سألتك الآن، لِمَ تمنيت إذ ذاك أن أموت وأنا أعتلي القمة التي ليست بعدها قمة، الدفء يتسلل إلينا من المدفأة، ووهج النار ينعكس على وجهك، وأرتخي وأنا أمد يدي إلى النار أدفئهما وأنتظر إجابتك، بعد برهة ستتكلم، في لمحة سنصبح هذا الإنسان الفريد نحن، في لمحة سأعرف كل ما تمنيت يومًا أن أعرفه، وأفهم كل ما استغلق عليَّ فهمه، في لمحة سأرتاد معك القمة التي ليست بعدها قمة. ولماذا لا تتكلم يا حبيبي؟ لماذا لا تتكلم؟ لا وقت لا وقت لكي يسترخي الإنسان ويتكلم، لا وقت ليلتقي الإنسان بالإنسان، وإن التقى لا يدوم اللقاء، لا دوام، لا بد للإنسان أن ينحدر من القمة إلى السفح. لماذا لا تفتح لي الباب يا حبيبي؟ لماذا لا تتكلم؟ أم لعلك فتحت الباب ولم أرَ، وتكلمت ولم أسمع؟ عيناي مفتوحتان ترقبان ولم أرَ، أذناي منصتتان ولم أسمع . بماذا انشغلت عنك؟ بطرقة على الباب، بنور بطارية تحرق العينين، بعيون البرج مغروسة في الظهر، بخطوات رتيبة ولدت معي يوم ولدت، لا تتسع عيناي وأذناي لسواها، خطوات تدب في ثقة، وكأن صاحبها يملك الأرض وما عليها؟ !

واستولت على سامية رغبة جامحة في أن تلقي بنفسها في عرض الطريق لتسحقها الخطوات، فلا تعود ترى ولا تسمع، واقتربت خطوات عسكري الدورية من جديد، ولم تتحرك سامية من مكانها،

لم تتسلل لتختفي خلف الشجرة كما كان ينبغي أن تفعل، ولم تلقِ بنفسها في عرض الطريق كما أرادت. وقفت ترتجف لصق الباب وبصيص من نور، ومر عسكري الدورية وهو نصف نائم فلم يرها .

وعندما اختفى عسكري الدورية في الاتجاه المضاد، بدأت سامية تدور حول سور البيت تبحث عن ثغرة، تتحسس الجدار في عناية بيديها، تشب على قدميها لتصل إلى أقصى ما يمكن أن تصل إليه، ثم تنزل بيديها من أعلى إلى أسفل وهي تنحني، تكاد تركع على ركبتيها. لا بد أن هناك في مكان ما ثغرة تستطيع أن تنفذ منها إلى الداخل. ليست قريبة كما حسبتها وهي في السادسة عشرة من عمرها بحيث تمد يدها وتحتويها، يداها لا تتحسسان سوى الصخر. وفي بطء تحركت سامية بجوار سور البيت، تشب وتنحني خطوة بعد خطوة، وخدشت يدها قطعة مدببة من الطوب، وبدأ خيط رفيع من الدم يسيل، ولم تشعر سامية بالخدش، واستمرت تتحسس السور. ليتها تستطيع أن تحرقها، لو كانت معها لحرقتها، ولكنها هناك في البيت القديم محبوسة في إطار فضي منقوش بالورود، صورتها وهي في السادسة عشرة من عمرها. تحرقها، وما حاجتها إلى أن تحرقها وقد أحرقتها الأيام؟ أحرقت البلهاء بابتسامتها البلهاء وبراءتها البلهاء، شفتاها تنتظران في ثقة واطمئنان النعيم الذي ينعكس في عينيها. السور قارب على الانتهاء، ولا ثغرة هناك. البلهاء لم تدخل الثغرات في حسابها، وما حاجتها إلى الثغرات؟ الدنيا دافئة كشعاع من الشمس يطويها ويسلمها للخدر، الدنيا مثيرة كومضة برق، الدنيا أصيلة كفص من الماس الحر، الدنيا بساط ريح يحملها إلى القمة، وفي القمة يبقيها، يحدوها بأجراس الفرح الفضية بألوان قوس قزح، بومضات أشعة القمر على سطح عميق وساكن من الماء، بأهازيج الحب الدائم والمتجدد. البلهاء! السور محكم وكأنه سور سجن .

انتهى السور ولا ثغرة هناك. مثالية، قال محمد ومن بعده رفيق، الأشياء نسبية وكفانا مطلقات، البرج برج حمام، وصاحب البيت ليس بالغريب، ولا غريب إلا الشيطان، قال رفيق، وكل شيء وارد في دنيانا هذه وجائز، وما من ثمة مكان أمثل، ولكل بيت صاحب، وقد يكون صاحب البيت هذا أهون ضررًا، ولعب يلعب فهو لاعب، أفضل تعريف للسلوك المطلوب، قالت أمها ومن بعدها أبوها والناس، كل الناس. واللعب المحسوب هنا وهناك وفي كل مكان .

وتساءلت سامية إن كان هذا بصيصًا من نور أم هي تتوهم. هل ما زالت بلهاء وهي في الخامسة والعشرين؟ الأكيد أن بصيصًا من نور ينبعث من عتبة باب مغلق، وأن عليها أن تنتظر لتلج هذا الباب .

واتجهت سامية إلى السيارة، وتمددت في جوف المقاعد الخلفية تنتظر، ولم تلبث أن سقطت في غفوة النوم، أقوى من خوفها من شعورها بالبرد، من أملها ويأسها. وصحت على صوت المؤذن ينادي للصلاة. وانكمشت في قعر السيارة، وأزيز الباب يتعالى كفيلًا بإيقاظ الجيرة مكتملة، وصاحب البيت يخرج إلى الشارع، عروق يده زرقاء نافرة، وأصابعه تسحق حبات المسبحة، وفمه يتلوى وهو يبسمل ويحوقل. وانسلت سامية داخلة إلى البيت بعد أن ابتعد صاحب البيت .

عبرت سامية الممر المفروش بالحصى إلى بيتها الجديد، وقرعت الباب قرعة خفيفة، ووقفت تنتظر لحظة، وعيون البرج لا تغفل ولا تنام مغروسة في ظهرها، وانفتح الباب فتحة صغيرة، وبدا رفيق بكامل ملابسه على عتبته، وارتجفت سيجارته بين شفتيه وهو يبتسم في دهشة، وتراجع إلى الخلف يفسح لها الطريق، وبعد أن أقفل الباب في حرص صاح :

ـ دي مراتك يا محمد؟

وخرج محمد مندفعًا من الحمَّام وهو يحمل حزمة من الأوراق في يده، انفرطت على الأرض، وهو يرقب سامية في استغراب. وبدا محمد لسامية بعيدًا ومتنائيًا وهو يقف يتفحصها هكذا، وارتفعت يداها بلا وعي تُسوِّي شعرها، وعادتا ملطختين بالطين .

وقال رفيق ودخان سيجارته يتجمع حلقات بعد حلقات :

ـ إيه يا محمد؟ إنت مش عارفها؟ !

ومال برأسه إلى جانب، وبإشارة من يده اليمنى والسيجارة ما زالت فيها مشتعلة، قدمهما الواحد للآخر :

ـ زاهية.. محمد .

وأبعدت سامية ثوبها المبلل عن جسدها، واقترب منها محمد يقول في قلق :

ـ جرى إيه يا سامية؟! إنتِ عملتِ في نفسك كده ليه؟ إحنا طول الوقت فاكرين إنك قاعدة في العربية ورفيق كان يا دوب خارج لك .

وراقبت سامية حلقات الدخان تتمدد حلقة بعد حلقة، وقالت لمحمد في حياد وبلا عتب :

ـ كنت منتظرة إنك حتفتح لي الباب .

وامتدت ذراع محمد إلى سامية، وكادت تلمس خصرها، ثم ارتدت إلى جنبه وهو يقول :

ـ كان بودي ولكن... أرجو أن تكوني فاهمة الوضع يا سامية .

وتبادل محمد ورفيق نظرات متفهمة، ألقت سامية نائية معزولة خارج الدائرة، ولأول مرَّة في حياتها استشعرت الخجل في وجود محمد، وتمنت لو لم يكن قد رآها هكذا ملطخة بالطين، وسحق رفيق سيجارته بقدمه على البلاط وقال :

ـ ربنا ستر، لولا الصدفة كانت سامية ودتنا في داهية. أنا ...

ونهر محمد رفيق في رقة عن إكمال ما بدأ، وانكمش أنفه وهو يضحك ضحكة خفيفة عابرة يزيل بها التوتر الذي ساد للحظة، وتمعنت سامية في وجهه، وأدركت أن مدة طويلة من الزمن قد انقضت على آخر مرَّة رأت فيها هذا الوجه، سنة وسبعة عشر يومًا، وروعها هذا الإدراك، وكأنها لم تدرك حتى هذه اللحظة مرور الزمن، ومحمد يربت على كتف رفيق يقول :

ـ حرام عليك يا شيخ! البنت تاعبة نفسها عشان خاطرنا !

والدائرة تعزل سامية خارجًا عنها، تنأى بها وحيدة، وعيناها تغيمان وهما تتركزان على بندول الساعة يتحرك جيئة وذهابًا، يبدو على وشك أن يتوقف ولا يتوقف، وهي جالسة على مقعد طبيب الأسنان وآلة الحفر تنخر في عقلها، تدور وتمس العصب، تتوقف لتعود تمس العصب. ولمحت سامية الأوراق التي انفرطت من يد محمد منثورة في فوضى في الصالة، ووجدت نفسها تركع على ركبتيها تجمعها بيد مرتجفة لتعود فتنفرط، والبندول ينخر في العصب .

ومال محمد نحوها يمسك بيدها ويقول :

ـ مش مهم يا سامية. ادخلي إنتِ خدي حمَّام وغيري هدومك .

وتشبثت يدا سامية بالأوراق تنفرط وتعاود جمعها، وكأن كيانها بأكمله يتوقف على إعادة ترتيب الأوراق، واستقامت وهي تتنهد، ووضعت الأوراق على المائدة تُسوِّيها بيديها، وبندول الساعة يزحف جيئة وذهابًا، والأوراق لا تنتظم. وسحب محمد سامية إلى الحمَّام، وقبل أن يقفل الباب خلفها دس في يدها شيئًا، وحين تطلَّعت إليه متسائلة قال :

ـ تغييرة .

وأضاف :

ـ هدوم عشان تغيري. الهدوم اللي إنتِ لابساها ما عادتش تنفع .

الفصل السادس

شعرت سامية وهي ما بين النوم واليقظة بعينين تتفحصانها، وتململت تدفع عنها اليقظة وتتشبث بغفوة النوم. أشعة الشمس تتألق كحبات ماس على زبد الموج، ويدها تضرب الموج إلى جانب يد محمد، مع يده، تغيب في الزرقة، وتعود تتبدى كحمامة بيضاء، جسمها يلين تحت نظرة محمد، ينساب في رشاقة وجمال. من أين جاءتها الرشاقة؟ من أين واتاها الجمال؟ محمد يرقبها بعينين تتألقان، يغيب في الماء وتنتظر واجفة أن يعود فيرقبها، يسميها، يميزها عن الكل فتنساب منتشية في الماء. محمد ينفض رذاذ الماء عن شعره، فيلفهما الرذاذ معًا، يعزلهما عن بقية الناس. محمد يهمس: إنتِ عارفة عاملة زي إيه النهارده يا حبيبتي، زي السمكة البلطي، ويداها بلا وعي تسويان

ثوب الاستحمام على فخذيها المشدودتين في امتلاء، وهي تدرك لحظتها أنها جميلة فتضحك، توشك أن تقع في الحب مع نفسها، مع جلد وجهها الخمري المشدود كصفحة رق، مع قدميها الصغيرتين يدفئهما محمد بأنفاسه قبل النوم، مع استدارة خدها التي تنحدر في نعومة إلى أذنها، كما يقول محمد، ومع قفاها الذي لا يكف يزيح الشعر عنه .

وارتفعت سامية إلى درجة أعلى من الوعي، بددت الحلم، وأبقتها محبوسة بين أعمدة سرير سوداء. وطافت عيناها بالحجرة في استغراب، محمد يجلس إلى المائدة يوليها ظهره، وعلى المائدة أوراق، المرآة المشروخة، والأريكة تلفظ أحشاءها، وبندول الساعة يتحرك في رتابة، وهي تركع على الأرض تجمع أوراقًا انفرطت ولا تنتظم، والأكيد أن اللقاء تعذر بالأمس بينها وبين محمد، كل هذا الشعور بخيبة الأمل، بالغربة، بالحرج، بالخجل، ما هكذا تصورت اللقاء! السيل الذي حسبته جارفًا لا ينقطع، انقطع بالأمس، وتعذَّر اللقاء. أهو مرور الزمن؟ ولكن ما عسى أن يصنع الزمن في حب كحبها، حبنا أقوى من الزمن، ومحمد معي وهو غائب، قالت لأمها، وانثنت تنتشل من العدم صورة محمد، تبهت يومًا بعد يوم. أيكون دوام الحب مطلقًا آخر من مطلقاتها؟ أهو العالم الخارجي يثقل عليها بوجوده، يسد مجرى السيل الجارف، ويُملي هذه النظرات المتوجسة، والشفاه متربصة، والانغلاق على الذات، والكلمات واللفتات محسوبة؟ هل يستحيل دوام الحب هنا؟ وصاحب البيت موجود، وهو رفيق، أين ذهب رفيق؟ وعيون في البرج، وبطارية تغشى لها العين، وطرقة على الباب، أم فات أوان الطرقة، ومكان الطرقة حل الاقتحام؟ اقتحام من ومن؟ رفيق ليس بالقطع موجودًا الآن .

وهمت سامية أن تنادي محمد، وتوقفت قبل أن تناديه. رأته يجلس على البساط الوردي في حجرة المعيشة، في بيتها يفسح مكانًا للضيوف، يميل برأسه إلى جانب كعادته، وهو ينصت باهتمام والحديث دائر، يجيد الاستماع ويجيد الكلام، يكسر الكلفة، ويصل الود، ويغمر المكان كله بدفئه، وفجأة يرفع إليها عينين متوهجتين، وهو يدرك أنها تدرك. ويلفهما وهج العيون لحظة كإنسان واحد، يحلق بهما لحظة منفردين عن بقية الناس. ويتبادلان النظرات لحظة، كما لو كانا متآمرين حققا في زحمة من الناس، وفي غفلة منهم، شيئًا نادرًا ما يحققه البشر. ويعود يميل برأسه يستمع إلى الضيوف، ويتسارع نبضها وهي تردد غنوة منتصرة : لم أعد وحيدة يا حبيبي، حطمت أسر الجسد، أنا أنت يا حبيبي، أنا معك، في عروقك، في الدم أسري، في نبضات قلبك، في خلجات فكرك، في وهج عينيك. ولكن أين ذهب رفيق؟ أكان موجودًا معهما من البداية، من بداية البداية، عُدواني ومقتحم، والغريب ألا يضج محمد من التفافه الدائم عليه! ببعض الثقة بالذات، يمكن أن يكون إنسانًا رائعًا، يقول محمد، ورفيق نقيضي، في كل شيء نقيضي، تقول هي، وتزدهي بالتناقض، ولا تغفر لمحمد قوله في سياق آخر: ما أكثر ما تتشابه النقائض .

وراقبت سامية محمد، وهو يوليها ظهره في أوراقه، وانبهرت كما انبهرت دائمًا باستواء منابت الشعر في قفاه، مسطورة في خط مستوٍ وكأنما بمسطرة، مسفرة عن التناقض بين سواد الشعر وبياض الرقبة العاجي، مصقولًا لا تبين فيه فتحات المسام، ومحمد الآن يُقدِّم علبة الحلوى للضيوف في حجرة المعيشة، ويقف أمامها، وبلا سبب يضحك، يدس العلبة في حجرها، وبلا وعي يلمس يدها، ومن اللمسة تعرف ويعرف، وتلفهما الموجة من جديد، بعد قليل نخلص من الزحمة،

بعد قليل نقفل الباب، بعد قليل، ويضحك وتضحك بلا سبب وينشط وتنشط، ويشعران بأنهما بحاجة ماسة إلى أن يبذلا من أنفسهما للضيوف، وكأنما يدينان لهم بالاعتذار، يودان أن يعوضوهم عن شيء فقدوه، شيء لا يعرفون حتى ما هو، ويمضيان، يسامران هذا ويلاطفان ذلك.. بعد قليل، ويحلفان أغلظ الأيمان بأن الوقت ما زال مبكرًا، ويضحكان أعلى مما يضحكان قبل أن تمتد جلسة الضيوف متأخرة.. بعد قليل، ما أحلى الانتظار، وينظر إليها محمد وعيناه متوهجتان، ويقول الناس كم هي جميلة وطيبة ورقيقة، وتقفل الباب خلفهم أخيرًا وهي تشعر بأنها تحبهم كثيرًا، هؤلاء المساكين! واستدارت سامية في السرير مستعدة للقاء، تهمس بصوت يخالطه الحنين :

ـ محمد .

وباغت النداء محمد، والتفت إلى الخلف في حركة سريعة، ورصدت نظرة الخواء في عينيه، وقفزت جالسة في السرير، وواجه محمد سامية مرحبًا، وهو يجمع أوراقه يُسوِّي أطرافها في حرص على المائدة :

ـ أهلًا سامية. أنا ما رضيتشي أصحيكِ، قلت أسيبك تستريحي أحسن .

وتطلعت سامية إلى محمد ترقبه وهو يتكلم، شيء ما غريب في نبرته، في التعبير على وجهه، في حركته. ما الذي جد؟ أهي الآن مهذبة متحفظة، ترسي الحدود فيما بينهما، أم هي تتوهم؟ شيء ما قديم وجديد في النبرة في التعبير في الحركة، فبماذا يُذكِّرها؟

وجلس محمد على طرف السرير يقول :

ـ هيه نمتِ كويس؟

وطوَّقت سامية ساقيها بذراعيها، وقالت في خفة :

ـ الحمد لله .

وقال محمد :

ـ وحشتيني قوي يا سامية .

ـ وإنت كمان .

ردت سامية، وأدركت أنها خجلة ومرتبكة، ولو لم تكن كذلك لأفصحت في التعبير عن عمق مشاعرها، وخاصة الآن وهي على وشك أن تستعيده بعد طول غربة وتلطُّم. أنا أنت يا حبيبي، أنا معك، حطمت أسر الجسد، في العروق مع الدم أسري. ولكن أين ضاع وهج العينين؟ أهو الآخر مرتبك وخجول؟

وراقبت سامية محمد يجلس على طرف السرير ضامًّا ساقيه، معقود اليدين، وتساءلت: أين ضاع السيل الجارف يوحدهما معًا؟ وشيء قديم وجديد في جلسته، في نبرته، في تعبير وجهه يقول: فليلزم كلٌّ حدوده. وارتجفت شفتا سامية. صرحي لمحمد بحبك يا سامية، قالت مها، لمِّحي حتى. مستحيل، قالت هي، إنتِ عارفة أنا لما باشوف محمد داخل خنه بالشكل ده يتهيأ لي إيه يا مها؟ إنه نقطة زئبق حيطانها مالسة ومدورة، الواحد يتهيأ له إنه ماسكها وهي بتتزحلق من إيده. وضحكت مها: زي دودة القز وإنتِ الصادقة لما تدخل شرنقتها. مستحيل أن تنقضي حياتهما المشتركة وكأن لم تكن، أن يعودا إلى نقطة الصفر، إلى بداية البداية في علاقتهما .

وبمؤخرة إصبعها مست سامية أنف محمد، وأمسك بيدها قبل أن تسحبها، ووضعها في ارتباك على راحته، وأجرى عليها إصبعه، وجبينه يتعقد فيما يشبه الغضب. تعقد جبينه وهو يدس في يدها زهرة القرنفل، واستدار يوليها ظهره، كانت كشأنها في بداية علاقتهما في حفل من الحفلات التي يحضرها ليراها وتحضرها لتراه، والتي يخرجان منها ولا شيء يميزهما عن زحمة الناس. وسحبت سامية يدها من يد محمد، ورفعتها بلا وعي تُسوِّي شعرها وتقول :

ـ أظن ما شكلي غلط .

قالت سامية وإلى نقطة الصفر تعود، ومستحيل تقول هي، وكل شيء جائز في دنيانا هذه ووارد، يقول رفيق، وحدَّ محمد السمع :

ـ تفتكري حد جاي؟

وتنفس ارتياحًا، وتنفست، والخطوات تتباعد، وعاد محمد يقول :

ـ كنتِ بتقولي إيه يا سامية؟

وأجابت متمتمة في خجل :

ـ ولا حاجة .

وتعلقت أنفاسها ببندول الساعة يتحرك في رتابة جيئة وذهابًا، ومحمد بالأمس يقول لرفيق :

ـ حرام عليك يا أخي، البنية تاعبة نفسها علشان خاطرنا .

على وجهه ذات التعبير يقول: فليلزم كلٌّ مكانه. حسبت أنها نسيت هذا التعبير على وجه محمد، ولكنه كان على وجهه بالأمس أمام باب السيارة وهو يقول: وإنتِ حتعملي إيه؟ وفجرًا وهو يقول: أرجو أن تكوني فاهمة الوضع، وعلى وجهه الآن وهي إلى نقطة الصفر تعود، وأنا أنت يا حبيبي، وإلا خبّرني مَن أنا؟

وانقضَّت سامية على محمد في حركة مفاجئة، تتعلّق في عنقه بجنون، وشعرت بوجهه ينحرف لوهلة عن وجهها، وبجسده يتصلَّب لوهلة تحت صدرها، ودفنت رأسها في صدره. وطوَّقها محمد وهو يمسح على شعرها بشفتيه، ويرفع إليه وجهها يُقبِّلها في فمها في رقة متناهية. وتلقت سامية قُبلاته، قُبلة صغيرة بعد الأخرى بشفتين جافتين، وعادت تدفن رأسها في صدره .

وهمس محمد منزعجًا :

ـ سامية مالك يا حبيبتي؟ إنتِ مش طبيعية خالص !

وانتفضت سامية واقفة تجاور المرآة المشروخة، وعاد محمد يطوقها من الخلف بذراعيه :

ـ ما تخافيش يا حبيبتي، ما تخافيش .

ودمعت عينا سامية. عادت اللغة تقف بينهما كالجدار، راح الزمن الذي استطاع فيه أن يكمل جملة بدأتها، وعاد محمد إلى بداية البداية وهو يقول :

ـ أنا آسف يا سامية إني وضعتك في الوضع ده !

شهور وشهور وهما يدوران في دائرة مفرغة، يعرف وتعرف، تسومه عيناها العذاب. إلى متى هذا الصمت؟ ويغوص بحلقه ويمضي، وتمضي غريبة بين الغرباء، وأنا ما يهمنيش يا مها، قالت هي، أنا لسه على البر، ما دام مش سائل، أنا كمان مش حاسأل فيه. في البداية كانت تستطيع أن تقول أنا، كانت مستقلة عنه، ولكن من هي الآن؟ أنا أنت يا حبيبي والحلقة تكتمل. مَن أنا؟ تسأل هي، وتكاد تسمع محمد يقول الآن ما سبق أن قاله في البداية :

ـ أنا آسف، يظهر سكتنا مش واحدة !

وأسقطت سامية ذراع محمد من حول خصرها، وتقدمت نحو الأريكة تجلس، وفي منتصف الطريق لمحت صورتها في المرآة المشروخة، وبلا وعي أشاحت بوجهها ثم استدارت في بطء، وواجهت الصورة تسأل: مَن أنا؟ وطالعتها المرآة بكتلة من اللحم بأربع عيون، تضيع ملامحها في العتمة، وسؤال «مَن أنا؟» يلح على الخاطر من جديد، وخبئيني يا أمي أنا لا شيء، بالظلمة دثريني. وصرخت سامية قائلة :

ـ مستحيل! مستحيل !

وسطع نور الحجرة، وقال رفيق وهو يقفل الباب خلفه :

ـ هوَّ إيه اللي مستحيل؟

وألقى مجموعة من الصحف اليومية على المائدة، ووضع في المطبخ حقيبة ورقية مليئة بالمأكولات .

الفصل السابع

ضاقت الحلقة، نشرت الجرائد صورة محمد، وفي تحقيقات مستفيضة قصة هروبه من السجن، وأدى رفيق كل المهام الموكولة إليه بنجاح، أخفى العربة، وأفسد خطة الشرطة بإبلاغ عدد من الزملاء باتجاه النية لإلقاء القبض عليهم. وبدا رفيق في قمة انتصاره ومحمد يدعوه بملاكه الحارس، وسامية تستعيد وهي تقرأ الجرائد ضيقها في الطفولة بالملاكين يثقلان الكتف اليمين واليسار، ليل نهار يحسبان على الإنسان السيئات والحسنات. وفي تحقيق من التحقيقات بدا محمد كفرانكشتين، وفي تحقيق آخر بدا كمارلون براندو، يدس الخنجر في صدر عدوه والابتسامة الساحرة على شفتيه، وكل شيء وارد في دنيانا هذه وجائز وما غريب إلا الشيطان، وسؤال «مَن أنا؟» يلح على الخاطر، ورفيق نقيضي، في كل شيء نقيضي .

وتوقفت سامية عند التحقيق الثالث، ومحمد يعاني من انفصام الشخصية، ويتأرجح بين الإنسان العادي والوحش الكاسر، مثل دكتور جيكل ومستر هايد، وسؤال «مَن أنا؟» يلح على الخاطر. ورفيق منتشيًا يعتلي القمة التي ليست بعدها قمة، وهو يواجه رجال الشرطة، وينسال عرقه أصفر كعرق المحتضرين، وقد انفضت لحظة التحفز والتربص للخطر، ومحمد يقول بعد مشوار طوله أربع سنوات :

ـ أنا آسف، يظهر سكتنا مش واحدة .

وإلى نقطة الصفر تعود هي، وكل شيء نسبي ووارد في دنيانا هذه وجائز، ومحمد يستحيل في تحقيق رابع تحت عنوان «الرجل الخفي» إلى حرباء تغير لونها وفقًا للبيئة، ورفيق يتمدد مع كل كلمة استحسان تصدر من محمد، وينفثئ كبالون انفجر عند أي نقد لأفعاله، ونظرة تحيي، ونظرة تميت، وقماط المولود في عينين سوداوين، وكفن الميت، ومحمد يملك وفقًا للتحقيق، قدرة هائلة على التنكر، وهو يستطيع أن يغير فيما يغير لون عينيه، ويرجح أنه اختار اللون الأخضر لأنه لونه المفضل، ومَن أنا؟ تسأل هي، وإلى نقطة الصفر تعود، والمرآة المشروخة تطالعها بكتلة من اللحم، وخبئيني يا أمي خبئيني، كففت عن السعي، بالظلمة دثريني، ورفيق نقيضي، في كل شيء نقيضي، لا تكف هي تقول، وكأن هذا التناقض يمنحها الهوية والتعريف، ونور بطارية مسلط على عينيها، وجسدها بلا رغبة يتلوى، وتحت عنوان «الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها» يُنشر تحقيق عن محمد تحت صورة مغنية تكشف للمصور عن صدرها، ولعب يلعب فهو لاعب، أبلغ تعريف للسلوك المطلوب، في البيت القديم أم في كل مكان؟ وماذا لو لم أستطع؟ سؤال غير وارد، والطريق الذي جمعها بمحمد يصبح طريقين، وحادثة الهروب تعتبر سابقة خطيرة ومثيرة أيضًا، سابقة تنطوي على تحدٍّ للأمن والنظام، وعلى تشجيع وقح لمن لا يزال في حاجة إلى التشجيع، ورفيق يقول لمحمد وهما جالسان حول المائدة :

ـ بشرفك أن مدوَّخ البوليس السبع دوخات .

والكاتب يؤكد سابق تحذيره للحكومة في عدد كذا، في الصفحة كذا، بتاريخ كذا، بخطورة اهتزاز ميزان العدالة، ولكن لا الحكومة اتعظت، ولا رفيق كف عن التفاخر، والكاتب يسجد حمدًا لله على ما أعطاه من قدرة على كشف حُجب المستقبل، وينوح على عمى الحكومة التي لم تستفد من قدرته الخارقة هذه. ويختتم التحقيق بمجموعة من علامات الاستفهام والتعجب والنقط، وإلى نقطة الصفر تعود هي، والحلقة تضيق، وماذا؟ ولماذا لا تجد جوابًا؟ وقماط المولود في عينين سوداوين وكفن الميت، وسؤال «مَن أنا؟» يلح دون جواب على الخاطر، والحب الذي هو أقوى من الزمن فيما يبدو مطلقًا ابتدعته هي وعبدته .

واستقرت عينا سامية على رفيق، وهو يجلس هو ومحمد حول المائدة يتبادلان الحديث، وأقرت بأن نقيض الشيء هو شبيهه: رفيق يقتحم بعدوانيته، وهي تتسلل بعذوبتها، ونظرة تحيي ونظرة تميت، ومحمد ليس في واقع الأمر في حاجة لأيهما .

وعاودت سامية القراءة، وتوقفت عند سطور تقول: هذا وقد توصلت النيابة إلى أدلة تكشف عن الغموض الذي اكتنف الحادث، وإن احتفظت بسرية هذه الأدلة حرصًا على صالح التحقيق.
واعتدلت في جلستها، وسمعت أحشاء الأريكة المعدنية تئن، وهي ترتطم بالأرض. ضاقت الحلقة ولا وقت، لا بد أن تسرع، أن تبدأ، أن تصل، إلى ماذا؟ للمرأة راكعة على قدميها ملطخة بالطين تنظم أوراقًا لا تنتظم؟ لقبض الريح، ونظرة خاوية في العينين، وتعقيدة على الجبين، وأرجو أن تفهمي الوضع؟ من أي مادة هلامية صُنعت؟ ألا تستطيع أن تقف على قدميها مستغنية كما يقف الناس؟ وهل حبها لمحمد حب الند للند، أم ضياع في الآخر وفقد للذات؟ وهل يتأتَّى لها يومًا أن تستعيد بالحب ما فقدت في الحب، أن تتحرك بإرادتها، أن تفعل أن تكون غنية مستغنية؟! ومحمد لا يبرأ من تفاؤله، يقطع بأن كل إنسان يمتلك ثروة عليه أن يكتشفها، وإذ ذاك سيجد قوة لا عهد له بها، والحلقة تضيق ولا وقت، وصاحب البيت موجود هو ورفيق، وعيون من البرج لا تغفل ولا تنام، وقبض الريح، ومحمد يدس في يدها وهي على باب الحمَّام شيئًا لا تعرف ماهيته، والملابس التي ترتديها لم تعد تصلح على الإطلاق، فهل تواتيها القدرة على التغير؟ أنا العروسة، قالت، فهل تستطيع في يوم من الأيام، مكتفية ومستغنية، أن تجعل صاحب البيت يلعب لعبتها؟ وتمتمت سامية: ربي امنحني القدرة على أن أجمع أشلائي، ربي لا تبتلني بالتجربة قبل أن أجمع أشلائي .

وقال رفيق وهو يستند إلى مؤخرة مقعده :

ـ أنا؟ ولا الجن الأحمر يعرفني، تعرفني إنت؟ أنا مين؟ جاي منين؟

وأضاف ضاحكًا، وهو يتأرجح على مقعده :

ـ دا أنا شخصيًّا ما اعرفش أنا مين .

وتعلقت نظرة سامية بوجه رفيق، وأنت أيضًا؟ رفيق فايق سامح محمود حسين، بقدر ما أنا زاهية، والعروس، وقبض الريح بين يديَّ؟ هل أنت أيضًا عدم؟ وهل ردت لك المرآة صورتك كتلة مشوهة من اللحم، تضيع ملامحها في العتمة؟ وماذا أنت صانع إن ابتلتك التجربة ولم تعد المرايا ترد لك صورتك؟ ووجدت سامية نفسها تعتدل فجأة وتُناوِل رفيق الجريدة مشيرة إلى السطور التي استرعت انتباهها، وراقبت سامية رفيق يقرأ والصفار يدب إلى فتحتي أنفه. وأنت أيضًا؟ ليساعدك الله يوم يطالبون بك كما أنت على حقيقتك، يوم تواجه نفسك تسأل: مَن أنا؟ في المصيدة تتخبط مَن أنا؟

وقال محمد في انزعاج خفيف :

ـ فيه إيه؟

وقال رفيق :

ـ حيكون إيه يعني؟ الكليشيه إياه .

وطوى محمد الجريدة بعد أن تصفحها، وقال وهو يلقي بنظرة قلق إلى سامية :

ـ على العموم ضروري نكون مستعدين لكل الاحتمالات .

وأشاح رفيق بيده مستبعدًا لما جاء في الجريدة، وأصر محمد على أن الاحتراس ضروري، وربت على كتف رفيق. وتطلعت سامية إلى رفيق، وقد دبت الحياة في وجهه من جديد، وأنت أيضًا؟ ليساعدك الله يوم لا تعود تنتظر شيئًا، حيث لا تستطيع أن تثبت شيئًا، في المصيدة حيث المرايا عمياء لا ترد إليك صورتك منتشيًا، والحيطان صماء لا ترد إليك صوتك منتصرًا .

وقال رفيق لمحمد :

ـ المهم الواحد يبدأ بالهجوم، ينقض هو ما ينتظرش، يروح للخطر لغاية عنده، يلبد له وكل حتة في جسمه بتتنطط، ومرَّة واحدة ينقض، في ضربة واحدة يمسح اللي قدامه، وزي الصقر يطير .

وارتجفت شفتا سامية، ليساعدك الله حيث الطريق مسدود، ولا تستطيع أن تمتطي الخوف وتقول أنا، حيث لا تنتظر شيئًا، حيث المرايا عمياء، والحيطان صماء، في المصيدة حيث تتخبط في خواء تسأل: مَن أنا؟ ليساعدك الله ويساعدني، ضاقت الحلقة .

الفصل الثامن

ـ محمد، إنت لسه بتحبني؟

سألت سامية متوجسة، وهي جالسة على طرف السرير، ومحمد يقف إلى جانبها، وبددت ضحكة محمد توجسها، يقول وهو يجلس إلى جانبها يطوقها :

ـ وده سؤال يتْسِئل؟ طبعًا يا سامية باحبك، عندك شك في كده؟

وأشاحت سامية بوجهها بعيدًا، وقال محمد هامسًا :

ـ أسباب القلق هنا كتيرة يا سامية، أرجوكِ ما تزوديهاشي سبب من غير داعي .

وقالت سامية في احتجاج، وهي تمر بإصبعها على وجنته :

ـ ولكن إنت متغير خالص يا محمد !

ـ طبيعي، وإنتِ كمان .

وفي استنكار قالت سامية :

ـ أنا؟ !

وقالت لأمها محمد معي في غيبته، وانثنت تنتشل صورته من عدم، وعلى مر الأيام اكتسب صوت أمها، وهي تلح عليها بالعودة إلى البيت القديم، الفاعلية التي أعوزته في البداية .

وقال محمد :

ـ أيوه إنتِ يا سامية. مكسوفة كأننا لسه بنبتدي، مستغربة ومُحرجة .

وأضاف :

ـ دي سنة وأكتر يا سامية، والوضع هنا كمان صعب .

وتمتمت سامية :

ـ صاحب البيت ورفيق .

وقال محمد :

ـ الأشياء ما تتحسبشي كده يا سامية، ضروري نضع الجانب الإيجابي في الحساب، الخروج من السجن، الحرية، القدرة على الفعل، حقيقة إننا عايشين، ونقدر نبتدي بدايات جديدة ونتجاوز أوضاع جديدة .

وأقرت سامية أن عليها أن تبدأ بداية جديدة، وتساءلت إن كان الوقت سيسعفها والوضع، والأشياء نسبية، وما من وضع أمثل في دنيانا هذه، وعليها أن تحاول، وأن تصل رغم الوضع الصعب .

ومدت سامية يدًا مرتجفة تمسح على شعر محمد، لا بد أن تتصرف وبسرعة، أن تتعرف، تتعرف على مَن؟ على نفسها، على زوجها؟ حسبت أنها عرفته بحيث تكمل الجملة التي بدأها، وتسبقه في الاتجاه الذي يستدير إليه، ولكن هل عرفته حقًّا أم توهمت أنها عرفته؟ وإن كانت قد عرفته فلِمَ يتحتم عليها أن تبدأ من جديد. لا شيء يستقر على حال. أتكون الحياة سلسلة من البدايات والتجاوزات والبدايات من جديد؟ لا بد أن تبدأ من جديد قبل أن... المصعد يوشك أن يصل إلى غايته ورغبتها لم تتحقق، ربما لن تتحقق أبدًا، وتوهج وجهها وهي تقول: إنت عارف من أول ما شفتك ونفسي أعمل إيه؟ وكانا قد انفردا لأول مرَّة. واندفع الدم إلى رقبة محمد، وغامت عيناه، وجذبها نحوه يحتضنها، وتراجعت إلى الخلف وهي تضحك ضحكات قصيرة متقطعة. لم يكن هذا ما أرادت في هذه اللحظة بالذات، الدور الثالث، الرابع، لم يتبقَ إلا الخامس والأخير. ومدت يدًا عمياء تتخبط، واستقرت أصابعها على طرف أذنه الناعمة الدقيقة، وارتخى جسدها المشدود، وارتدت إلى حائط المصعد تتنهد في ارتياح، وقال في سخرية: خلاص؟ وأومأت برأسها في رضا دون أن تتكلم. وانفجر ضاحكًا وهما يخرجان من باب المصعد إلى المطعم حيث صحبها لتناول العشاء. وعرفت بعدها قُبلاته وضماته المختلسة والمطمئنة، وارتادت معه دروبًا من السعادة والتعاسة، ولكنه لم يعرف أبدًا أن شيئًا ما لم يكتمل لها، على نفس الصورة التي اكتملت بها اللحظة التي سخر منها، لحظة يتحسس الإنسانُ الإنسانَ، يتعرف عليه، ومن خلاله تكتمل معرفته بالوجود بأكمله، لحظة مدت يدًا عمياء استردت بصيرتها على أذنه. وسارت إلى جانبه تعرفه كما لم تعرفه من قبل، وركز الناس نظرهم عليها وهي تسير إلى مائدة خالية في آخر المطعم، وركزوه عليها وهي تجلس، وقال محمد يومها لأنها جميلة، ولم يدرك ولم تدرك أنها أوقفت الزمن ليلتها، واحتضنت اللحظة بين جفنيها، لحظة السعادة الخالصة والمعرفة اللانهائية. جلست غافلة لا تدرك أن اللحظة لن تلبث أن تزول، ولن تتكرر على نفس الصورة أبدًا، لحظة يصرخ الطفل الوليد صرخته المجلوة، وهو يتعرف على الحياة لأول مرَّة .

ذكَّرت سامية محمد بتلك اللحظة، ووجف قلبها والخواء يرتسم في عينيه لحظة. أرجوك يا حبيبي لا تضيعني، لا تذروني حفنة من الرماد، أبقِ على كياني، أنا من أنا لأنك تعرفني، وإلا خبرني من أنا؟ اسم، جسد بلا روح، بلا أعماق، بلا جذور؟ ومدت يدًا ترتجف إلى ذراعه، وتعلقت عيناها بعينيه في ابتهال: لم أعد بلهاء يا حبيبي، أنا الآن أعرف أن الحياة طاحون يطحن أجمل ما فينا، منخل ينخل كل دقيق ورقيق ولا يبقى إلا الحصى، فهل ضاع كياني فيما ضاع؟ كان اليوم الأول الذي ننفرد فيه أنا وأنت، شهور ونحن في دائرة مفرغة ندور، تعرف وأعرف وعيناي متربصتان بعينيك تسومانك العذاب: إلى متى الصمت؟ أكُتِبَ علينا دائمًا أن نتخبط في حوائط من الصمت؟

وانعكست الذكرى في عيني محمد شاحبة بلا ملامح، وفي صعوبة وفي ألم، وهو يصارع أمواجًا من النسيان، وبدأت تستكمل ملامحها. واغرورقت عينا سامية بالدموع، ومالت تُقبّل يد محمد، وارتخى جسدها المشدود، وزالت غربتها، ومال محمد على وجهها، يرفعه إليه برقة متناهية، والتقت عينا سامية بعيني محمد. ماضٍ لم يذهب هباء يا حبيبي، جذوري في الأرض، بعد قليل

سأعرفك كما لم أعرفك من قبل، سأعرف نفسي كما لم أعرفها من قبل، بعد قليل ستميل بفمك على عينيَّ، تبدأ باليسرى ثم اليمنى، جفناي لن يخطئا مس شفتيك، ولا ذراعاي رجفة يدك، ولا صدري نبضة قلبك، بعد قليل، بعد قليل سنصبح ذلك الإنسان الفريد نحن، لن تلبث وحدتي أن تنكسر، وحدتي انكسرت. وتصلب جسد محمد، واعتدلت سامية وقد عراها دوار، وكأنها تتطلع إلى أسفل من مكان شاهق الارتفاع. سمعا خطوات تدب على السلم، وطرق الطارق الباب، ولما لم يتلقَّ جوابًا انسحب .

وعادت سامية تتمدد إلى جانب محمد في السرير. لا وقت ليتعرف الإنسان على الإنسان، لا وقت لكي تنمو الأشياء. ربما كُتب على الإنسان في هذه الدنيا أن يقف بوجهه متجهًا إلى الحائط وظهره مكشوفًا، ربما كان هذا هو وضعه الطبيعي الذي لا بديل له، وما عليه سوى أن يتقبله، والأشياء نسبية، وما من وضع أمثل في دنيانا هذه، وربما لا داعي هنا لكي تنمو الأشياء، لا داعي سوى للنسيان، لا بد أن تغرق في النسيان، الإنسانة الأخرى التي انفصلت عنها متوترة تعد الخطوات. وقبَّلت سامية محمد، وبادلها القُبلات، ولكن شيئًا ما كان قد انقطع. ودفنت سامية رأسها في صدر محمد معتذرة. أنا واعية ولا أشعر بك، أذناي تنصتان ولا أسمعك، عيناي مفتوحتان ولا أراك، أين أنت يا حبيبي؟ أين أنا؟ لا، لا أستطيع أن أنسى، ضمني إلى صدرك يا حبيبي ضمني، أغرق وعيي في النسيان، بمخدرات قوية خدرني، في متاهات الضياع قدني، ما هكذا أردتك ولا أردتني.. لكي نحب لا بد أن ننسى، أن نضيع.. لم تعد أمامنا سوى لحظات الضياع .

وتشبثت سامية بمحمد في جنون، وتعكرت عيناها بارزتين إلى الخارج، والتوت شفتاها، وفقد وجهها الوسيم وسامته، وهي تنحدر إلى حالة هستيرية. وفي يأس، وفي جنون، حاولت أن تتصل، أن تحب، وفي يأس وجنون حاول هو الآخر. ولم تكن تحب هذه اللحظة، ولم يكن بدوره يحب. كان كل منهما يستغل الآخر كأداة لينسى، ليضيع. وقفزت سامية واقفة، وطرقات صاحب البيت تتزايد على الباب. لا وقت حتى للضياع .

وقال محمد هامسًا لسامية، وهي تسدل ثوبها وتُسوِّي شعرها :

ـ ما تخافيش، رفيق على وصول .

وانسلَّ يختبئ في المطبخ .

الفصل التاسع

انفرج الباب عن صاحب البيت، يقف جنبًا إلى جنب مع رفيق. وتنهدت سامية في ارتياح وهي تتراجع تفسح الطريق. وجود رفيق نجدة من السماء، انتهى دورها، ولكن هل بدأ لينتهي، وهل تتاح لها فقط فرصة الوقوف على قدميها؟

ولاحق صاحب البيت سامية، وهي تجلس مرتخية على الأريكة، وقال وهو يخفي لفافة خلف ظهره :

ـ حزري فزري، معايا إيه؟

وتحكمت سامية في ملامحها حتى لا تفصح عن مدى كراهيتها لصاحب البيت. بينها وبين هذا الرجل ثأر قديم، أي ثأر؟ أين ومتى وبمن يذكرها؟ وبماذا؟ لا تعرف، ولكن الأكيد أن الثأر بينهما بايت، وأن الأشياء لن تكتمل حتى تسويه .

وعاد صاحب البيت يقول متمتعًا باللعبة :

ـ حزري فزري، معايا إيه؟

وتساءلت سامية متى تجعل صاحب البيت يلعب لعبتها هي؟ وفقًا للقواعد التي ترسيها هي؟ ووجدت نفسها تلعب لعبته .

ـ مش عارفة، غلب غلابي .

قالت، وسمعت رفيق يقول لمحمد في العربة :

ـ برافو، مراتك بقت مِعلِّمة .

وأبدى صاحب البيت بعضًا من الضيق، لأن سامية أنهت اللعبة هكذا مبكرًا. ولكن تمسك سامية بقواعد اللعبة لم يترك له مجالًا للاحتجاج، ومن ثَمَّ استدار يواصل اللعبة مع رفيق الذي أجاب في اقتضاب بأن موعد النوم قد حلَّ، وفتح من حيث لا يدري أبواب جهنم. قفز صاحب البيت في الهواء وجلبابه ينتفخ كالمنطاد، يتخلص من ضحكات تلاحقت عليه ويقول :

ـ إنتم ما بتناموش، وأنا كمان .

وبدا رفيق متوجسًا وهو يسأل عما رآه صاحب البيت، وجاءه الرد شافيًا مانعًا :

ـ شايفكم. طول الليل والنهار شايفكم .

وغزا سامية خوف حيواني مبهم المعالم، تأكد لها أنه سيظل معها سالبًا لمنابع الحياة، ما لم تسوِّ ثأرها القديم مع صاحب البيت. ومد رفيق يده ينغز صاحب البيت في وسطه، وارتدت ذراعه إلى جانبه ثقيلة دون أن تصل. وجر مقعدًا من مقاعد المائدة، وجلس في الجانب المضاد محتضنًا للمسند، وخشيت سامية أن ينخرط في البكاء وهو يقول :

ـ غلب غلابي .

ولم يفعل، اعتدل في جلسته وأخذ يتمايل بمقعده إلى الأمام المرَّة بعد المرَّة، في مواجهة صاحب البيت وهو يتمتم :

ـ اخص كده.. تف كده.. صاحب البيت يعمل كده؟

وعاودت سامية الرغبة في أن تترك كل شيء خلفها وتهرب، الوضع أصبح مستحيلًا، صاحب البيت قد اكتشف وجود محمد متخفيًا، ففيمَ هذه التمثيلية التي تُعذِّب رفيق وتُعذِّبها؟ والتي تصادر السؤال ما العمل الآن؟ ليساعدك الله ويساعدني. ضاقت الحلقة، ورفيق ما زال يتنغم بذات الصوت المخنوق .

ـ اخص كده.. تف كده.. صاحب البيت يعمل كده؟

وحك صاحب البيت عينيه بمؤخرة يده، وهو على وشك البكاء، وانقض عليه رفيق يقول غاضبًا :

ـ شُفت إيه؟

ـ البيت بيتي، وأنا حُر فيه .

قال صاحب البيت بصوت فخم ضخم، لا يتماشى بحال مع جسده النحيل، وأضاف في نهائية :

ـ آه، ما هو الشَّرط نور .

وقالت سامية لصاحب البيت في صوت معسول :

ـ شُفت إيه؟

آملة أن يكذب توجسها الذي كاد يتحول إلى يقين. وخفف تدخل سامية التوتر الذي ساد للحظة، مفعمًا بالمخاطر بين رفيق وصاحب البيت، الذي أصبح الآن أكثر إقبالًا على مواصلة اللعب، وقال وهو يهز كتفه إلى أعلى ويخفضها :

ـ وأنا مالي هيه .

وخبأ وجهه بكفيه ملمحًا إلى أن ما رآه يدعو للخجل. ومال رفيق ونغز صاحب البيت في وسطه، وهو يسأل بلهجة معسولة عما رآه، وبدأ صاحب البيت يقفز وجلبابه ينتفخ في الهواء كالمنطاد وهو يردد متنغمًا :

ـ شفت.. شفت ...

ورفيق يصاحبه، يميل ويعتدل كل مرَّة على مقعده، ويقول كل مرَّة :

ـ إيه؟

وتوقف صاحب البيت، وأشار إلى كلٍّ من رفيق وسامية أن يقتربا ليدلي لهما بالسر، وحاولت سامية أن تقوم، واكتشفت أن جسدها قد أصبح تحت وطأة الخوف الحيواني المبهم المعالم، هلاميًّا بلا قوام، وارتدت إلى جلستها. وتجاهل صاحب البيت محاولات رفيق لاحتكار انتباهه، واستمر يطلب من سامية الاقتراب منه، وجذب رفيق سامية وهو يصرخ فارغ الصبر :

ـ خلَّصينا !

وكاد رفيق ينطرح أرضًا، وسامية تُلقي عليه بكل ثقلها، وصرخ وهو يستعيد توازنه يسأل عما جرى، وسامية مستندة إليه تخطو خطوات طفلة تتعلم المشي. واستندت سامية إلى المائدة بظهرها، واختنق صوت رفيق بالبكاء يتنغم كطفل يلعب :

ـ أهي جت.. أهي جت ...

ومرق صاحب البيت من بينهما، ووضع اللفة التي كان يخفيها خلف ظهره على المائدة خلف سامية، وعاد يضع يدًا على كتف سامية وأخرى على كتف رفيق وهو يقول في اختصار :

ـ شفت كل حاجة !

وكز على أسنانه، ورأسه ينكمش حتى كاد يغيب في كتفيه، وأضاف مشيرًا إلى كليهما :

ـ إنتِ وهوَّ مش ...

واستندت سامية بذراعيها إلى المائدة، وهي توليها ظهرها. والتزم رفيق الصمت هذه المرَّة، وأضاف صاحب البيت :

ـ إنتِ وهوَّ مش بتناموا .

وتوترت يد فايق على مسند المقعد، وبدا كما لو كان على وشك أن يرفعه ويحطم به رأس صاحب البيت، وبدلًا من أن يفعل انهار على المقعد جالسًا، يولي صاحب البيت وسامية ظهره ويواجه المطبخ .

وتقدَّم صاحب البيت من سامية وهي مستندة بظهرها، وذراعاها مقوستان على المائدة، وكاد يلاصقها، وانحرفت سامية إلى الوراء لتتحاشاه، وانحرف معها، وانحرفت يمينًا، وانحرف يحاورها. وأدركت سامية أن اللعبة هذه المرَّة فوق طاقتها، وودت أن تهرب بعيدًا، وشلها هذا الخوف الحيواني مبهم المعالم .

وأحنى صاحب البيت ركبتيه، وهو يتطلع إلى المائدة من خلال ذراعي سامية، وأشرق وجهه وهو يعتدل في جلسته على ركبتيه يقترب من ذراع سامية اليمنى ويمد يده حتى يكاد يمسها ثم يسحبها، وفجأة دس يده بين خصر سامية وذراعها اليمنى المقوسة والتقط اللفة التي تركها على المائدة، ومضى يهرول في اتجاه المطبخ حيث اختفى محمد .

وبلا وعي، وجدت سامية نفسها تقفز في خفة خلف صاحب البيت، تجذبه من الخلف من جلبابه، وتُحكم قبضتها حتى ينطرح أرضًا .

ودوى صوت انفجار صاخب، وصاحب البيت ينطرح أرضًا، وتناثرت قطع زجاج في الحجرة، وسمعت سامية قبل أن تغيب عن الوعي صاحب البيت ينوح :

ـ اللمبة، لمبة المطبخ انكسرت !

الفصل العاشر

أفرت سامية، وقد أفاقت من غشيتها، أن الإغماء كان وسيلتها للهرب من موقف أكبر من قدرتها على التحمُّل، ووجدت نفسها ممددة، وعلى طرف السرير يجلس محمد، وعلى الأريكة يجلس رفيق يدخن مقطب الجبين، وصاحب البيت غير موجود، أهو حقًّا غير موجود أم هو يسكنها متلفحًا بهذا الخوف الحيواني مبهم المعالم الذي يقهرها، ويتركها بلا رغبة سوى الرغبة في الفرار؟ وأرادت سامية أن تعرف ماذا حدث بعد أن أغمي عليها، وهل أثارت شك صاحب البيت حين طرحته أرضًا، وجاءها الجواب من رفيق :

ـ طبعًا لخبطتِ كل حاجة، ومن غير أي داعي !

قال قبل أن ينهاه محمد عن إكمال ما بدأ، ويوصي سامية بالتزام الراحة ومحاولة الاستغراق في النوم، ويكفيها أن تعرف أن كل شيء سار على ما يرام. وأصرت سامية على أن تتبين معنى قول رفيق أن ما تم من جانبها تم بلا داعٍ على الإطلاق، وقال محمد إنها بالغت في القلق بلا داعٍ، فهو لم يكن موجودًا أصلًا في المطبخ لحظة اندفع إليه صاحب البيت. وقفزت سامية جالسة تسأله: كيف؟ وقال محمد إنه تكهَّن بلحظة الخطر، وقفز إلى الحديقة وأغلق الشيش وتسلَّق عائدًا بعد انصراف صاحب البيت، وفقًا لخطة سبق الاتفاق عليها مع رفيق. واستوقفت هذه التفصيلة الأخيرة سامية، وتساءلت: لماذا أنا هنا؟ وودت أن تصفع محمد ومن بعده رفيق، وتمددت على السرير مولية الاثنين ظهرها. أي خطر كان من الممكن أن يجنباها؟ ! أي خطر؟ ! والدم ينسحب من ساقيها وذراعيها مؤذنًا بالموت أو على أقل تقدير بالشلل! لو عرفت مسبقًا أن لمحمد ملجأ يلجأ إليه عند الضرورة لوجدت الوضع محتملًا، ولتعاملت معه بعقلانية كما يفعل بقية الناس. لو عرفت ما طرحت صاحب البيت أرضًا، مثيرة لغضبه وشكوكه، ولما أغمي عليها أصلًا .

كل شيء هنا، كل تخطيط وتدبير، يتم في استبعاد كامل لها، وفي استغناء كامل عنها، فما الذي يبقيها في هذا المكان؟ ولماذا يحجبان عنها عن عمد المعرفة؟ أهو إشفاق عليها أم استهانة بها أم إيمان بأنها إن عرفت كفيلة بإفساد كل شيء؟ منذ بداية الرحلة لم تشاطرهما هي شيئًا، سوى الخوف طبعًا، ولا حتى الخوف. ضاعف الجهل بمجريات الأمور خوفها، ودفعها إلى سلسلة مجنونة من الأفعال تكرس الخطر بدلًا من أن تقلل من احتمالاته. أحَدَثَ هذا لأنها لا تعرف أم لأنها لا تستطيع الوقوف على قدميها؟ اندفاعها المجنون على سلم بيتها، توقعًا للإفراج ولا إفراج، اندفاعها المجنون من هذا المكان لتعود بمحمد، وصاحب البيت والبيرة، الليلة مزاج، وليلة في العراء، ولولا المصادفة، قال رفيق، لأفسدت كل شيء. وجودها هنا يُشكِّل عبئًا لا عونًا، فما الذي يبقيها في هذا المكان؟

وجلست سامية على السرير تأكل، وعينا محمد ترقبانها في إلحاح، وعينا رفيق. وحاولت أن تُركِّز على يدها وهي ترتفع بالطعام وتنخفض، وقطع البيض المسلوقة الصغيرة تنزل إلى معدتها، كما لو كانت قد ابتلعت البيضة سليمة، وأربع عيون من خلف المائدة مُسلَّطة في صمت عليها، وبندول الساعة يتحرك في رتابة جيئة وذهابًا، يكسر الصمت المخيم على المكان. ونحَّت سامية صينية الطعام جانبًا دون أن تكمل .

وخرجت من الحمَّام بعد أن اغتسلت وارتدت ملابسها، ووقفت في الصالة لحظة مترددة، واقترح عليها محمد أن تستريح، وانسلت تحت الغطاء دون أن تتكلم، وأمها على عادتها تسأل عبر التلفون: ماذا تنتظرين وحيدة؟ وهي على غير عادتها تتمتم: ولا حاجة، ولا حاجة خالص، وتسدل الملاءة البيضاء على رأسها. وشعرت سامية بعينيها تصطليان كجمرة نار داخل مقلتيها والقطار يردد، خلاص خلاص، وأدركت أنها لن تبكي إلا في نهاية الرحلة. فعندما تصل إلى البيت القديم ستنطرح في بئر السلم أرضًا تبكي، تشيع بكاءها كالنعيق صرخات نسوة يلبسن السواد. وتململت سامية في نومها وهي تتساءل: لمَ كانت نسوة البيت القديم دائمًا في حالة حداد؟

وقال محمد :

ـ إنتِ صاحية يا سامية؟

ولم ترد سامية، وبدأت تشعر بوجود محمد ورفيق شعورًا حادًّا مرهقًا، وأنصتت لعلهما يتكلمان. وساد صمت ثقيل محمَّل باتهامات يتذبذب بها الهواء، على وشك أن تتشكَّل ولا تتشكَّل. واستدارت سامية تولي محمد ورفيق ظهرها، وتبعتها عيونهما حيث استدارت تُدينها، بالصمت تدمغها، لو تكلما لعرفت ماهية جريمتها، ولتحددت على الأقل ملامحها. هل في أنها ضعفت، خابت، أحبت محمد، تزوجته، أم لأنها خُلقت على وجه الإطلاق؟ ولكنهما لا يتكلمان، لا يقطع الصمت إلا رفيف بندول الساعة جيئة وذهابًا مرَّة بعد مرَّة، كقطرات الماء تذيب الحجر، وحكة عود كبريت بالعلبة كلما أشعل رفيق سيجارة. كل شيء أهون عليها من هذا الصمت، أكُتِب عليها دائمًا أن تتخبط في حوائط من الصمت؟ عليها أن تتظاهر بالنوم الآن وفي الحال. وارتجفت سامية وهي تتصور ما سوف تسمعه لو تظاهرت بالنوم، رفيق سينطلق لا شك في هذا، ينظر بطرف عينيه إلى محمد ويقول :

ـ كان مالك إنت ومال الجوازة دي؟ والغريبة يا أخي إن كل زملائك حذروك. طول عمرها حتفضل عبء عليك .

وسيرد محمد ويقول :

ـ أنا كنت فاكر إنها في يوم من الأيام حتقدر تقف على رجليها .

ويسارع رفيق ويقول :

ـ الميت ما يقدرش يقف على رجليه .

لا، رفيق لن يقول هذا، رفيق محروم من الخيال، وهو لن يشعر بهذه الحقيقة إلا عندما يمر بتجربة مماثلة لا قبل ذلك، ربما قال هذا محمد، مستحيل، محمد لا يبرأ من التفاؤل، الإنسان وفقًا لرأيه لا يموت إلا حين يتوقف قلبه عن النبض، محمد سيرتخي ويقول حكمته المعهودة: كل واحد عنده ثروة إذا بحث في أعماقه في اللحظة المناسبة يجدها، كما لم يحلم بوجودها قَطُّ. وافتح يا سمسم، وينفتح باب كنز محمد، هل تتفتح هي عن كنزها قَطُّ؟ ومتى؟ ما أقل ما يعرفه هذا الرجل وما أقل ما يفهمه؟ ورأت سامية محمد يجلس مرتخيًا كعادته، وكأن شعلة لا تخبو في أعماقه ترسل باللمعة إلى عينيه الناعمتين كعيني شاعر، وبالومضة إلى شفتيه القويتين كشفتي مصارع، رأته يجلس متصالحًا مع نفسه، مكتفيًا متكاملًا في استغناء عن الآخرين. ما الذي تعنيه هي بالنسبة إليه؟ بل حتى ما الذي يعنيه رفيق لرجل مكتفٍ بذاته لا تنضب موارده؟ وكرهت سامية في محمد هذا الكل المتكامل الذي توهمت يومًا أنها نفذت إليه. لو كان ضعيفًا، أي آفاق كان من الممكن أن ترتفع إليها لو اشتدت حاجته إليها؟ أي آفاق حرمها منها هذا الرجل بهذه اللمعة في عينيه، وهذا البريق في شفتيه؟ لو بكى على صدرها لخبأت رأسه في ليل شعرها، وأوقفت تنفسها خوفًا من أن يزعجه تردده، ولكنه لا يضعف ويدعي أنه يفهم وينظر إليها هذه النظرة التي تقودها إلى الجنون، نظرة عارفة بلا معرفة، مدركة بلا إدراك الأقوياء لا يفهمون الضعفاء. رفيق يفهمها أكثر مما يفهمها محمد، رفيق أقرب إليها منه، ونظرة تحيي ونظرة تميت، وقماط المولود في عينين سوداوين وكفن الميت، والأرض تحت القدم تغور بلا سبب، تغور. وهي لم تُقصِّر في شيء، فعلت الممكن والمستحيل، اعتصرت كيانها إلى آخر قطرة حتى لم يتبقَّ سوى النفاية، ورفيق يقول :

ـ أنا عارف الصنف ده من الستات، الواحدة زي العَلَقَة، تفضل تمص في دم البني آدم لغاية ما تخلَّص عليه .

وارتجفت سامية بالغيظ، وكأن رفيق قد نطق بهذه الكلمات فعلًا. وقفزت واقفة، واندفعت تزيح المزلاج الداخلي عن باب الشقة، وقفز محمد واقفًا يلحق بها، وصاح رفيق محذرًا، وأسندت سامية وجهها إلى الباب وهي تقول :

ـ أنا حاتخنق هنا !

وأضافت ومحمد يربت على كتفها والوهن يتسلل إلى صوتها :

ـ ما هو كمان مش معقول كل الدخان ده في الأوضة !

وفتح رفيق زجاج النافذة وهو يقول :

ـ أما نشوف آخرتها إيه !

وجاءت جملة رفيق هذه كإشارة بدء، واستدارت سامية متقطعة الأنفاس محمومة تواجه رفيق :

ـ أيوه كده، انطق، اشتم، قول اللي إنت نفسك فيه من الصبح .

ـ بس وصلنا، استعد يا أستاذ، داخلين على دور هستيريا مُعتبر .

قال رفيق منزعجًا، وتقدَّم محمد يطوق سامية بذراعه في محاولة لتهدئتها، وقد أدرك أنها تقف على حافة انفجار قد يودي بهم جميعًا إن وصلت أصداؤه لصاحب البيت. وأفلتت سامية من ضمة محمد في عنف واستدارت تواجهه :

ـ وإنت كمان ما بتتكلمش ليه؟ ولَّا خلاص الإنسانية قتلاك؟ !

وقال رفيق :

ـ قلم يا محمد. مش حينفعها إلا قلم .

وارتفع صوت سامية، واختلطت الكلمات وأنفاسها تتسارع، وهي تقول لمحمد :

ـ قول إنك ما بتحبنيش، إني حمل تقيل عليك، قول إن جوازنا كان غلط .

وقال محمد مُنبهًا :

ـ الصوت يا سامية، أرجوكِ، امسكي نفسك شوية عشان خاطري .

وعاد رفيق يكرر :

ـ قلم يا محمد قلم .

وسامية تهدر خارجة من الوعي، وضحكاتها الهستيرية تقطع كلماتها :

ـ كنت فاكرة إني باعطيك اللي ما حدش عطاه للتاني، وإنت طول الوقت مش عايز، مستغني، قول إني عبء عليك، عَلقَة بتمص في دمك .

وقال رفيق :

ـ بعد شوية حتصرخ بالصوت، وتلم علينا الحتة !

ودفن محمد رأس سامية في صدره، وأفلتت من جديد وهي تتطلع مبهورة إلى رفيق، وكأنما نسيت وجوده، وتقدمت تواجهه في خطوات قصيرة ووجهها يتألق بفرح وحشي :

ـ عَلقَة بتمص الدم، عَلقَة، زيك تمام يا رفيق .

وأسندت سامية يدها إلى بطنها تسكِّن من الضحكات التي توالت عليها، وانقلبت الضحكات إلى أنات، واستطالت الأنات، ومد رفيق يده، وصرخ محمد محذرًا، واستقرت صفعة رفيق على خد سامية. واحتلت عينيها نظرة ذهول، وانسحب الدم من وجهها لحظة، ثم اصطبغ بالحَمار وهي تتحسس موقع الصفعة. وأزاح محمد رفيق الذي بدا مبهوتًا، ودفن وجه سامية في صدره، وسادت لحظة صمت، رفعت بعدها سامية وجهها مخضبًا بالدموع تقول لمحمد في هدوء وكبرياء :

ـ أنا عايزة أروَّح .

وأدركت سامية في ذات اللحظة أنها لأول مرَّة منذ التقت بمحمد تعبر عن رغبة غير رغبته، رغبتها هي الخاصة والشخصية .

وقال محمد وهو يُدرك نهائية القرار :

ـ بُكرة الصبح .

الفصل الحادي عشر

حاول رفيق أن يُعقِّد الأمور، وبدا كما لو كان متشبثًا بوجود سامية، غياب سامية سيثير شك صاحب البيت، وإن ثار الشك ضاع كل شيء، وهو لا يستطيع أن يترك محمد وحيدًا ويخرج، قد يقتحم صاحب البيت المكان في غيبته، وهو لا يستطيع بحال أن ينحبس مع محمد، فأمامه ما هو أهم بالخارج، ثم إنه لم ينقلب بعد إلى امرأة. وكاد رفيق يصل إلى حالة هستيرية وهو يعيد ويكرر أن من الضروري له أن يتحرك، أن يفعل، أن ينقض، أن يهاجم، والموت أهون عليه من انتظار عاجز ومشلول، وخاصة في هذا المكان الضيق المقفول الذي يختنق به فعلًا .

وسوَّى محمد الأمور كعهده، ما أيسر ما يُسوِّي الأمور! صاحب البيت لن يتشكّك في شيء، أم سامية مريضة في البلد وذهبت تعودها، ومرض الأم قد يطول، وخطر اقتحام صاحب البيت للمكان خطر قائم، سواء أكانت موجودة أو غير موجودة، وقد سبق وتنبها لهذه الحقيقة حين أضافا القفل الخارجي، ورفيق لن ينحبس في البيت، ولا داعي لأن يفعل، يقفل القفل خلفه ويتنبه عندما يعود من الخارج للإشارة المتفق عليها ـ يتراجع إذا لمح من الشارع شيش المطبخ مواربًا ـ والوضع مؤقت، فهما يستطيعان دائمًا أن يلجآ إلى الأصدقاء في إيجاد مكان جديد وخطة جديدة، والوضع المؤقت لن يكون مثاليًّا، ولكنه على ما هو عليه ليس بالمثالي أيضًا .

وتنهدت سامية في ارتياح وقد تقرر موضوع عودتها، ولم تُعر إشارة محمد الأخيرة ولا نظرة رفيق المتعالية أدنى اهتمام. منذ اللحظة التي عبَّرت فيها عن رغبتها الخاصة في مغادرة هذا المكان، انطوت على نفسها تحتضن خوفها، لا شيء خارجيًّا يمسها أو يصل إليها، وكامرأة حبلى يستوعبها تمامًا ذلك الشيء الذي يكبر داخلها ويتمدد. انكفأت تتحسس خوفها، في همسات، في خطوات، في ضحكات خشنة لا تبين، وتراه في عيون لا تغفل ولا تنام، تلمع كالخرز في الأرض والسماء، داخل وخارج البيت، في قلبها مغروسة. وتنهدت سامية في ارتياح، وهي تدرك أن هذا الوضع لن يطول. في بئر سلم البيت القديم ستغمض عينيها وتغيب عن الوجود .

وقال محمد :

ـ أظن ننام بقى، بقينا وش الفجر .

ولم يتلقَّ محمد ردًّا لا من سامية، ولا من رفيق الذي تمدد على الأريكة موليًا وجهه إلى ظهرها في وضع النوم، ودعا محمد سامية إلى السرير، وأسقطت في رقة ذراعيه، ومال محمد نحو سامية وهي تجلس إلى المائدة، يرفع وجهها ويُقبِّلها في عينيها، اليسرى أولًا ثم اليمنى، ثم تستقر شفتاه على شفتيها. واستسلمت سامية لقُبلة محمد بشفتين جافتين، ونظر إليها بحزن، ثم أشاح بوجهه واتجه إلى السرير .

واستغرق محمد في النوم بمجرد أن وضع رأسه على الوسادة، وتململ رفيق فترة في نومه، ولما لم يجد وضعًا يُسلمه إلى النوم، استلقى على ظهره مادًّا قدميه فوق مسند الأريكة، وأخرج ولاعته وقذف بها في ضيق على الأرض بعد أن خذلته، ومد يده إلى صندوق كبريت على طرف المائدة وأشعل سيجارته. وساد صمت طويل، وحلقات الدخان تتجمع لتتبدد، وقال رفيق في صوت هامس :

ـ سامية .

وأضاف :

ـ أنا آسف على اللي حصل إمبارح .

وأدركت سامية أن رفيق يشير إلى الصفعة التي وجَّهها إليها بالأمس، ووجدت نفسها تقول :

ـ كان ضروري اللي حصل يحصل .

وأضافت وهو ينظر إليها متسائلًا :

ـ كان ضروري حد يفوَّقني .

ـ وفُقتِ؟

وقالت سامية دون سابق تفكير :

ـ قررت إني مش قد اللعبة دي .

وما إن انتهت سامية من جملتها حتى أدركت أن رفيق سيدفع بأن اللعب في دنيانا هذه ضرورة لا اختيار، وأن عليها أن تتقبل الأشياء على ما هي عليه، وإلا ظلت تخبط رأسها في الحائط حتى الموت. وسلمت بأن الموت قد يكون وسيلة للإفلات من وضع تجده مستحيلًا .

وقال رفيق :

ـ وانسحبتِ .

ـ وانسحبتْ .

قالت سامية، وأدركت كم هي مخيفة في نهائيتها عملية الانسحاب هذه، وتساءلت إن كانت جزئية أم كلية؟ من هذا المكان أم من الدنيا بأكملها؟ وأخافها السؤال، وإن بدت عملية الانسحاب في ذات الوقت ضرورة، والخوف يتمطى داخلها، وهي تختفي في البيت القديم، ورطوبة تلفها، تكسوها طبقات فوق طبقات تحميها، تغيبها عن الوجود، وخبئيني يا أمي خبئيني، كففت عن السعي، والتزمت الصمت ورفيق يقول :

ـ مش بدري شوية على القرار ده؟

وألقى سيجارته على الأرض ولمحها مشتعلة، واعتدل جالسًا وسحقها بقدمه، وعاد بلا داعٍ يسحقها من جديد، ورد ساقه في تثاقل إلى مكانها، وظل فترة يتأمل ظفر إصبعه الأوسط، ثم رفع رأسه وقال هامسًا في رجاء :

ـ ما ترجعيش البيت القديم يا سامية .

وابتسمت سامية ابتسامة واهنة، وأرادت أن تخبر رفيق أن الطريق قد طال ولم تعد بها قدرة على مواصلته، ووجدت نفسها تقول :

ـ مفيش فايدة يا رفيق، وإنت كمان مسيرك ترجع .

ـ أرجع؟ أرجع فين؟ !

ـ مطرح ما جيت حترجع .

قالت سامية وأضافت في توكيد :

ـ إن ما كانش النهارده يبقى بُكرة .

ولم تدرِ من أين واتاها هذا اليقين، وقال رفيق :

ـ مستحيل أرجع يا سامية! دي السكة اللي تودي ولا تجيبش !

وأضاف :

ـ أنا كبرت يا سامية، مش عايز أموت في حجر أمي .

والتزمت سامية الصمت، وتساءلت: هل أنضجته الأحداث فعلًا أم هو يتوهم؟

وقطع رفيق لحظة الصمت قائلًا :

ـ إنتِ عارفة أنا عايز أموت إزاي يا سامية؟

وتطلعت إليه واجفة، وقال :

ـ في الشارع مجروح، وساعتها حازحف لأعلى حتة وأبص للسما وأموت .

وكأنه يتشوق للحظة الموت هذه. ولم تستطع سامية أن تداري ابتسامتها، وعلت وجه رفيق رقة لم تعهدها من قبل، وقال :

ـ وإنتِ يا سامية، عايزة تموتي إزاي؟

وتوقفت سامية عن الضحك وهي تقول :

ـ أنا عايزة الأرض تنخسف بيَّ من غير ما أحس، ولا حد تاني يحس إني باموت .

وقال محمد في سخرية، وهو يجلس على طرف السرير :

ـ أظن ما عندكوش مانع نلعب لعبة تانية؟

واحمر وجه رفيق، وضحك ضحكة مغتصبة .

تطلَّعت سامية إلى النافذة، وقالت :

ـ دا الصبح طلع .

وقامت تستعد للخروج، ومرت بالمرآة المشروخة، وتوقفت لحظة تتمعن في الصورة المشوَّهة التي طالعتها. هذه أنا، قالت، وتَصارَع الرعب في عينيها لحظة والفضول. هذه أنا، قالت، وتَصارَعت الكراهية والجاذبية في عينيها. وتقدَّمت تلاصق الصورة، ومدت يدها تتحسسها، تتعرف عليها، وابتسمت ابتسامة واهنة، وفردت ذراعيها تمسك بطرفي المرآة تحتضن الصورة، وانغرست حبات العرق في مسام وجهها، وغامت عيناها في ألم يقارب النشوة .

واستدارت سامية، وتقدَّمت في اتجاه الحمَّام رافعة الرأس، غائبة في عالمها الداخلي .

وأطفأ الماء سخونة وجهها، ودست رأسها تحت الصنبور، وأقفلته بعد أن ابتل شعرها، وهي تترنم: أنا خبت، وقطرات الماء تتساقط من شعرها المدلى في الحوض قطرة بعد قطرة، وهي لا تكف تترنم: أنا خبت. وعصرت سامية شعرها في الحوض، واعتدلت وهي تجمع شعرها إلى الخلف وتتنهد بارتياح، وهي تدرك أنها فشلت، وتكاد تنتشي بهذا الإدراك وهي ترتدي ملابس الخروج .

ووقف رفيق مستندًا إلى الباب الخارجي، وعيناه لا ترتخيان عن سامية، تُكذبان بسمة السخرية التي عادت تحتل شفتيه. وجلس محمد يتظاهر بقراءة بعض الأوراق، وكوَّرت سامية شعرها إلى أعلى في مؤخرة رأسها، ومدت يدها إلى المائدة تلتقط دبابيس الشعر، وقال محمد في ارتباك وهو يتحاشى النظر إليها :

ـ أظن تلحقي قطر تمانية يا سامية؟

وغرست سامية دبابيس الشعر في رأسها دبوسًا بعد دبوس في عنف، وهي تكاد تلتذ بالألم الذي ينزل بها المرَّة بعد المرَّة، وتلفتت تبحث عن معطفها، ووجدته على مسند المقعد، وإلى جانبه حقيبة يدها والحقيبة الصغيرة لملابسها، وأدخلت ذراعها في المعطف، والتقط محمد حقيبة يدها ودس فيها عشرة جنيهات وقال :

ـ حتحتاجي لفلوس .

وهزت سامية رأسها تنفي حاجتها إلى نقود، ورقدت حقيبة يدها على المائدة بينها وبين محمد، يواجهان الواحد الآخر دون أن يتبادلا النظر، وفجأة أمسكت سامية بحقيبة يدها وأخرجت منها

الجنيهات العشرة، وبدأت تضرب يدها في الحقيبة وتخرجها، وعلى المائدة تناثرت في فوضى أوراق مالية من فئات مختلفة. وأفرغت سامية أخيرًا كيس نقودها بما فيه من عملات معدنية، والتقطت من المجموعة عشرة جنيهات وبعض النقود المعدنية، واعتدلت في وقفتها .

وقال رفيق وهو يتقدَّم نحوها :

ـ لمي فلوسك يا سامية .

ونظرت سامية إلى محمد تطلب مساندته، وهي تعرف أنهما في أمس الحاجة إلى نقود، وتحاشى محمد نظرتها، وتقدَّم رفيق نحو المائدة، وقال وصوته يختنق بالغضب :

ـ لمي فلوسك أحسن لك، وإلا أحرقها !

وقال محمد وهو يُكوِّم الأوراق النقدية على المائدة :

ـ مفيش داعي تكبر الموضوع يا رفيق .

وتراجع رفيق إلى الخلف، وابتسم بمرارة وقال :

ـ سامية حلت المشكلة خلاص، حتروَّح تغمض عينيها وتنام، دفعت الثمن ومن الباب ده حتخرج بضمير مستريح، دفعت الثمن وإنت قبلته يا محمد، قبلته !

ووضع محمد يده على يد سامية قبل أن تسترد النقود، واحمر وجهها وقالت :

ـ أنا... أنا ما اقصدش .

وأمسك رفيق بالأوراق النقدية التي كوَّمها محمد، ورفع قبضته بها عالية وتركها تتساقط على المائدة ورقة بعد ورقة، وهو يضحك بلا فرح ويقول في هستيرية :

ـ هوَّ دا اللي قدرتِ عليه يا سامية؟! محمد ما يستحقش منك إلا دول؟ !

ومالت سامية تلتقط حقيبة يدها وحقيبة ملابسها، وسد عليها رفيق الطريق إلى الباب وصوته متشنج يرتفع تدريجيًّا :

ـ عارفة مصيبتكم إيه يا سامية؟ إنكم بتتكلموا كتير عن الحب ولا تعرفوش تحبوا، ما تملكوش تعطوا حاجة، فُقرا، فقرا .

وردت سامية :

ـ زيك تمام يا رفيق، زيك !

ولم تستطع أن تُكمل، وتدخل محمد ينقذ الموقف مقلدًا صوت رفيق :

ـ قلم يا سامية، قلم، ما ينفعوش إلا قلم .

وهز رفيق رأسه وابتسم، وامتلأت عينا سامية بالدموع، ومال محمد يُقبّلها، وقال وذراعه تلتف حول كتفها :

ـ مع السلامة. رفيق حيوصلك لغاية التاكسي .

ورفضت سامية العرض، ولوَّح لها محمد مودعًا وهو يختفي في المطبخ، وتبعها رفيق إلى الخارج قائلًا :

ـ إوعي يا سامية تنسي طاسة الخضة .

وأدركت سامية وهي تجري إلى الباب الخارجي تهرب من عيون لا تغفل ولا تنام، أن رفيق لم يكن من الممكن أن يصيبها في مقتل مثلما أصاب. وتنهدت في ارتياح وهي تفلت من الباب الخارجي دون أن يستوقفها صاحب البيت.. طقس الطقوس.. طقس طاسة الخضة.. لا يجري إلا كلما عاد غائب لائذًا بالبيت القديم، وستشرب هي قطعًا من طاسة الخضة لائذة برب الفلق من شر ما خلق، وقد عادت لائذة إلى البيت الذي أتت منه وإليه تعود. هذه الطاسة النحاسية الصفراء محفورة بالآيات القرآنية تكسوها من الخارج والداخل، أثر يتوارثه الأبناء عن الآباء عن الأجداد في سلسلة لا تنتهي، والواحد بعد الآخر يلوذ برب الفلق ويتحصن في البيت القديم من شر ما خلق. وهذا الحجر العاجي الغليظ مغضن بمر السنين ومجعد، يدور بالماء في طاسة الخضة ويدور. حجر كريم يقولون، أي حجر؟ من أين أتى؟ لا أحد يعرف، ولا أحد يريد أن يعرف، تكتسب طاسة الخضة أهميتها كلما أوغلت في الأسرار. أما الرقائق النحاسية فمثبتة بخيط إلى طرف من أطراف الطاسة النحاسية الصفراء، ترن وتعاود الرنين، واليد العاجية الغليظة تدور، فتغرقها، تتعدد الرقائق بتعدد أسماء الله الحسنى .

وارتسم المشهد مكتملًا أمام سامية وهي تقف وسط دائرة من النساء يلبسن السواد، دائمًا في حالة حداد، ماذا فقدن؟ لا تعرف. وفي تناقض مع السواد، تجلس جدتها المُقعدة على مقعدها الذهبي المكسو بالقطيفة الخضراء، تمسك طاسة الخضة وتتمتم بآيات قرآنية، وتدير الحجر الكريم، والرقائق تحمل أسماء الله الحسنى، ترن وتعود ترن، وسط صمت كامل يربض على الحضور. تناول جدتها طاسة الخضة إلى أمها، تعيد مزج السائل من جديد بالحجر الكريم، تتجمع له وتتفرق أسماء الله الحسنى، وتناولها إياه . تطالبها جدتها أن تشرب، وبعد جدتها أمها، ثم النسوة في سواد في صوت حزين : اشربي. وتسود لحظة تردد قصيرة، وهي تود لو كسرت الطوق ثم تمضي، ويشرب اللائذ بالبيت القديم، منه أتى وإليه يعود، يعوذ برب الفلق من شر ما خلق. وتقول جدتها للآخر، وتكرر أمها الطلب، ومن بعدها النسوة في سواد في صوت حزين، وتشرب هي حتى ثمالة

الثمالة وهي تلقي برأسها إلى الخلف. ويسود الصمت لحظة، وتنحبس الأنفاس وينأى الرنين، وتمضي الخطى بلا وقع وكأن لم تمضِ، ثم ينفجر الأطفال يهللون، يندفعون إليها، وحولها يدورون، يقفزون في الهواء ويصرخون، وقفزاتهم تعلو، وصرخاتهم تستطيل، وهم يرقصون حول أقفاص الجريد وقد حرقوها فجر يوم شم النسيم. وتحتضنها أمها وتبكي، لِمَ تبكي؟ لا تعرف، وتدفن هي رأسها منهكة وممرورة في صدر أمها، تبكي بدورها، علامَ تبكي؟ لا تعرف، ولكنها تشعر بأن شيئًا نهائيًّا لا رجعة فيه قد حدث، كأنما دخلت على حد قول رفيق، سكة الحواديت التي لا عودة منها .

الفصل الثاني عشر

بعد نصف ساعة سيتحرك القطار، وبعينين ملؤهما الحصى ستسمع عجلات القطار تردد طوال الطريق كلمة خلاص. لا لن تبكي إلا في نهاية الرحلة. في حضن أمها، وخبئيني يا أمي، كففت عن السعي، ستبكي، أنا مستعجلة، قالت لسائق سيارة التاكسي الذي أقلَّها إلى المحطة، وقد انطرحت على مقدمة السيارة وهي تستوقفها، وتساءل السائق في سخرية إن كانت تتعجل الموت، واشتكى من المصائب التي تحل به على وش الصبح .

واستقرت عينا سامية لوهلة على جرائد اليوم الصباحية ترقد في حجرها، وأشاحت بوجهها بعيدًا، وتكوَّرت الكلمات مخيفة على فم بائع الجرائد الأعور، يطرق زجاج نافذة السيارة يقتضيها الحساب. توهمت أنها دفعت بما فيه الكفاية، والجرائد ترقد في حجرها مرتجفة، ولكن لا بد لها فيما يبدو أن تدفع من جديد. شيء ما يخيفها، من الجرائد وما قد تحمل من أخبار؟ من كلمات تتكوَّر على فم صبي أعور تحمل النذير؟ أم من سلوكها الأهوج وهي تندفع إلى عرض الطريق والسائق يتساءل إن كانت تتعجل الموت؟

ونحَّت سامية، وهي تجلس في ديوان القطار، الجرائد إلى جانبها، وأوصاها رفيق بطاسة الخضة، وترك الأوراق النقدية تتساقط من قبضته على المائدة الورقة بعد الورقة. وتيقظ إحساس حاد بالواجب، توارثته سامية أمًّا عن جدة، استوعب حياة كل منهما لاغيًا ما عداه، واضطرت أن تؤكد لنفسها من جديد أنها لا تصلح لشيء، وأنها شكَّلت عبئًا لا عونًا، وهي تجمع حبات البرد في طبق من الصاج، وأمها تصيح متلفعة من خلف زجاج النافذة: لا فائدة، وخبئيني يا أمي خبئيني، أنا رماد، أنا لا شيء، أنا وحش بأربع عيون، بالظلمة دثريني، في الغفوة والنسيان اطويني، كففت عن السعي، لا جدوى لا جدوى، في الظلمة سأرقد، لن أقول لا، وبالسواد سأتدثر، بالهمس سأغلف صوتي حتى لا يسمع صوتي أحد. لن أرفع صوتي أبدًا. بالفلين سأبطن أحذيتي، وأمضي في ممرات البيت الملتوية وكأن لم أمضِ، لن تردد الممرات وقع خطاي، وسأنظف حجرتي وأعود أنظفها لن أكتفي. حجرتي نظيفة وكأن أحدًا لا يسكنها، لا المرآة تعكس أنفاسي، ولا وسادتي تحمل شعرة من شعري. سأغسل جسدي وكأني أغسل عني خطيئة لا تُمحى، وأعود أغسله لن أفرغ. وجهي يبرق كالمرآة، ويداي شاحبتان، لم أعد أعرق. وألف الفوطة الخشنة على جسدي وأدعكه، وأرتجف الرجفة التي تبقت لي وأعود أحكمها. لم تعد الفوطة خشنة بما فيه الكفاية، لم تعد الفوطة

خشنة. وعلى المائدة أرص عقودي ومساحيقي، ممتلكاتي الغالية، ممتلكاتي الناعمة، بيدي أتحسسها، على خدي أجربها، وآوي إلى فراشي أحلم. ممتلكاتي تضاعفت بلا تمييز، تكاثرت في الأدراج، في الأركان، تحت السرير. أطبقت يدي على غطاء زجاجة بأسنان مدببة، وأويت إلى فراشي، لم أعد أحلم. حلمت شبابي وكهولتي، لم أعد أحلم. رأسي ثقيل، وعيناي تفرزان الدمع بلا معنى. أحكمت يدي على غطاء زجاجة، لم أعد أشعر، في الصباح سيجدون أسنان الغطاء المدببة مغروسة في لحمي ولا أثر للدم، الميت لا يدمى. ماتت ميتة حلوة، ميتة المصطفين، سيقولون، ولن يعرفوا أبدًا أنها ماتت شبابها، وكهولتها في البيت القديم .

ومست سامية لسعة برد من نافذة القطار المفتوحة، أرسلت رجفة خفيفة إلى جسدها، ولوهلة شعرت بالامتنان لأنها حية .

رصيف المحطة مزدحم، والقطار شبه مهجور من المسافرين. في اللحظة الأخيرة سيهرعون من آخر الرصيف متقطعي الأنفاس، يلقون بحقائبهم من النوافذ، وكأن حياتهم تتوقف على أن يلحقوا بالقطار. ويرن الجرس، وتدور العجلات، واشربي، ستقول جدتها، ومن بعد جدتها أمها وبقية النسوة في صوت حزين، وشيء ما يحمل النذير في الجرائد، ترقد إلى جانبها وهي صبحًا تفلت من زقاق مسدود إلى زقاق مسدود، تصل دون أن تعي أنها وصلت إلى الشارع الرئيسي .

والتقطت سامية جريدة من الجرائد، ومضت تُقلِّبها في حذر صفحة بعد صفحة، تنظر بطرف عينيها، راغبة في أن تقرأ، خائفة مما عسى أن تقرأ، وفي الصفحة السابعة وجدت أكثر بكثير مما توقعت. ودخل ديوان القطار رجل جامد الوجه، يلبس نظارة وبالطو أسود فوق جلباب أبيض، تتبعه امرأة مترهلة. وحدج الرجل سامية بنظرة فاحصة من تحت نظارته، وأسقطت الصحيفة إلى جانبها: هل هو مخبر شرطة؟ هل عرفها؟ مستحيل أن ينهار كل شيء، وبهذه السرعة وهذا التحديد، لا بد أنها تتوهم، هيأت لها مخاوفها .

واستدار الرجل يتسلم الحقائب من الحمَّال، بعد أن استقر رأيه على البقاء في الديوان، ويرصها على الرف، وانطرحت المرأة المترهلة جالسة في مواجهة سامية واللبانة تدور في فمها. ولوت سامية طرف الصحيفة وهي في مكانها إلى جانبها تعد الصفحات في آلية، وعندما وصلت إلى رقم سبعة فتحتها فتحة ضيقة خشية أن يطلع عليها أحد، ويرى صورة محمد تجاور صورة رفيق. وانهارت كل حججي، فماذا أنا فاعلة الآن؟

ونفض الرجل يديه من التراب، وجلس بعد أن انتهى من وضع الحقائب، وتطلَّعت سامية إلى وجهه المتحجر كوجه تمثال، وأرخت عينيها. لم أرَ شيئًا، لا أعرف. لو نبهته، سيقول زملاء محمد وهم يتجمعون في الأركان القصية في المصانع، على المصاطب، وفي أروقة الجامعات، وبِعارِها سيرخون أجفانهم لأنها منهم وأضاعته. لا أعرف، صدقوني لا أعرف، في حضن أمي لم أرَ ولم أعرف، في عتمة البئر لا يعود بالإنسان حاجة لأن يرى، ويعرف .

*

وفي المقعد المقابل بجوار النافذة رأت سامية سيدة ريفية تحمل طفلة نصف ميتة. لم تشعر بمقدمها، لا بد أنها تسللت إلى الديوان على أطراف أصابعها. وتوقفت اللبانة في فم السيدة المترهلة وقالت :

ـ حرام عليك يا اختي، رايحة فين بالعيلة دي؟

وتمتمت سامية قائلة: رايحة تدفنها. وأعادت السيدة الريفية ذراع طفلتها التي انزلقت ثقيلة في حجرها، ولم يبدُ عليها أنها سمعت. وكررت سامية القول: رايحة تدفنها. وباقٍ من الزمن عشر دقائق، قال الرجل المتحجر الوجه دون أن يوجه الخطاب إلى أحد، ولا دوام، لا دوام، لا وقت حتى للضياع، وماذا أنا فاعلة والقرار قرار موت أو حياة، ومحمد يقف عاريًا ورفيق، لا يملك لهما العون سواي؟ وضحكة نسائية متقطعة من الديوان المجاور، وصوت رجل يقول :

ـ أنا مش مسؤول عن اللي حيحصل بعد كده .

وبقية الضحكة تضيع في فورة مياه غازية، والقرار قرار حياة أو موت، وهي تستطيع أن تنبه محمد ورفيق إلى الخطر الذي يتهددهما، وتعود لتستقل القطار التالي إلى البيت القديم .

وتأكد لسامية أنها لو ذهبت لن تعود، لو دخلت هذا المكان مختارة ستبقى فيه إلى النهاية بصورة أو بأخرى، يتغير المكان ولا يتغير، نفس المكان، ونفس الناس، والأشياء نسبية ولا دوام. يتأتَّى على الإنسان أن يبدأ ويعود، فيبدأ في سلسلة من التجاوزات، والنعيم الوجه الآخر للجحيم، وعيون لا تغفل ولا تنام مغروسة في ظهرها، هل هي عيون، أم فتحات برج حمام؟ وطرقة على الباب ويدها ترتجف على مزلاج الباب الخارجي، وكم من المخاوف حقيقي، وكم منها متوهَّم؟ وعينا صاحب البيت تلتمعان كالخرز، يصيح على عتبة الباب: مين؟ وأنا العروس، ومحمد يكتم ضحكة، ورفيق يُقدِّم له زاهية، وهيا بنا نلعب. كيف غاب عنها العنصر الكوميدي في موقفها هي بالذات وفي الموقف بأكمله؟ لو تعلَّمت كيف تضحك لربما استطاعت أن تتجاوز كل شيء، وضحكة نسائية في ديوان القطار المجاور، وجسمها بلا رغبة يتلوى، وشفتاها بلا فرح تستديران، أكانت لحظة هزيمة أم انتصار؟ وصاحب البيت جسده مشدود، وجهه يغيب في الغضون، والأشياء نسبية، وكل شيء جائز في دنيانا هذه ووارد، ولا غريب إلا الشيطان، وهي تجري من زقاق مسدود إلى زقاق، تصل دون أن تعي أنها وصلت إلى الشارع الرئيسي .

وقفزت سامية إلى رصيف المحطة في اللحظة الأخيرة قبل أن يتحرك القطار .

الفصل الثالث عشر

عوَّلت سامية على اللجوء لزملاء محمد، بعد أن تخرج به هو ورفيق سالمين من هذا المكان، وشعرت بالامتنان لوجود ملجأ تلجأ إليه عند الحاجة، وبالأمل في بداية جديدة في ظل هذا الملجأ. لا أقف أبدًا وظهري مكشوف، يقول محمد، الناس تحميني، والدنيا لا تبتدئ بصاحب البيت ولا

تنتهي، وفي ظل الدنيا الفسيحة فحسب تبدأ الأشياء وتنمو، تنكسر العزلة، وتكتسب الأشياء نسبها الصحيحة. الخوف وارد في الدنيا الفسيحة على ألا يلتهم الدنيا الفسيحة، وكذلك خيبة الأمل وانعدام الديمومة، وقصور الواقع عن المثالي والمرتجى، وحتمية البدايات من جديد، هل آن لها أخيرًا أن تقف على قدميها وأن تكون؟

وخطت سامية في هدوء من السيارة التاكسي إلى ناصية الشارع الرئيسي، وقد خطَّطت مُقدَّمًا لما هي مُقبلة عليه، آخذة في الاعتبار أن يكون صاحب البيت قد اطلع على الجرائد الصباحية، واحتمال ألا يكون، واحتمال أن تخرج بمحمد ورفيق من المكان في هدوء، واحتمال أن تضطر لاستخدام القوة مع صاحب البيت، ولن يوقفها إلا احتمال واحد لا تملك له ردًّا، احتمال أن يكون رجال الشرطة قد ألقوا بالفعل القبض على محمد ورفيق. واستبعدت سامية هذا الاحتمال الأخير، وكل شيء يبدو هادئًا في الزقاق يتوسطه الباب الحديدي الكبير المغطى بالصفيح، ما من تجمعات تتبادل التعليق، وما من حراسة، لا شيء على الإطلاق. وتأكد لسامية وهي تدفع الباب فلا يستجيب لدفعتها أن صاحب البيت في الداخل، وأنها وصلت في الوقت المناسب قبل أن يتسع له الوقت لإبلاغ الشرطة بوجود محمد ورفيق .

وطرقت سامية الباب، وأطلقت الأنفاس التي كتمتها دفعة واحدة، حين جاءها صوت صاحب البيت :

ـ مين؟

وواصلت سامية طرق الباب دون أن تتلقى إجابة، وتسارعت طرقاتها وهي تدرك أنها شرقى للقاء صاحب البيت وجهًا لوجه وعلى حدة، ليتحدد أخيرًا كل شيء. أي شيء؟ لا تدري، ولكنها على ثقة أنها عاشت العمر كله في انتظار لحظة اللقاء، واستعصى المزلاج لوهلة على صاحب البيت، ومالت سامية على الباب وجسدها يرتجف ارتجافة صغيرة، بالرغبة في أن تقف على الحافة الضيقة التي لا تتسع لقدم إنسان، تشرف من الدور الرابع على حوش المدرسة الداخلي .

وانزلقت سامية بين ضلفتي الباب قبل أن يُغلقه صاحب البيت في وجهها، تخنق صرخة قبل أن تولد، وضلفة الباب تتأرجح بين ثقل صاحب البيت الذي أدركت دائمًا مداه، وثقلها هي الذي لم تدرك مداه حتى لحظة أن اضطرت إلى أن تدفع عن نفسها الموت بين ضلفتي باب .

وانفلتت سامية إلى داخل المكان، وصاحب البيت يترنح تحت وطأة دفعتها للباب، والجريدة تسقط من يده، ورشاش من طين يصيب صورة محمد وإلى جانبها صورة رفيق، وهمَّت أن تناديهما، واسترد صاحب البيت توازنه، وغاب محمد عن إدراك سامية ورفيق، ولم تعد تدرك سوى وجود صاحب البيت ووجودها ملحًا شاملًا مانعًا لاغيًا ما عداه. ألهذا عادت؟

وأدركت سامية أن الوقت لم يفت بعد، ومالت تقفل المزلاج الداخلي بنصف عين على صاحب البيت، ورأت نفسها تتقدَّم تجاهه مُسيَّرة بقوى لا تملك لها دفعًا. وحاولت سامية أن توقف المجنونة ولم تستطع. تقدَّمت المجنونة من صاحب البيت، عيناها في عينيه، ومن عينيه يُطل رعب حيواني

مجنون من مخاوف بلا ملامح ولا قوام، تقدَّمت منه المجنونة، ومن عينيه تطل الأشباح والعفاريت وأمنا الغولة، والملاكان على اليمين واليسار يحسبان السيئات، وتلويحة أمها بألَّا فائدة، والخطأ والعقاب والنار، ونظرة أبيها ميتًا، والتجاهل والاستجداء والعدم، ونظرة تُحيي ونظرة تُميت، والاتهام والأحكام الجائرة، وإشاعات وهمسات لا تبين، وطرقات على الباب، ونور بطارية مُسلَّط على عينيها، وخطوات تدب وكأن صاحبها يملك الأرض وما عليها. تقدَّمت المجنونة من صاحب البيت وكأن شيطانًا ركبها، وحين حاذته أدركت أن عليها أن تقتله أو تموت .

وبدا لسامية أن من الضروري أن توقف هذه المجنونة التي انفصلت عنها عند حدِّها، قبل أن يفلت الزمام، وأن تنجز المهمة التي جاءت أصلًا من أجلها، وهمَّت أن تستنجد بمحمد ورفيق، واستدارت على فم صاحب البيت صرخة لم تنطلق، كتمت الأخرى أنفاسه، وفي حركة سريعة خاطفة انقضت عليه وغرزت أصابعها كالمخالب في عنقه، واستدار فم سامية ينادي محمد، وأخرست الأخرى الصوت في حلقها: ليس بعد، لم تنجزي بعد المهمة التي جئتِ من أجلها، لقد أردتِ دائمًا أن تقتليه، حتى قبل أن تتعرفي عليه أردتِ أن تقتليه، هناك في المدرسة على الحافة التي لا تتسع لقدم إنسان أردتِ أن تقتليه، ليس بعد، لم تنجزي المهمة التي جئتِ من أجلها، ما من أحد عداكِ يملك أن يُسوِّي ثأرك البايت مع صاحب البيت، ما من أحد سواكِ .

وتغلَّب صاحب البيت على دهشته، وبدأ يتخلص من قبضتي سامية التي اعتراها الشعور بالغثيان الذي يعتريها حين تضطر مكرهة إلى مواجهة لون من ألوان العنف أو القبح. وانقض صاحب البيت يقضم بأسنانه كفيها المطبقتين على رقبته، ولم تتوقف الأخرى لتتوجع، أنشبت مخالبها في عنقه، وكأنهم على مر العمر لم يقلموا أظافرها، لم يكسروا رمح المقاتل في أعماقها، وكأنهم لم يحولوها على مر العمر إلى دُمية يجرح النسيم خديها !

وفي حركة مفاجئة مال صاحب البيت بساقه اليمنى إلى الخلف، وبمُقدمة حذائه ركل سامية في بطنها، وسقطت في الطين على ركبتيها وعيناها ترقبان حركته التالية، وذهنها شعلة من النار تمر من الحمرة إلى الزرقة، تتوهج لتصفو، وعضلاتها تتصلب في تحفز لترتخي خفيفة، ونشوة تعربد في جسدها تصرخ: يا أبي يا أمي يا جدتي، يا مئذنة تُشرف على بيتنا القديم، يا كل الناس، نعم أنا حية، رغمًا عنكم حية .

وفي مكانه تسمَّر صاحب البيت، وفي مكانها تسمَّرت سامية ترقبه. نعم أنا هي، هذه هي حقيقتي التي مسحتم عليها. العنف لا يخيفني، ولا القبح، العنف مني والقبح لأني حية. لن ألف على عنقي بعد اليوم حبل الرقة، حبل محو الكيان والاحترام، حبل نظرة تحيي ونظرة تميت، حبل الهروب والعدم، حبل الموت، لن أموت عطشى تحرُّجًا من التزاحم على الماء .

وتظاهرت سامية بأنها تهم بالوقوف على قدميها، ورفع صاحب البيت ساقه ليركلها، وتلقت ساقه بيدها، وانطرح صاحب البيت على ظهره، وانطرحت على بطنها إلى جانبه، ويداها تلتفان حول رقبته. وقال صاحب البيت في توجس :

ـ إنتِ حتعملي إيه؟

وقالت سامية ببساطة وهي ترقبه :

ـ حاقتلك .

ودق صاحب البيت الأرض في غضب طفولي، وهو يقول :

ـ أنا ما بلَّغتش البوليس، ما عملتش حاجة، ما لحقتش !

وعيناه تتحولان إلى خرزتين يبللهما الماء .

وتساءلت سامية إن كان الغموض الذي يحيط بصاحب البيت وهم من صنع خيالها، حتى قال :

ـ الباب بيخبط .

وأصاخت سامية السمع وما في طرقات على الباب، واستقر في وعيها إدراك أن ما من أحد عدا صاحب البيت يملك الآن أن يكشف أمرهم، ونغزته في وسطه وهي تقول :

ـ مش عليَّ يا واد إنت، العب غيرها .

وضحكت حتى انفرطت الدموع من عينيها، وعاد صاحب البيت يقول :

ـ أهم جُم، حيحطوا الحديد في إيديكِ، الحبل في رقبتك .

واشتدت قبضة سامية على رقبة صاحب البيت، وقالت في مرح طفولي تدعوه إلى اللعب، لعبتها هذه المرَّة :

ـ مش جايين .

ـ جايين .

وتبادلا الكلام كالكُرة فيما بينهما، وعاد صاحب البيت يقول :

ـ حيسجنوكِ .

ـ بعد ما أقتلك محدش يقدر يسجني .

قالت سامية في هدوء ونهائية، وتساءلت: هل تقتضي المهمة التي جاءت لتنجزها أن تقتله فعلًا أم تقتله داخلها؟ وخُيِّل إليها أنها قتلته فعلًا. وتساءل صاحب البيت إن كانت مجنونة، وهزت سامية

كتفها وهي تبتسم، ربما كانت مجنونة، هكذا على كل حال سيتصور محمد ورفيق، ولن يعرفا أبدًا أن عودتها الحقة كانت رهينة بأن تقتله .

ومالت سامية نحو صاحب البيت تسأله :

ـ إنت مين؟

وراقب صاحب البيت سامية بعينين باردتين وهي تعاود السؤال :

ـ جاي منين؟ عمرك كام سنة؟

وطمس صاحب البيت عيني سامية بحفنة من التراب، وتكوَّمت على نفسها تمسح عن عينيها العمى، وانهال يركلها ركلة بعد ركلة، والعتمة تتحول إلى نور، واستمرت سامية مكوَّمة على الأرض بلا حراك متظاهرة بالموت بعد أن استردت بصيرتها، إلى أن توقفت الركلات، وما إن استدار صاحب البيت مندفعًا إلى الباب الخارجي حتى قفزت خلفه تجذبه من ساقيه القصيرتين، واصطدم رأس الرجل العجوز بالباب الخارجي وهو ينطرح أرضًا، وتخلخل الهواء بأنَّة مكتومة، وأدركت سامية والدم ينزف من جرح في جبين الرجل العجوز أن كل شيء وارد في دنيانا هذه وجائز .

وأوسدت سامية رأس الرجل العجوز في حجرها، وتبينت أن جرحه لا يزيد على خدش بسيط في مقدمة رأسه، ومدت يدًا متثاقلة إلى رباط شعرها، ومسحت بطرفه على الجرح. وأسدل الرجل العجوز جفنيه، وسامية تلف رباط الشعر حول ذقنه وتعقده في مقدمة رأسه، توقف نزيف الدم .

وكان الأمل في بداية جديدة لم يزل قائمًا، وأسراب الحمام الأبيض تتطاير من البرج الذي بدا من قبل رهيبًا، حين نادت سامية محمد ورفيق، والرجل العجوز المنهك يتوسد حجرها، والجريدة الصباحية ملقاة على الأرض تبين عن صورة محمد ورفيق .

الرجل الذي عرف تهمته

إلى ذكرى أخي محمد ...

الهشيم

هشيم الزجاج يتراكم في الخارج موجة فوق موجة، موجة أعلى من موجة، أكاد أسمع أسنة الزجاج وهي تتصادم بالأسنة، وهي ترتفع المرة بعد المرة هذا الارتفاع المحسوس وغير الملموس، وأنا أكتب لكي لا أصرخ منبهًا للخطر الذي يطبق علينا من كل جانب، يهدد بدفننا جميعًا تحت ركامه .

لولا الهشيم ما كتبت، لا أحد يرغب في الكتابة هنا في السجن، ولا في أي شيء. لا يُبقي التدريب في السجين رغبة ولا إرادة. ولست أعرف متى بدأ هذا التدريب وبالتالي متى ينتهي، ولا لأي غاية نتدرب. لا يعرف الإجابة على الأسئلة هنا سوى أساتذة تلمُّس المنطق حيث لا منطق، وبالطبع صاحب الصوت الذي يصدر من كوة في أعلى البرج .

وفي مرحلة مبكرة تخيلت أنا أن التدريب مرحلة ستنقلنا إلى مرحلة أكثر تقدمًا وإن لم أعرف على وجه التحديد ماهية المرحلة التي ينتهي إليها التدريب. أساتذة تلمُّس المنطق يعرفون. قلت ربما طلبوا إلى الأصلح منا ومَن صمد أكثر للتدريب أن يقوم بمهمة ما، بعمل محدد: تسميم الأنهار مثلًا، إنضاب المحيطات، اقتلاع الخضرة من على وجه الأرض أو امتصاص الأوكسجين من الهواء. ولكني لم أكن إذ ذاك قد تدربت بما فيه الكفاية وإلا لعرفت أن التدريب لا يستهدف سوى التدريب. ويبدو أنني لم أتدرب بعد بما فيه الكفاية وإلا لما كنت الآن أكتب رغم كل المحاذير والمخاطر وأكتب مثل هذا الكلام الخطير .

وأنا أعرف أن الكتابة هنا تعرضني للموت، وعلى أحسن تقدير لنفي في الطابق المسحور في جوف الأرض، هذا إن التقطَت أدواتُ الاستماع جريانَ القلم على الورق، أو وشى بي أحد رفاقي في العنبر. الوشاية آفتنا .

ولكن منذ رأيت هشيم الزجاج يعود يفترش الأرض دون أدنى انفجار، هذه المرة لم يعد أمامي ثمة اختيار سوى أن أصرخ أنبه الآخرين إلى الخطر الذي يحدق بنا، أو أن أكتب لكي لا أصرخ. وأنا اخترت أهون الضررين، فأنا رغم كل المخاطر قد أُفلِت بالكتابة ولكن الصراخ سيقودني حتمًا إلى الطابق المسحور في جوف الأرض، هذا إذا اتسع وقتي للصراخ ولم تُردِني رصاصة قتيلًا قبل أن تكتمل صرختي .

منذ أن رأيت بالأمس هشيم الزجاج يعود يفرش الأرض، هذه المرة بلا تمهيد بلا انفجار ضخم يهز الأرض، تغيرت نظرتي للأمور، وربما تغيرَت منذ أمد بعيد، يوم الانفجار الكبير الذي نزحنا بعده هشيم الزجاج معًا وألقيناه بعيدًا عنا. صحيح أني أدرك أني هالك لا محالة سواء ساقوني إلى الطابق السحري أم لم يسوقوني، ولكن شيئًا ما لا أدري ماهيته قد استجد يجعلني أتمسك بالحياة، وإن كانت حياة لا تستحق أن يتمسك بها إنسان، وهذه بدورها فيما يبدو فكرة جديدة عليَّ أو نظرة

جديدة للأشياء يمليها هشيم الزجاج الملعون الذي قلب حياتي رأسًا على عقب، فما كنت أفكر من قبل هذا النوع من التفكير، وإن شئت الدقة لم أكن أفكر على الإطلاق. لا يفكر أحد في السجن، على الأقل في الدور الأول الذي أعيش فيه، وفي الدور الثاني حيث يعيش المدرِّبون. في الطابق المسحور في جوف الأرض يعيش من يفكرون، وفي حجرة الاجتماع في أعلى البرج حيث يجتمع أساتذة تلمُّس المنطق، أما في الطابق الأول فنتدرب، «الوارد» يسموننا أو «الجدد» وأنا أستغرب هذا الاسم الآن ولأول مرة، وأنا لا أتذكر متى أتيت إلى هذا السجن حتى يخيل لي أحيانًا أني ولدت فيه .

وعلى كلٍّ فالشيء الوحيد الأكيد أننا سنموت هنا جميعًا تحت أسنة الزجاج بما فينا صاحب الصوت يصدر من كوة في أعلى البرج يبدل الحال بحال. سيصلهم الهشيم أينما احتموا وهذا ما أنا على يقين منه، قد نسبقهم نحن في الدور الأول ولكنهم سيلحقون بنا حتمًا. وهذه الحقيقة الأخيرة تُدخل على نفسي بعض الرضا، وأرجو ألا يتبادر إلى ذهنك أني إنسان شرير أو أني شمشون الجبار الذي هدم المعبد وهو يقول: «عليَّ وعلى أعدائي». أنا إنسان مسكين أتدرب لأعيش ولم أفكر قبل هذه اللحظة أنهم أعدائي وإن كانوا فعلًا أعدائي، ألا خبِّرني؟ لِمَ لا يرون كما أرى هشيم الزجاج وهو يعلو ساعة بعد ساعة، ولِمَ أصموا آذانهم عن تحذيري؟ لِمَ كذبوني ونعتوني بالجنون؟ ألَم يُغروني بالانتقال إلى طابق المدرِّبين إذا ما قررت علنًا وأمام الجميع ألا هشيم هنا من الزجاج المسنون، وأن هذا الهشيم واقع بالأوهام ليبلو به الله عباده الصابرين؟ !

ها أنا ألف وأدور قبل أن أحكي لك الحكاية، وأنا الذي انتويت أن أحكيها لك من البداية إلى النهاية دون لف أو دوران لأتخلص من ذلك الرعب القاتل الذي يتملكني أن نُدفن جميعًا تحت ركام الهشيم، ولأتحرر من هذا الشعور الفادح بالمسؤولية الذي جدَّ فيما جدَّ عليَّ، والذي يدفع بصرخة التحذير إلى فمي فأخنقها وأُخنَق بها .

أتململ في جلستي، تطرأ عليَّ فكرة أستبعدها. هذا كثير! أليس دم رفاقي في يديَّ، ودم الموجودين في الطابق السحري في جوف الأرض؟ هذا إذا كانوا موجودين فعلًا، فما من أحد ذهب هناك يعود، وأنا الآن أتساءل: ألَم تتلوث يداي بدمائهم من زمن بعيد؟

وأجد نفسي أدخل في مشكلة فلسفية من طراز جديد عليَّ! أين مسؤوليتي من كل هذا؟! لست أنا الذي حرَّضتهم على التمرد على التدريب ولا إثارة الأسئلة حول هدف ونوعية التدريب والمنطق الذي يتحكم فيه، ولا أنا الذي سقتهم إلى جوف الأرض. أنا إنسان عادي مسكين أحكي لك حكايتي حتى لا أصرخ بالحقيقة فربما استطعتَ أنت يا صديقي أن تفعل شيئًا. أنا لا أطالبك بما لا أستطيع، أن تصرخ وأتفرج أنا عليك وأنت تساق إلى جوف الأرض، ربما استطعنا معًا. لا لن أطالبك بما لا أستطيع أنا، كل ما أريد هو أن تنصت إليَّ، أن تفهمني .

أنت تعرف بداية الحكاية يا رفيقي، فلِمَ تشيح بعينيك كلما التقينا في الممرات الضيقة؟ لِمَ لا تدع عيوننا تومض ملتقية بالمعرفة؟ إنها إشارة، مجرد إشارة، التي أنتظرها منك، فإلامَ الإنكار يا رفيقي؟ لا يمكن أن أكون واهمًا، رغم الجراح بلا آثار للجراح، لا يمكن أن أكون واهمًا، أين اختفت دماء الجراح؟! رغم عمى المدرِّب الذي لا يرى الجراح، رأيتك أنا بعينيَّ هاتين تميل، تكتم

تأوهاتك، تنتزع الزجاج من بطن قدمك، من بز ساقك، من ثنية فخذك، فإلى متى الصمت يا رفيقي؟! حتى تذبح أسنة الزجاج حبال أصواتنا؟! وهل كُتب علينا أن نُردم تحت الأسنة دون ومضة معرفة؟

مصيري إلى جوف الأرض لا شك محتوم، سواء انطلقت صرختي أم لم تنطلق. فهأنا أنزلق إلى مطب جديد. ما أعجب المطبات التي أنزلق إليها من يوم انغرست الأرض بهشيم الزجاج المسنون.. هأنا أنفعل وكأن الانفعال هنا من المسموحات! هأنا أنفعل وكأني لم أحرق حقي في الانفعال! ما هذا الجنون الذي أنزلق إليه خطوة بعد خطوة؟ أنا إنسان مسكين، أنا ضحية، هم فعلوا بي، هم أحالوني إلى آلة وأحالوك. لم أكن أنا الذي أرقبك دون أن أراك طوال هذه السنين ولا أنت الذي ترقبني. لم تكن يدي هي التي جلدتك ولا يدك التي جلدتني. يد الآلة التي صنعوها بالتدريب مني ومنك يومًا بعد يوم، وساعة بعد ساعة، لا نكف ننتقل من مرحلة من التدريب إلى مرحلة، وإلى جانب المراحل العمرية والجنسية التي تصل بسيكولوجية الفرد والجماهير، والتي تتعدد فيما بينها حتى تستحيل على الحصر، تأتي اجتهادات المدرِّبين وحرصهم دائمًا على المزيد من التجويد والتجديد .

وبينما نحن نفقد وعينا وإرادتنا يومًا بعد يوم في محاولة لمجاراة التجويد والتجديد يأتي هذا الصوت الجهوري المحايد من الكوة أعلى البرج بتوجيهاته فيقلب كل شيء على عقب، ويضع المدرِّبين والمدرَّبين في حيرة من أمرهم ولا نعود نعرف أين نقف ولا أين الخطأ والصواب. ولِمَ نُعاقب ولمَ نُجازى؟ وما كان خطأ الأمس يصبح صواب اليوم ليستحيل إلى خطأ اليوم التالي .

وأساتذة تلمُّس المنطق يعملون على آلاتهم الإلكترونية من أحدث طراز في حجرة الاجتماعات في أعلى البرج، يرسمون خطوطهم البيانية متتبعة تفاعل مجموعة العوامل التي تتحكم في البشر، أيًّا كانت هذه العوامل. أي شيء يقدر عليه العقل البشري، لم تستوعبه خطوطهم البيانية وهم يتلمسون منطق الأشياء حيث لا منطق للأشياء؟! الإجابة حاضرة على لسانهم، تُمنطق دائمًا وأبدًا وتبرز، ونحن نغيب عن الوعي يومًا بعد يوم وإلى آلات نتحول. لا. لم أكن أنا ولا أنت، كانت الآلة. هل كانوا هم الجناة حقًّا أم نحن؟ !

يقفز إلى ذهني خاطر لا بد وأن أفضي به إليك قبل أن يردمنا الهشيم: وإن كتب علينا الموت فلنمُت مطهرين من الذنوب. أنا الجاني.. أنا وأنت. لست برفيقك ولا أنت برفيقي. أعدمت حقي في رفقتك وأعدمتَ أنت حقك في رفقتي .

كنا رفاقًا فحسب يوم سألنا من أين أتى الانفجار العمد، يوم تجمعنا نعمل معًا ننزح أطنان الزجاج، نزيل من حولنا أسباب الخطر. كنا رفاقًا فحسب يوم ضحكنا تلك الضحكة الصافية التي تلد أطفالًا بعيون سوداء وعسلية، خضراء وبنفسجية، أما فيما قبل وفيما بعد فقد أعدمنا حقنا في الرفقة، وهأنذا أتخبط الآن وسط هشيمي أبحث عنك، وربما كنت أنت تبحث عني وسط هشيمك، ربما كنت غير موجود، ربما وجدتك يومًا وربما لن أجدك أبدًا، وربما كنا الآلاف المؤلفة، يتخبط كلٌّ وسط هشيمه يبحث بلا جدوى عن رفيق أهدر رفقته .

وأنا أعرف الآن يا رفيقي لِمَ لازمني الشعور بالذنب طيلة سجني، كنت أقول لنفسي: ما من أحد يُسجن دون ذنب، ولا بد أن أكون مذنبًا. وكنت أقول: ربما أذنبت في حياة سابقة على هذه الحياة فلا أعرف لنفسي في هذه الحياة ذنبًا، وأنا الآن أعرف. وكنت أقول: ربما أكفر عن ذنب ارتكبه آبائي وأجدادي، فأنا لا أعرف لي ذنبًا وأنا الآن أتخبط وحدي في هشيمي. أعرف ذنبي، بيدي أهدرت حقي في التفكير، في الانفعال، في الرفض، وبالتالي في رفقتك .

يا رفيقي أينما كنت تتخبط في هشيمك لم تشق الأسنان المدببة حبال الصوت بعد، ولا أملك حتى أن أهمس، أدوات الاستماع تحت وسادتي في حشيتي، في أركان سقف العنبر، سحبتها لتوي من تلافيف مخي ومن شرايين قلبي، من مسام جلدي. لا تخف يا رفيقي، قلمي لن يتخبط الآن على ورقتي، قلمي يرق حتى يستعصي على كل أدوات الاستماع مجتمعة. ليس الخوف هو الآن الذي يسيرني، إنه الشعور بأنك هناك تبحث عني وسط هشيمك، إنه الشعور بأن هذه الحكاية ربما تقربني منك، وربما تعيد ما انقطع بيننا، ما قطعناه بأيدينا. ليس بكثير علينا أن نموت بومضة المعرفة في أعيننا .

ذلك اليوم حين أصبحنا على الانفجار الكبير، لم يكن هناك أدنى شك أنه انفجار عمد بفعل فاعل، قال بعض مدربينا يجتهدون: «زلزال، كارثة طبيعية»، ولم يصدقهم أحد. وخرجنا لنجد الطرقات والقاعات والمدارس والمكاتب والمكتبات والمعامل والملاعب مفروشة ببساط من هشيم زجاج. لم يكن أحد ليجرؤ على التكذيب ونحن نخوض الركام نجمعه معًا ونزيحه بعيدًا. والتزم أساتذة تلمُّس المنطق على غير العادة الصمتَ، والصوت الذي يصدر من كوة أعلى البرج سكت، وكأنما قد مات .

بالطبع عاد كل شيء إلى ما كان عليه في اليوم التالي، وذهب أساتذة تلمُّس المنطق إلى أن شيئًا ما لم يحدث، لا الانفجار ولا هشيم الزجاج، وإن كان شيء ما قد حدث، فقد حدث بالأوهام ليبلو الله عباده الصابرين. وعاد التدريب محمومًا أكثر مما يكون عادة، والصوت الصادر من أعلى البرج أكثر إلحاحًا مما يكون عادة. وكانت أقدامنا وأيدينا المخضبة بالدماء ذلك اليوم، الشاهد الحي على حقيقة الهشيم. كنا قد خضنا موج الهشيم ونحن ننزحه خارجًا عن المكان، واستطاعت بطون الكفوف والأقدام أن تميز المربعات والمثلثات والمسدسات والمسبعات دون حاجة إلى النظر، ووهج الشمس على سطح الزجاج البلّوري يرخي الأجفان على العيون. ورجعنا إلى العنابر بالدم والهشيم في أجسادنا، في بطون أيدينا وأقدامنا، منها ما انتزعناه ومنها ما استقر ليصبح جزءًا لا يتجزأ من أجسادنا .

كنا مرهقين هذا اليوم، غاية في الإرهاق، وكانت الدماء تنضح من أجسادنا، ولكنا عرفنا يومها سعادة ربما لم نعرفها من قبل ولن نعرفها من بعد. في تلك الليلة تواصلنا ونحن نحكي عن تجربتنا في إزاحة هشيم الزجاج، وتذكرنا كل تفصيلة من تفاصيل ما حدث في حرية، وكأن آلات الاستماع لا ترصد كل كلمة من كلماتنا. كان هذا الشعور بالاعتزاز بالذات، بالاعتداد بالقرب وبرفقة الآخرين، ونمنا ليلتها في سلام كأن آلات الإرسال التي عادة ما تنبح ليل نهار لا وجود لها على الإطلاق، ولم أستطع أن أرجع هذه السعادة إلى أسبابها تلك الليلة، ولم أهتم كثيرًا بأن أفعل. ولكني أستطيع الآن ربما لأني أهتم: كنا لأول مرة نعمل جميعًا معًا عملًا يكتسب المعنى، عملًا نعرف

مقدمًا ماهيته والهدف الذي يستهدفه. في الممر الطويل العريض الذي يجمع كل العنابر، اجتمع الرجال والنساء يزيحون بالجاروف أكوام الزجاج ويجمعون الأكوام في جرادل يلقون بها بعيدًا خارج المكان. لم يقسم أحد العمل يومها، اختفى فجأة المدرّبون، وقسَّم الرجال والنساء العمل فيما بينهم، واستقمت أكثر من مرة وأنا أمسح العرق عن جبيني، وفي كل مرة كان عليَّ أن أؤكد لنفسي أن هؤلاء هم نفس الرجال والنساء الذين أعايشهم صباحًا ومساء... لا ثقل هناك ولا آلية، لا أذرع مرتخية ولا سيقان لا تعرف موضع الأقدام .. لا وجوه تختفي خلف أقنعة صماء خرساء. في حركة كل منهم ومنهن معنى، وبالتالي اعتداد وجمال لا حد له. من أين واتتهم هذه الليونة الجسدية، هذه الرشاقة، وهذه السكينة؟

واصطدمت امرأة وهي تعود تجري بالجردل برجل، وسقطا على الأرض، تحضنه تحميه من الزجاج ويحتضنها، واستقامت المرأة ضاحكة وشعرها الأسود يتموج على جبينها، ومن بين رموشها ومضت فرحة الحياة. وضحكا، وضحكنا معًا، وانبثق إلى الوجود العشرات من الأطفال بخدود بارزة وردية، بعيون سوداء وعسلية، خضراء وبنفسجية، زرقاء ورمادية. من أين أتى الأطفال؟ ليس في طابقنا أطفال، ربما من بقية الطوابق، وربما أتت بهم ضحكة المرأة الخالصة ومئات الضحكات التي لاقتها .

ما زلت أسمع هذه الضحكة رغم أن شهورًا بأكملها قد انقضت على الانفجار، رغم السجن ورغم الهشيم، تفتح أمامي هذه الضحكة آفاقًا باهرة لم أكن أحلم بها. لم تكن الضحكة الأولى ولا الأخيرة التي سمعتها، ولكنها تبدو لي الضحكة. ونحن نضحك كثيرًا، وربما لا يضحك أحد مثلما نضحك، بعضنا يحترف الضحك، وبعضنا يحتمي بالضحك، وبعضنا يجن وهو يضحك. ولكنك ولا شك تعرف الفارق بين ضحكة وضحكة.. لا خشونة هناك في الضحكة التي كثيرًا ما تتردد في سمعي، لا اختناق، لا افتعال، لا بلادة، لا هستيرية، لا غواية، ولا دعارة. ربما كان الصفاء الخصب الذي أتى من حيث لا ندري بهذه المجموعة من الأطفال .

وعلى كلٍّ فقد كان كل شيء رائعًا ذلك اليوم وفي المساء، حيث تمتعنا لأول مرة وربما لآخر مرة بهذا الشعور بالرفقة والانتماء، وحيث نمنا ونحن متفقون جميعًا لأول مرة على حقيقة واحدة لا ينازع فيها الواحد منا الآخر ولا يملك أحد أن يسلبها منا، لا أساتذة تلمُّس المنطق وأوراقهم المنشورة، ولا حتى الصوت في الكوة أعلى البرج. ومر اليوم وكأن لم يكن، وعاد كل شيء إلى ما كان، وحلت بنا آفة النسيان، وفقدنا الذاكرة ومرحلة من التدريب المحموم تنقلنا إلى مرحلة، إلى أن كان الأمس يوم الجهاد الذي يتكرر في الثالث من كل شهر .

لم أرَ شيئًا يوم الجهاد ولم أسمع شيئًا. لم ألحظ الزجاج عاد يفترش الأرض من جديد، ولم أسمعه وهو يتهشم تحت وقع الأحذية، ولم أشمه ورائحته تملأ خياشيمي بغباره الرمادي المشبع بذرات الزجاج. كنت قد تحولت إلى هذا الثور الهائج المليء بالحقد المصمم على الانتصار، كما نتحول عادة في أيام الجهاد المشهودة، وإني إذ أنظر إلى الأمس الآن لا أملك سوى أن أحتقر نفسي، وأبصق على الوحش فاقد الحواس فاقد المعنى الكامن في أعماقي، صحيح أنهم صنعوه، ولكني أنا الذي مكنتهم من صنعه، الرفاق في جوف الأرض، رفضوا أن يكونوه .

وفي الصباح الباكر أمس اصطف كل فريق من طابقنا خلف مدرّبه واتشح بلون مدرّبه، بعد أن خلع عنه الثياب الرمادية. وتتعدد ألوان الثياب التي يرتديها المدرّبون، وفقًا لطبيعة المعركة. وفي الشهر السابق كانت المعركة بين اللونين الأبيض والأسود، وفي الشهر الذي سبقه بين الأحمر والأبيض، أما في هذا الشهر فالمعركة بين الأحمر والبمبي. وأنت لا تستطيع أن تتكهن بالنتيجة قبل أن تبدأ المعركة، حتى لو بقيت في السجن بما فيه الكفاية، وتوهمت أنك عرفت أسراره ودهاليزه، ومَن مِن المدرّبين مرضي عنه ومَن مِن المدرّبين مغضوب عليه، فالخريطة الاجتماعية هنا في تغيُّر مستمر، تنقطع الأنفاس دون ملاحقته، ويوم لك ويوم عليك، والمدرّب في حركة انتقال مستمر ما بين القاع والقمة. وهذا ما يجعل عملية التكهن مستحيلة قبل قراءة أسماء الفريقين المتحاربين (نعم هي حرب ونحن الذين نحارب. حرب من؟ المدرّبين؟ أساتذة تلمُّس المنطق؟ أصحاب المال والمصالح الحقيقية؟ أم الصوت الصادر من الكوة أعلى البرج؟!) أم هي حرب من أجل الحرب، جزء لا يتجزأ من ترويض كل ما هو إنساني ومد الحبل لكل ما هو حيواني متوحش فاقد للحس والمعنى؟ !

وإذا اكتملت قائمة أسماء الفريقين المتحاربين دون ذكر اسمك، وأفلت بجلدك لتتأمل هذه القائمة، لم يعد هناك مجال للتكهن، والنتيجة معروفة سلفًا ومضمونة، كما يقولون في التعبير الأثير هنا، «مائة في المائة»، إذ لا يمكن لتلك المجموعة من المرضى والعجائز والضعاف في اللون الأحمر أن يتغلبوا على هؤلاء العتاة في اللون البمبي، والفوز معقود ولا شك لفريق اللون البمبي، وأنت لا تتوقف لتفكر أن العملية عملية قتل لا مباراة، سواء أكنت تلبس البمبي أو الأحمر، بل تندفع كالثور على الحلبة إن كنت محاربًا، وإلى صفوف المتفرجين إن كنت مشاهدًا، تصرخ كالمجنون تشجع فريقك أيًّا كان فريقك، لا تشعر كما ينبغي أن تشعر أن الأناشيد الحماسية الصادرة عن الميكروفونات تصادر صوتك فلا يصل إلى فريقك، يفور الدم في رأسك في نشوة والفريق المعادي يتخبط في قضبان الحلبة، يلتمس الخلاص حيث لا خلاص، يلتوي حول القضبان لينفذ من القضبان ولا ينفذ، ينبطح على الأرض يتمنى أن تنخسف به الأرض ولا تنخسف، تقفز على مقعدك مخمورًا بخمر الأناشيد الحماسية، ولا يعود دم الفريق المعادي يكفيك، أنت تريد الآن دم الجمهور المشجع للفريق المعادي، وأنت تنال بغيتك لحظة وجمهور المشاهدين يصطدم بعضهم ببعض، لحظة تطول بما فيه الكفاية ليسيل دم المشجعين، ولكنها لا تدوم بما يكفي لكي تتوهم أنك يمكن أن تحصل على ما تريد، حتى لو كان ما تريد دم الآخرين، ولا يلبث المدرّبون أن يتدخلوا لإحلال النظام ولا تلبث المعركة أن تنتهي بالضربة القاضية .

وفي طريقي للعودة إلى العنبر لاحظت، وأنا أقذف بعض مشجعي اللون الأحمر بالتراب، ما فاتني ملاحظته في الصباح . قذفت بذراعي إلى أبعد ما يمكن أن أقذف به وفردت قبضتي لألقي في وجوه أعدائي بالتراب، ولم تنفرد قبضتي. وضحك رجل في بذلة حمراء ضحكة صفراء. وأنَّة عميقة تصدر مني، وسائل أحمر ملوث بالتراب يتساقط من كفي في قطرات كبيرة تتسع المرة بعد المرة. وأخفيت يدي تحت سترتي، قلت : لا بد وأنه جرح من آثار الالتحام مع الأعداء، وانتحيت جانبًا. وبقبضتي اليسرى فردت اليمنى في بطء وفي ألم، إصبعًا بعد إصبع. وفي كفي اليمنى وجدت أسنة الزجاج مغروسة، مدببة ومثلثة ومربعة، وقلت: ربما بقايا متخلفة من ذلك اليوم البعيد .

وفي الممر الخارجي المؤدي إلى العنبر تبددت محاولاتي لخداع الذات... كان بساط الزجاج قد عاد يفرش الأرض. الآلاف المؤلفة من قطع الزجاج المدبب متراكمة نافرة أكوامًا بعد أكوام، تنشب أسنتها في قرص الشمس لحظة المغيب وتعود مصطبغة بلون الدم .

لم يكن الرعب هو الذي عذبني تلك الليلة، كنت على يقين أننا سنجتمع مرة أخرى كما اجتمعنا من قبل على عمل ذي معنى وهدف يوحدنا، ونضحك تلك الضحكة التي تلد أطفالًا بعيون سوداء وعسلية، خضراء وبنفسجية، زرقاء ورمادية ونحن نجمع أسنة الزجاج بالجاروف، ونلقيها بعيدًا، بعيدًا عن المكان .

كان الشعور بالاختلاف والغربة هو ما عذبني تلك الليلة . لم يلاحظ أحد الزجاج وهو يتموج على الأرض، وإن لاحظ واحد منهم فلا يبدو عليه ما يستدل منه أنه لاحظ. أطلت النظرات من عيونهم المنسحبة خاوية، ووجهت السؤال وكأني لم أوجه السؤال، لم تفصح عيونهم عن شيء على الإطلاق في الممر الخارجي وفي عنبر السجن. وصارحت أقربهم إليَّ: ومن أين يأتي هشيم الزجاج؟ هل سمعت انفجارًا؟! هل رأيت زجاج النوافذ وهو يتحطم؟ قال مشيحًا بيده مستبعدًا كلامي. وتمزقت أنا لوهلة بين حقيقتين، حقيقة وجود هشيم الزجاج، وحقيقة ألا انفجار يؤدي إلى هشيم الزجاج، ولفت الحقيقة الأولى كل حقيقة عداها وصوت الزجاج وهو يتصادم بعضه ببعض، وهو يتموج موجة بعد موجة، موجة أعلى من موجة، يصلني من نوافذ العنبر العالي. وانتويت أن أبلغ الأمر لمدربي في الصباح .

أثناء التدريب هذا الصباح لم يعد ثمة شك ونحن نخوض أمواجًا من هشيم الزجاج. وقررت وأنا أقف على ساق واحدة لمدة ساعة أن أقترح على مدرّبي أن نزيل الهشيم كما أزلناه في المرة السابقة. وبدا لي قراري جريئًا ومتهورًا فما من أحد في هذا المكان يقترح على أحد شيئًا، وإن حدث، ونادرًا ما يحدث، لا يلقى الاقتراح أي استجابة، يغيبه الصمت وكأن لم يكن. وقررت وأنا أزحف على أربع لمدة الساعة التالية أن أكتفي بلفت نظر مدربي إلى الوضع الذي لا يستشعره بالضرورة لأنه يلبس حذاءً ذا سيقان طويلة .

واستجمعت شجاعتي قبل أن أنطرح، وفقًا للتدريب التالي، على ظهري بعيون جاحظة كعيون الموتى وبلسان يتدلى من الفم، وتوقف المدرب لحظة كأنه فقد النطق ثم قال :

- ومن أين يأتي هشيم الزجاج؟! هل سمعت انفجارًا، هل رأيت زجاج النوافذ يتحطم؟ !

وهل يتطلب الهشيم انفجارًا كل مرة؟! في جوف الأرض مغروس، يربض، ينتظر، يتربص، كلما استفحل الحال ينمو كما ينمو النبات المتسلق يعلو مهددًا بالإطباق علينا. الهشيم منا، الهشيم فينا، تواطأنا جميعًا على التستر عليه .

- أين هذا الزجاج؟ !

سأل مدربي في استنكار وهو ينتزع قدميه بصعوبة من أطنان من قطع الزجاج ويلتف حول نفسه في استدارة كاملة. وانتويت ألا أسلم هذه المرة بواقع غير الواقع أيًّا كانت الأوضاع، وأشرت بذراعي إشارة واسعة شملت المكان، وحاول مدربي أن يقتلني بالضربة القاضية ولم يفلح رغم ما في جعبته من عجائب: حقيقة الهشيم تلغي في وعيي كل ما عداها، هشيم الزجاج يسكنني. أكاد أسمعه الآن وأنا أكتب في العنبر وهو يتموج مسنونًا في الخارج، يهدد بدفننا جميعًا تحت ركامه ولا بد فيما يبدو أن أصرخ عاليًا أبدد كل الأكاذيب، وأعلن الناس بالخطر الذي يهددهم. لم تعد الكتابة تغني عن الصراخ وموجات الهشيم تكاد تبلغ الحلقوم .

هأنا أصرخ الآن، صرختي تعلو بكل الصرخات الموؤودة، تستطيل بمدى القهر الواقع عليَّ وعلى الآخرين، تغتني بصرخات الآخرين، آلاف الصرخات تنذر بالخطر الجاثم، ومدربي يحاول أن يئد صرختي هذا الصباح، يتحداني أن أبرز أثر الجراح التي تركها الهشيم المزعوم في جسدي. أنضو عني ملابسي في تحدٍّ، جراحي عميقة إلى ما لا مدى، غائرة ووحشية ولا أثر للجراح، في الكبد استقرت والقلب والعقل والأطراف، ومدرِّبي يسألني أين الجراح، وهشيم الزجاج يسكنني، والجراح غائرة ووحشية، وصرختي تستطيل وصرخات الآخرين .

1969

كلمة السر

أحكي هذه الحكاية من زنزانة رقم 3، عنبر 7، سجن مصر، أتلمس الكلمات على الضوء الباهت الذي يتسلل مع طلعة الصبح من قضبان حديد قبوة الزنزانة. عليَّ أن أستعد بعد قليل لإيداع الورق والقلم في مخبئهما السري حتى لا يجدهما السجان حين يفتح الباب .

كنت أتمنى أن أحكي لك، وباعتزاز شديد، عن المهمة التي قمت بها بنجاح وأدت إلى إنقاذ عبد الله من سجن وإعدام مؤكد. رافقته لمدة شهر بأكمله، أناور وأداور، أصرخ وأهمس، أكر وأفر، أظهر وأتخفى، أنام وأصحو، أنتزع عبد الله من مخالب الخطر المرة بعد المرة، أقيل عثرته كلما تعثر، أمنحه من ذاتي ومن كياني كيانًا، من عينيَّ وهجًا ومن قلبي نبضًا، أشبعه من جوع وأرويه من عطش، أمرّضه إن مرض، أعيره صوتي حين يعز صوته، صارخًا، هامسًا، محتجًّا، غاضبًا، متوسلًا، وأنا أندفع به ومعه إلى الأمام، غير هيَّاب ولا وجل، حتى أصل به إلى بر الأمان... أية أهوال لم أخضها؟! وأية تضحيات عزت عليه؟

نعم انتويت أن أحكي حكاية عبد الله، ولكنني سأضطر فيما يبدو أن أحكي حكايتي أنا بدلًا من حكاية عبد الله، على ضوء المستجدات التي جدت في السجن، وما أكثرها! ولو حكيت حكاية عبد الله لما أتيت بجديد، فقد اكتشفت في السجن أن حكاية عبد الله مُعادة ومكررة على ألف صورة وصورة، وكأن كل إنسان قد رافق ذات مرة عبد الله، وأنقذه ذات مرة من السجن والإعدام. وتتعدد صور عبد الله في السجن مع كل حكاية، حتى يخيل لي أنه ألف عبد الله وعبد الله. وأتساءل أحيانًا: هل عبد الله الذي يتحدثون عنه هو عبد الله الذي عرفته؟ ويصل بي الأمر أحيانًا إلى التشكك في وجود عبد الله أصلًا .

وليس هذا بالشيء الوحيد الغريب الذي حدث لي في السجن. ففي الفترة القصيرة التي قضيتها في الزنزانة حدثت أشياء عزَّت على خيالي وستعز قطعًا على خيالك. وكل ما أرجوه أن تصدقني فأنا أحكي الحكاية كما حدثت بالتمام والكمال، والله على ما أقول شهيد. أنا أملك الآن أن أقول لك ثقة واعتدادًا بالذات: «افتح يا سمسم » ، فينفتح باب الزنزانة، لا باب الكنز كما في قصة «علي بابا والأربعين حرامي»، وإن كان قد اتضح لي، مع مرور الأيام، أن باب الزنزانة ينفتح عن كنز من نوع فريد، كنز لا يملك أحد أن يسلبه من الإنسان الفرد .

الوقت لم يتسع لي هنا لتفهُّم ما حدث تفهمًا كاملًا، بدا ما حدث أحيانًا أشبه بالخيالات وإن كان من الخيال ما هو أصدق من الواقع وأكثر تأثيرًا. بعد يومين من إحكام باب الزنزانة عليَّ، وعلى وجه التحديد بعد أربعة أيام من إفلات عبد الله من قبضة البوليس السياسي (استغرق التحقيق المبدئي معي في مبنى المباحث يومين) بدأت ظاهرة عجيبة تظهر في انفصال كامل عني وعن قدراتي (لم أكن قد تلقيت بعد رد الرسالة ولا وعيت بعد بكلمة السر).

كنت أجلس على «البرش» في ركني، غارقًا تمامًا في التفكير في إبلاغ الرسالة لمن يهمه الأمر. وبينما أنا «أضرب أخماسًا في أسداس»، كما يقولون، رأيت باب الزنزانة مفتوحًا. لم أره وهو ينفرج رويدًا عن السجان كما ينفرج عادة كل صباح، ولا سمعت أزيزه. هل يتلاعب بي السجان؟! قفزت إلى الباب المفتوح. امتد بصري إلى الممر الطويل يفصل بين صفين من الزنازين المتراصة المتشابهة، وما من سجان، وضحكات وهمسات وصرخات الساهرين في ميدان القلعة تكسر الصمت الرابض على ممر السجن المتلفع بالنور الأصفر الهاتك للظلمة، وتحملني على أمواجها، تلقيني خارج السجن، أسعى مع الساعين. وكذبت نفسي إذ ذاك (لم أكن قد وقعت في الحب بعد)، وقلت: أضغاث أحلام، والأصوات تتلاشى وكأن لم تكن، والباب يعود بعد ما كان مغلقًا، والسؤال يلف ويدور في رأسي لم يزل: كيف أبلغ من يهمه الأمر أني أديت مهمتي بنجاح؟

تتكرر ظاهرة الباب المفتوح في لحظات متفاوتة لا يربطها نمط، وفي كل مرة ينفتح الباب تشلني المفاجأة، فلا أبلغ رسالتي وأعود أتخبط بين تكذيب الظاهرة وتصديقها، أبحث عن وسيلة ما لإيصال رسالتي لمن يهمه الأمر. ولأن ليالي السجن طويلة (تبدأ من الخامسة بعد الظهر وتنتهي في الخامسة صباحًا)، ولأن مشكلة إبلاغ الرسالة تصبح يومًا بعد يوم أكثر إلحاحًا وقد تقطعت الصلات بينك وبين العالم الخارجي، قلت لنفسي: إن كان باب الزنزانة ينفتح فلا بد من وجود نمط ما محدد ينفتح له الباب، وما عليَّ إلا أن أجد هذا النمط ليفتح الباب بإرادتي وأُملي الرسالة .

ويبدو أني كنت ما زلت متشككًا في قدراتي وفي حقي في الباب المفتوح، إذ ألجمتني المفاجأة، فلم أعِ النمط والباب ينفتح هذه المرة بإرادتي. شلني ما توهمت لحظة أنه معجزة لا حق لي فيها، فأقعدني عن تبين النمط وبالتالي عن إبلاغ رسالتي. وليلتها لعنت «سنسفيل» جدودي والباب ينغلق، وقررت بيني وبين نفسي أني لا أصلح لشيء على الإطلاق (لم أكن أدري ليلتها أن الباب لا ينفتح أبدًا لمن لا يصلح لشيء).

وفي صبيحة الليلة التي قررت فيها أني لا أصلح لشيء، لمحت زميلي المتهم بذات تهمتي كما ألمحه كل يوم في طابور الصباح تحت الحراسة المشددة. كان هو في أول الطابور الذي يتحرك على شكل دائرة في حوش السجن الضيق، وأنا في المؤخرة كالعادة (وفقًا لمقتضيات الأمن التي تقضي بألا نتبادل الحديث)، وبدلًا من أن أتطلع كما أتطلع كل يوم إلى الثواني التي أواجه فيها زميلي ومؤخرة الطابور تلتقي مع المقدمة، وددت لو استطعت الهرب، محتميًا بزنزانتي. وحين اكتملت الدائرة للمرة الأولى مس زميلي ذراعي مشجعًا، مسًّا خفيفًا لم يلحظه السجان، وفي المرة قبل الأخيرة من مرات اكتمال الدائرة همس زميلي متسائلًا :

ـ هل أنت بخير؟

وتجاوزته دون أن أرد على تساؤله، كان الرد يتوقف على قدرتي من عدمها على تبين النمط وفتح الباب عن طريق هذا النمط، وحين التقت المؤخرة بالمقدمة للمرة الأخيرة تشبثت بذراع زميلي في جنون، متجاوزًا لكل محظورات السجن، وأنا أسأله :

ـ هل...؟

ولم أكمل، لم أعد بحاجة إلى استكمال السؤال، إذ إن رد فعل الألم الذي خلفته خيزرانة السجان في عمودي الفقري جعلني أتبين النمط فجأة، وحررني من الحاجة إلى الاستفسار والاستشارة. وصحت وأنا أعود إلى الزنزانة، حريصًا على أن يصل صوتي إلى زميلي :

ـ نعم أنا بخير .

وفي نفس الليلة انفتح باب الزنزانة حين أردت له أن ينفتح وأمليت رسالتي: إلى من يعنيه الأمر. أديت مهمتي بنجاح. عبد الله بخير. وجاءني الرد وباب الزنزانة ما زال مفتوحًا: «إلى الزميل م، زنزانة 3، عنبر 7، سجن مصر، نحن على ثقة أنكَ الآن بخير ».

في حومة إملاء الرسالة وتفحص الرد الذي حيرني وأغاظني في نفس الوقت، لم أحاول ليلتها أن أفهم لِمَ ينفتح الباب لي أنا شخصيًّا، ولِمَ لمْ يتبلور في عقلي مغزى انفتاح الباب إذ ذاك وهو المغزى الذي تبلور فيما بعد .

استوعبتني تمامًا عملية استعادة كلمات الرد كلمة بعد كلمة عشرات المرات: «نحن على ثقة أنكَ الآن بخير». أبحث عن رد لرسالتي عبثًا ولا رد، ولا إشارة إلى المهمة التي قمت بها ولا إلى عبد الله في الرد. وكأن فحوى رسالتي لا يتركز حول عبد الله ! ما افترضت أنه خبر، وخبر مهم، لكل من يعنيه الأمر في طول مصر وعرضها، ليس فيما يبدو بالخبر! بديهية فيما يبدو وكأن من المفروغ منه سلفًا أن يقوم أحد ما بهذه المهمة وأن يكون عبد الله دائمًا وأبدًا بخير! والمهمة التي حرصت أن أنص على نجاحها في رسالتي، ألا تستحق كلمة تقدير؟! ولا مجرد إشارة؟ !

تغيب ذكرى هذه المهمة في الرد، وكأنها مهمة يقوم بها كل إنسان كل يوم كلما مد كفه يمسح عرق العمل عن جبينه، أو غمس لقمة خبزه في غموسه، أو اقتلع الأشواك من قدميه، أو أباد الديدان التي تلتهم حصاده، أو قتل الحشرات التي تمتص دمه، أو قال كلمة حق ومضى! لا شيء على الإطلاق عن عبد الله، والرحلة التي اجتزت خلالها الأهوال يتجاهلها الرد تمامًا، بينما يتركز حول الاطمئنان على حالتي، وكأن الرحلة قد استهدفت تحرري أنا شخصيًّا لا تحرر عبد الله، وما لم أفهمه إذ ذاك كان: لماذا ينصب الرد على حالتي وكأنما أنا مركز الكون؟ هذا ما لم أفهمه إلا لاحقًا، حين أدركت أن كل فرد هو مركز الكون .

ولا أعلم على وجه التحقيق إن كان غيظي من الرد قد تبدد حين لمحت الباب مفتوحًا لم يزل، أم أن تبدد غيظي هو الذي جعلني ألمح الباب مفتوحًا، وأدركت فجأة حقيقة أني أملك أن أبقي الباب مفتوحًا ويحق لي أن أفعل طالما كنت بخير، وقفزت واقفًا على قدميَّ .

ولفحتني لمسة هواء باردة متسللة من قضبان النافذة العارية عن الزجاج، وتوهج جسدي بقشعريرة خفيفة ومحببة، وتفجر حتى المسام بحيوية حررته من الوزن ومنحته القدرة على التحليق، وامتدت ذراعي تلتف حول جسدي، أحضن كياني أم كيانًا وهميًّا؟! وارتخت ذراعي لتمتد إلى الأمام، مكورة إلى الأمام، تمسك بكوب وهمي مليء حتى الحافة يهدد بالانسكاب، واتخذ جسدي التوازن

المطلوب حتى لا ينسكب الماء من الحافة، وواتتني اللحظة الكونية النادرة التي يواتي فيها الإنسان أول ما يواتيه الإدراك بأنه وقع في الحب .

ولم أعد أتساءل كما تساءلت تلك الليلة: في حب مَن وقعت؟

والاعتداد يسكنني والفخر، وسكينة تصالحني على ذاتي ترطب كياني، أستشعرها حية نابضة متوهجة في جسدي خفيفًا وفي ليونة أطرافي، سكينة تجعلني أوقن أن الرحلة كانت في المقام الأول رحلتي أنا .

الرجل الذي عرف تهمته

(1)

لم يستطع عبد الله أن يركن إلى النوم لحظات كعادته وهو يقف في طابور الجمعية الاستهلاكية في انتظار زجاجة زيت شح من البيت. كان يفكر على غير عادته، وقد وجد في بيته في الليلة السابقة ما يستوجب التفكير وسرعة التصرف .

*

فتح التلفزيون كما يفتحه كل ليلة، وبدلًا من المسلسل التلفزيوني العربي، طالعته أناشيد حماسية تزداد مع مرور الوقت هستيرية، وتأكد له أن الليلة من ليالي النكد إياها التي لا ينام فيها الإنسان على مشاكل الناس وقد انحلت بقدرة قادر، أو يظل معلقًا ما بين الأرض والسماء في انتظار أن تنحل العقدة في الحلقة القادمة وتتزوج البنت وقد سقط عريس الغفلة من السماء، ويتأهل الولد وقد واتاه الله مشروعًا تجاريًّا بديلًا عن الوظيفة الحكومية، مشروعًا يبدأ من لاشيء وينتهي بالمليون جنيه ويستقيم المعوَج، وينتصر الخير، ويغتني الفقير، وينقلب شر منقلب المفسدُ والمرتشي وسارق أقوات الناس من الجمعيات الاستهلاكية، وتاجر العملة وصاحب العمارات المغشوشة، ويبوء في آخر المسلسل بالندم، وبقيود الشرطة الحديدية ترصع مرفقيه .

ولما تأكد لعبد الله أن الليلة لا تحمل أيًّا من هذه الغرائب، ولا تعد حتى بشيء منها، طالب بقلب محطة التلفزيون لعل وعسى. واستغرب والبنت تحتج على هذه المطالبة والولد، قالت مسحوبة اللسان ـ ولا يعرف حتى اللحظة إن كانت تجدُّ أم تهزل، والأرجح على ضوء تطورات الموقف أنها كانت تهزل ـ إن اليوم الخامس من سبتمبر 1981 والمفروض أن في البلد ثورة، ومن ثم يتأتى أن تستمع إلى رئيس الجمهورية وهو يعلن الثورة على شاشة التلفزيون. وتغلب عبد الله على انزعاجه وقد عاد لتوه من الخارج وكل شيء هادئ يجري على ما يجري عليه، أو يقف عند ما يقف عنده، وأدرج الثورة المزعومة في إطار ثورات الأمن الغذائي البيضاء والخضراء والصفراء، الإدارية والزراعية والسياسية، التي تحدث عادة في غفلة من الناس، وتحول أحوالهم عادة إلى الأسوأ. وأدرج ما أضافه الولد عن الوحدة الوطنية والفتنة الطائفية في إطار ما لا يعنيه ولا يعني أهل بيته، وأصر على قلب محطة التلفزيون .

ومن جميع القنوات طالعته صورة رئيس الجمهورية يقرر أنه لن يرحم، ويلتزم الصمت المريب ما بين الحين والحين، متعجبًا، وقد انسحبت رقبته إلى الوراء وجحظت عيناه إلى الأمام تطق شرارًا يهدد شاشة التلفزيون بالانفجار .

ولما استحال قلب محطة التلفزيون، كاد يطالب بقفل التلفزيون والراديو قفلًا شاملًا مانعًا، وهو يلحظ أباه الخرف يقظًا على غير العادة في هذه الساعة من الليل، مستمرًّا على غير العادة أمام شاشة التلفزيون ينتظر قيام الثورة. ولو فعل لأراح واستراح ولكنه لم يفعل. عزَّت على فهمه الكثير من العبارات والإشارات التي استخدمها رئيس الجمهورية وهو يعدد عدد المتحفَّظ عليهم، وعدد من ينتوي التحفظ عليهم إن لم تَعتبِر البقية الباقية، وقد قطع الرؤوس وبقيت الأذناب. أراد أن يفهم ـ وليته ما أراد ـ علاقة الخطاب بالثورة وعلاقة التحفظ في مكان أمين بالسجن، وعلاقة الديمقراطية بالأنياب وانعدام الرحمة. ولم يشأ أن يفصح عن اهتمامه، كان ما زال في وعيه في تلك المرحلة، وتمهل قفل جهاز التلفزيون ليفهم. وليته لم يتمهل. لم يكن أبوه الخرف قد بدأ بعد في تصريف الضمائر، ناسبًا تهمة الإخلال بالوحدة الوطنية إلى الخلق أجمعين بداية بالأنا ومرورًا بكل الضمائر، ولا كان الولد والبنت قد أبديا علامات الاستخفاف برئيس الجمهورية، ولو فعلا في هذه المرحلة المبكرة من الخطاب لما تمهل ليفهم، ولحطم جهاز التلفزيون والراديو أيضًا إن لزم الأمر .

ولكن الأمر أفلت من يده تمامًا حين بدأ رئيس الجمهورية في طرح فوازيره السياسية، مشيرًا كل مرة دون تصريح لشخصية مهمة من الشخصيات التي ألقاها في السجن وطالبًا من المستمع التعرف على اسم الشخصية. ما إن تحدث رئيس الجمهورية عن «لويس السادس عشر الذي يريد أن يرجع بالتاريخ إلى الوراء» حتى اختلت نِسب الأشياء تمامًا والسياسة تصبح فزورة والفزورة سياسة، والجلسة تتحول إلى صهبة. وكالمدمن انسجم تمامًا واندمج، وولعه بالفوازير ينسيه كل المحاذير .

كم بلغ عدد فوازير رئيس الجمهورية؟ ثلاث أو أربع؟ إذا أدرجنا «الرجل المرمي في السجن كما الكلب» تصبح أربعًا . وفي كل مرة تهيأ للتعرف على الاسم المطلوب ولم يتعرف، ربما لأن رئيس الجمهورية لا يعيد رواية الفزورة مرتين كالمعتاد، ولا يقول كما تقول المذيعة: «نقول كمان»، وربما لأن رئيس الجمهورية كان غاضبًا غضبًا يعصف بالمتكلم والمستمع معًا، ولا يتيح روقان البال اللازم لطرح الفوازير ولحل الفوازير، وربما ـ وهذا هو الأرجح ـ لأن حل فوازير رئيس الجمهورية يتطلب معرفة، لا يتمتع هو بها، بأحداث السياسة اليومية. وكان أن استعان بالولد والبنت في حل الفوازير، وليته ما استعان .

أي غيبوبة تلك التي استولت عليه في الفترة ما بين طرح الفوازير وحلها، فلم يتوقف لينتهي أبوه الخرف عن تصريف الضمائر، ناسبًا للخلق أجمعين تهمة الإخلال بالوحدة الوطنية؟! ولا توقف ليتساءل، كما يتساءل الآن، من أين واتت الولد والبنت هذه المعلومات السياسية الدقيقة، وهو الذي حرَّم على أهل بيته السياسة تحريم المنكر؟ وحين أفاق من غيبوبته كان الأوان قد فات .

نعم لم يفق من غيبوبته إلا على المشهد الذي أعقب الخطاب على أنغام الموسيقى الحماسية، وفي بيته، وأمام عينيه !

وكان من الطبيعي أن تذهب صيحاته هباء وهو يحاول عبثًا وقف المهزلة التي أعقبت الخطاب، وصغار الأولاد والكبار ينتظمون في طابور يلف ويدور ويقول: «توت»، ولوثة تصريف

الضمائر ناسبة تهمة الإخلال بالوحدة الوطنية إلى الجميع تنتقل من الجد إلى الحفيدة والحفيد، تكاد تصل إلى الجيران، لولا غلبة الموسيقى الحماسية وصيحة «توت توت» تغطي على كل الضمائر .

*

وطأت امرأة قدم عبد الله وهو يقف في طابور الجمعية، وكاد يطالبها بالاعتذار.. وأقر بمسؤوليته عما حدث. فلو لم ينزلق إلى الرغبة في حل الفوازير التي طرحها رئيس الجمهورية، لما فقد سيطرته كأب، ولاستطاع أن يلجم الكل ويحول دون المهزلة التي أعقبت الخطاب. وحمد الله أن صيحة «توت توت» غطت على ما عداها، فلم يلتقط الجيران سواها. وأغمض عينيه يستبعد المشهد. وتساءل: من أين ومتى وكيف جمع الولد والبنت هذا القدر من المعلومات السياسية، وقد حظر عليهما السياسة؟ وكيف ومتى اتخذا، دون أن يدري، موقف الرفض لما يجري؟ ولعن أباه الذي تلطم في السجون والمعتقلات في العصر الملكي والجمهوري على السواء ولم يبرأ من السياسة، وعاد واستسمح الله وقد لعن أباه، فالرجل لا يمكن أن يكون مسؤولًا عما حدث وقد أصيب، نتيجة لتصلب الشرايين، بالخرف المبكر .

من أربع سنين والرجل يسأل: «من أنا؟»، وإن كان خرفه عجيبًا، يدخل فيه ويخرج منه بسهولة، حتى يخيل للإنسان أنه يصطنع الخرف عندما يريد. يعرف الكل ولا يخطئ أحدًا، يسأل: «من أنا؟»، ويكون هو كل واحد يشاء، من أحمد عرابي إلى عبد الناصر. يغط في النوم ويصحو إنسانًا جديدًا، يهتم بأدق الأمور ويغفل عن أبسط الحقائق وهو يسأل: «من أنا؟»، يمنح الولد والبنت الحب ويتلقاه، يهتم بأدق أمورهما الصغيرة ويهتمان، يلعب مع أمهما لعبة القط والفأر، تحبه وتخافه. ويغلق دونه هو الباب ويغط في النوم بمجرد أن يعود إلى البيت، ولكن بعد أن يقول له: «ألم أقل لك؟!». ولا يعرف هو المقصود على وجه التحديد. لا يهتم، فقد قال أبوه الكثير طوال العمر وهو يخرج من السجون إلى المعتقلات. حلم بالأمس بالتغيير إلى الأفضل، فبماذا يحلم الآن وهو لا يكف يسأل: «من أنا؟»؟ ضيَّع العمر ليغير أحوال الناس ويبدلها إلى الأفضل، فهل يعرف أن كيلو اللحم بسبعة جنيهات، وأن غموسه من الباذنجان المقلي يكلف ابنه وقفة ساعات في طابور الجمعية في انتظار زجاجة الزيت؟

وحرك عبد الله رقبته حركة دائرية يمينًا ويسارًا، يسرّي الدم في كتفين أرهقهما تدافع الناس في الطابور، وقالت زوجته وهي ممددة إلى جانبه في السرير :

ـ أخشى أن يصاب الولد بالجنون .

وأضافت مفسرة :

ـ علاقة الولد بجده غريبة .

وطار النوم من عينيه وهي تشرح وتفيض، والشاب الصارم المتجهم المتمرد في الرابعة والعشرين ينقلب حاله ويتحول إلى طفل كلما انفرد بجده في البيت، يثرثر، يضحك، يلعب، يدمع، ويصرخ في نفس اللحظة، يتهامس وجده بعبارات لا تسمعها، يحلان فوازير لا تفهمها، يلعبان لعبة «هوجة عرابي» وألعابًا أخرى متعددة لا تعرفها، والولد باختصار يصاب بالجنون كلما انفرد بجده. وليلتها طمأن هو زوجته :

ـ الولد مأزوم يسرّي عن نفسه .

ـ بهذه الطريقة المجنونة؟ !

وصعب عليه ليلتها أن يصف لزوجته عالم أبيه السحري الذي يُسقط كل قيد، ويطلق الخيال محرَّرًا من كل سد، واكتفى بالقول :

ـ لا تقلقي، الولد ينطلق على طبيعته مع جده .

وتساءلت زوجته فيما يشبه الاستنكار :

ـ وإذا كانت هذه طبيعة الولد، فلماذا لا ينطلق على طبيعته معك وأنت أبوه؟

وسقطت الشبكة الخاوية التي يحمل فيها عبد الله مشترواته على الأرض، واقتضته استعادتها دون أن يخل بنظام الطابور جهدًا كبيرًا. وتعذر عليه أن يزن انحناءته بحيث لا يصطدم بمن خلفه وأمامه، ورفع الشبكة ببطء شديد بطرف قدمه حتى قاربت ذراعه الممدودة إلى أسفل بعد جهد، وأدرك أن أباه لا يمكن أن يكون مصدر المعلومات السياسية التي تسابق الولد والبنت في استعراضها بالأمس أثناء خطاب رئيس الجمهورية، وتساءل إن كان هو مصدر موقفهما الرافض لمجريات الأمور، وهما يدوران في فلكه، يدخلان عالمه ويخرجان منه في يسر يستعصي على بقية الناس. واستشعر القلق وهو يتساءل: هل أورث الجد الأحفاد ما عجز أن يورثه للابن؟! وتبدد قلقه وهو يستبعد الاحتمال، فماذا بقي الآن من الجد ليورث، وقد سقطت الفواصل واختلطت عليه الأزمنة؟ !

وكبس الطابور على عبد الله من الخلف، وحال بينه وبين الوقوع ظهر امرأة تتقدمه استدارت تنعي غيبة الأخلاق والزمن الغدار الذي جعلها، وهي السيدة المحترمة، مطمعًا سهلًا للوحوش من الرجال، وأدرك صعوبة المواجهة بعد أن صمتت المرأة وعاود الطابور الانتظام... البنت في الخامسة والعشرين تبدد أملها في الزواج أو كاد، تعمل في التدريس ليل نهار من سنوات لتعاون في مصاريف البيت، والولد في الرابعة والعشرين، مرٌّ كالحنظل، توقف عن انتظار خطاب القوى بعد انقضاء ثلاث سنوات على تخرجه من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بدرجة الامتياز. البنت توجعه وهي تصدمه بأغرب الأقوال يفهمها حينًا ولا يفهمها معظم الأحيان.. حين تحجبت فجأة وهي لم تزل في السنة الثالثة من دراستها الجامعية قالت ساخرة :

ـ هذا عصر الانفتاح يا أبي، يتعين علينا أن نتحصن ضد الغواية .

واستقرت عيناها على أحذية إخوتها الصغار مقورة بالمقص من الأمام لتفسح المجال لأصابع أقدام لا تكف عن النمو شهرًا بعد شهر وقالت :

ـ لا أستطيع أن أجاري زميلاتي في تغيير الثياب والسيارات .

وأضافت ضاحكة تخاطب أمها :

ـ قد يستجيب الله لدعائك يا أمي ويرزقني بلبن العصفورة .

وعنت بلبن العصفورة عريسًا يملك شقة وموارد كافية لفتح بيت. وحين طالبها أمس الأول أن تدخر جزءًا من دخلها لتجهز به نفسها للزواج، ولا تصرف كل مدخراتها على إخوتها الصغار، قالت، ولم يفهم :

ـ أحذية اليوم ورق يا أبي، لم تعد تحتمل المقص .

ثم هامسة دون أن توجه الخطاب إلى أحد :

ـ لم يعد لنا سوى احترام الذات، فلنتمسك به ما أمكن .

ليلتها سأل زوجته في ظلمة الليل إن كانت البنت تحب، أو أحبت في يوم من الأيام كبقية البنات، وعنَّف زوجته حين اعتصمت بمكر النساء وأنكرت، وردَّ بالإيجاب حين تساءلت زوجته في استنكار إن كان يريد للبنت أن تحب وتعشق مطيحًا بكل التقاليد والعادات، ودهشته من نفسه لا تقل عن دهشة زوجته، التي ألجمتها إجابته متألمًا للسؤال بنعم. وليلتها سأل زوجته وهو يدرك متألمًا أنه لا يعرف شيئًا على الإطلاق عن أولاده :

ـ والولد؟

ـ يشيح بوجهه كلما رأى صبيَّة حلوة .

وتساءل هو مستفسرًا :

ـ غاضبًا؟

ونظرت إليه زوجته مستغربة :

ـ ومما يغضب؟ الكل يولع له أصابعه العشرة كالشمعة، وهو كالطاووس يفرد ريشه ولا يعجبه العجب. وتساءلت بعد لحظة في استنكار :

ـ أتريد له أن يحب وهو بلا عمل؟

وتساءل إن لم يكن وزوجته قد أحبا في زمانهما، وأولته ظهرها تقول :

ـ الحب مكلف هذه الأيام والبنت مكسورة الجناح والولد، بماذا يحبان يا حسرة؟

وأفاق ويد تلكزه في كتفه وأصوات تصيح :

ـ ادفع يا أخينا.. خلصنا .

ووجد عبد الله نفسه يقف أمام البائع متهَمًا بتعطيل مصالح الناس، وقرر، وقد فاز بزجاجة الزيت أخيرًا، أن من حقه على نفسه أن ينام بعد أن نال في يومه من المواجهة ما يكفي ويزيد، وأن يؤجل مواجهة الولد والبنت إلى حين .

ولم يدرِ لحظتها أن القرار قد خرج من يده في غيابه، وأن أكثر من مواجهة على أكثر من مستوى في انتظاره .

(2)

جاءوا في طلبه في الساعة التاسعة من مساء السادس من سبتمبر 1981 وهو غائب في طابور الجمعية، وطلبوه بالاسم دون أن يعرفوا له سنًّا ولا وصفًا ولا صورة، وكان الجد نائمًا في سريره، والابنة المُدرسة بمدرسة ثانوية حكومية تشرف على مذاكرة إخوتها الصبية والبنات، والابن ينسخ على الآلة الكاتبة مذكرات يبيعها لطلبة كلية السياسة والاقتصاد، والأم تبدل ياقة قميص على آلة خياطة قديمة .

وتأكد للابن والابنة، وقد تبينا أن الأب هو المطلوب، أن في الأمر التباسًا، والعنوان الوارد بقرار التحفظ ليس بدليل، فعناوين المساكن الشعبية ما زالت تستعصي حتى على رجال البريد، وأسماء سكانها تكاد تتطابق. وقد يكون المتهم المطلوب في الشقة الأعلى أو الأسفل على السواء، أو في عمارة الإسكان الشعبية المجاورة، أو تلك التي تليها. وعلى هذا الأساس تعامل الابن والابنة مع الحدث في خفة طمأنت الأم وسرت إلى بقية الأولاد .

وحين تطورت الأمور ورأت الابنة اسم أبيها الثلاثي مطوقًا بدائرة من الحبر الأحمر في القرار الجمهوري بالتحفظ، أشاحت بوجهها حتى لا يرى الضابط الدمعة تفر من عينيها، وقررت أن ما من أحد في هذا البلد بسالم، وأن من الضروري التعايش مع هذه الحقيقة والإبقاء ما أمكن على احترام الذات. وتوقف الابن عند اسم أبيه مطوقًا بالحبر الأحمر، وقرر أول ما قرر أن النحس حليف أسرته من قديم الزمان، ثم لم يعد بقادر على أن يقرر شيئًا وهو يتمثل نفسه في أبيه الذي يفر من السياسة كالجرب، وفي جده الذي يتنفس السياسة كما الهواء. وأراد أن يُكذب قائمة التحفظ وأراد أن يصدقها، أن يرتمي على الأرض منتحبًا، أن يهرب، أن يقف على مائدة الطعام في

الصالة، ويعترف علنًا بأنه طائر بلا جناحين. وتمنى أن يهرب من واقع يسد المنافذ حتى الاختناق، وطالبته نظرة أخته بالتجاوز وتبين مدى عجزه، وتأتى ليحتفظ بتوازنه أن يصدِّق، ولو لحظيًّا، أن أباه قادر على ما لم يقدر هو عليه... ورأى جده يناضل رجال الشرطة حتى حافة الموت، وصدَّق .

فتح أحد الصغار الباب لرجال الشرطة، ولم يشعر أهل البيت بوجودهم حتى زحم الشقة جنود من الأمن المركزي والشرطة والرديف والمخبرين في كثرة الجراد، ولم يتبين أهل البيت لهذه القوة قائدًا حتى واتاهم صوت الجد منبهًا إلى الخطر :

ـ تجريدة !

صاح الجد ومدفع رشاش موجه إليه وخمسة جنود يطوقونه في السرير، وضابط شاب يرقبهم مرتبكًا، وهو لا يعرف بعد قواعد اللعبة التي يلعبها الجد والحفيد. انتظر الجد في السرير، كما ينبغي له أن ينتظر، مستسلمًا للتطويق، كما ينبغي له أن يفعل، حتى ينتهي الطفل في ملابس الضابط من قراءة أمر النيابة بإلقاء القبض عليه :

ـ أنت مطلوب بمقتضى القرار الجمهوري بالتحفظ الصادر في خمسة سبتمبر سنة 1981 .

وصعق الضابط الشاب وهو يرقب الرجل العجوز يزيح كما يزيح الذباب خمسة من عتاة الجنود، ويقفز بجلبابه الأبيض كما المنطاد، يستبعد المدفع الرشاش كما لو كان مدفع حلاوة، ويستقر وسط الحجرة مطالبًا، وفقًا لقواعد اللعبة، بأمر النيابة العمومية بالقبض عليه وإلا فلا .

وكان الضابط الشاب قد تأهب لكل احتمالات الموقف وهو يخرج في مهمة هي الأولى من نوعها بالنسبة إليه، ولكنه لم يتأهب بحال لرجل يزيح المدفع الرشاش كما لو كان لعبة أطفال، ويواصل القفز كما المنطاد .

واستحضر الضابط في ذهنه التعليمات الصادرة بشأن تنفيذ القرار الجمهوري بالتحفظ عسى أن يكون قد نسي شيئًا يتصل بموضوع إذن النيابة هذا عبثًا، ومن باب الاحتياط استحضر ما يماثلها من معلومات في مناهج كلية الشرطة التي تخرَّج منها لتوه، واكتشف لدهشته أن إذن النيابة ضروري في عملية إلقاء القبض على أي متهم. ولعن من أوقعه في هذه الورطة التي لا يعرف لها مخرجًا. وفتح الله عليه وذكر فجأة التعليمات التي غابت عنه :

ـ هذا قرار جمهوري سيادي لا يحتاج لإذن من النيابة .

وما كاد الضابط يتنهد منتصرًا لأنه أصاب كبد الحقيقة، حتى وجد الرجل العجوز يصيح وهو يقفز من جديد كما المنطاد :

ـ ارفعوا أيديكم عن سعد زغلول .

وأفاق الضابط على صوت شاب يماثله في العمر يشير إلى الرجل ويقول :

ـ هذا هو جدي .

ويتقدم منه يشق صفوف الجنود التي حرم شقها، والمدفع الرشاش ينحسر عن الرجل العجوز ينعي عهد الظلم والطغيان، ويطالب بحضور وزير الحقانية شخصيًّا كشرط للاستسلام، والشاب يواجه الضابط الآن وهو يكرر :

ـ هذا هو جدي .

وأجاب الضابط في حدة :

ـ جدك مطلوب .

وتأكد للضابط أن الرجل العجوز يدعي الجنون، وأنه مسؤول عن الفتنة الطائفية، والإخلال بالوحدة الوطنية، وكل البلاوي التي حلت به شخصيًّا وبالبلد. فها هو الرجل يعلن العصيان ويضع شروطًا للاستسلام، مطالبًا بحضور وزير الحقانية شخصيًّا، وها هم جنوده يتراجعون خوفًا من التهديد، ينكسون أسلحتهم ويسمحون لكل من هب ودب بدخول الحجرة. واليوم ولا شك يوم الخيانات، فها هو الشاب يشككه في منطقه ويقول :

ـ وفقًا للاسم الذي ذكرته، أبي هو المطلوب لا جدي .

ولعن الضابط في سره من أوكلوا له مهمة حاول الاعتذار عنها فلم يجد من يعتذر له، وقد تفرق في مهام مماثلة كافة رؤسائه وزملائه من مختلف الفصائل في المدن والقرى والنجوع والدساكر .

ـ أطفئ النور ما شئت يا ماهر، فإن نور الحق ظاهر، لقد تآمرت أنت وأخوك والسرايا على قتلي ...

قال الرجل العجوز وهو يتنغم وكأنما يقف خطيبًا على منبر، ووجد الضابط نفسه يسأل مبهوتًا :

ـ ومن هو الآن؟

وأجاب الشاب في جدية أفقدت الضابط الصواب :

ـ مصطفى النحاس يخاطب أحمد ماهر رئيس حكومة الأقلية في البرلمان .

وتأكد للضابط أن العجوز ليس بالمطلوب، وتأمل لحظة الشاب الذي يعرف من أحداث التاريخ ما لا ينبغي أن يعرف، ومال إلى الاعتقاد أنه هو المطلوب .

ـ ولماذا لا تكون أنت المطلوب؟

ـ لأني الابن لا الأب .

وانقض عليه الضابط قائلًا :

ـ وما أدراني أنك لست الأب؟

وما كاد الضابط يقولها حتى أطبق الجنود على الشاب مطوقين الرجل الوحيد المتبقي على أساس أنه المطلوب. وخشي الضابط أن يتمخض المتهم الجديد عن جمال عبد الناصر يطالب بحضور أنور السادات شخصيًّا كشرط للاستسلام، ولكن الرجل الوحيد المتبقي لم يتقمص شخصية أحد، ولا حاول حتى مقاومة «رجال الأمن». أبرز بطاقته الشخصية وبطاقة جده، وبمضاهاة البطاقتين بالاسم الوارد بأمر إلقاء القبض اتضح الخطأ. وأمر الضابط فأطلق الجنود سراح الابن واحتج فيما يشبه الاعتذار بتطابق أسماء الثلاثة، الجد والأب والابن .

وتأكد الضابط أن المتهم المطلوب قد هرب، ولكي يكتسب وقتًا يتدبر فيه خطوته التالية أصدر أمرًا إلى رجاله بتفتيش البيت، وأسعفته المهلة فتواردت على ذهنه العبارات التي يتعين قولها في هذا المجال. أعلن أنه سيجد المتهم حيًّا أو ميتًا وأقسم على ذلك بأغلظ الأيمان، وتساءل بينه وبين نفسه وشابة محجبة تتقدم منه: كيف يتأتى له أن يجد متهمًا لا يعرف له أحد في الإدارة وصفًا ولا سنًّا؟ !

ـ عن أي متهم تبحثون؟

قالت الشابة المحجبة في سخرية وهي تواجه الضابط الآن، ولوح بأمر التحفظ وهو يقاوم الرغبة في صفعها، وعاودت السؤال في لجاجة، كأنه لم يلوح بالأمر في وجهها، واكتشف أنه نسي الاسم فتطلع إلى أمر التحفظ يفحمها .

ـ المدعو ...

ولم يكمل.. خطف الجد الورقة من يده منقضًّا كما الصقر وكورها وألقاها في فمه لحظة خطفها، وعوَّل الضابط على قوة الجنود تطرح العجوز أرضًا تنتزع الورقة من فمه قسرًا، وضاع والجد يبتلع المستند الرسمي رغم كل محاولات الجنود الذين طرحوه أرضًا. وصفق الأطفال من كل الأعمار، وكادت الأم تزغرد لو لم ينبهها الابن أن الموقف لا يحتمل بحال زغرودة، فبكت بلا صوت، وازدادت الابنة لجاجة وهي تتحدى الضابط الآن .

ـ عن أي متهم تبحثون؟

وانحنى الابن على جده يهدهده ويمسح على جراحه، وانبعث المطروح أرضًا من الموت إلى الحياة يصيح :

ـ لماذا تستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟

وفسر الابن قول الجد دون أن يطلب أحد منه تفسيرًا :

ـ أحمد عرابي مخاطبًا الخديوي توفيق الذي باع البلد للإنجليز .

وتأكد للضابط أن الابن يهين رئيس الجمهورية شخصيًّا بتهمة بيع البلد، ولم تخدعه بحال التورية التي تستهدف تغطية الإهانة، فما الخديوي توفيق هو الخديوي توفيق، وما الإنجليز هم الإنجليز. وانتوى أن يوجه للابن تهمة إهانة رئيس الجمهورية المؤمن محمد أنور السادات، وأن يحرر له محضرًا مدعمًا بشهادة الشهود، ويعود به إلى مديرية الأمن عوضًا عن أبيه، وتراجع الضابط عما انتوى في اللحظة الأخيرة وهو يسمع رئيسه يقول مستنكرًا :

ـ ألا تعرف حتى اسم المتهم المطلوب؟

وأدرك أن الموت أهون من العودة إلى مديرية الأمن دون اسم المتهم المطلوب. وخطر بباله أن القرار الجمهوري الذي يضم أسماء كافة المتهمين، وفي حقيبته صورة منه، ينطوي على الخلاص من مأزقه. ولن يكون من الصعب إيجاد اسم المتهم الثلاثي في قائمة التحفظ، وهو مشتق من الاسم الذي يحمله الجد والابن معًا. وتأتى على الضابط وقد وجد خلاصه في القرار الجمهوري، أن يتخذ الإجراءات الأمنية الواجبة قبل أن يفتح الحقيبة. وأمر، فأوثقوا الجد في سريره مكممًا، وحبسوا الأم وصغار الأولاد صبية وبنات في حجرة مجاورة مع توصية بضرب من يصدر صوتًا، استحسانًا كان أو استهجانًا. وأشار، فنقلوا البقية الباقية ممن لم يحبسوا أو يكمموا إلى الصالة تحت حراسة مشددة .

وفتح الضابط الحقيبة «السامسونايت»، وانكب على الأمر الجمهوري، وتبين لدهشته أن القائمة تحتوي على أكثر من ألف وخمسمائة اسم، وكاد يصرخ: «يا خبر أسود»، وهو يتعرف على أكثر من اسم معروف، وأكثر من شاغل لمنصب مرموق من الأقباط والمسلمين، اليمين والوسط واليسار حتى ممن حسبهم أمواتًا، واستوعبته مصيبته الشخصية فلم يصرخ. وقدر أن إيجاد اسم المتهم المطلوب سيستغرق وقتًا طويلًا، وقائمة التحفظ تفتقر إلى أي نوع من التبويب والتصنيف، بحيث يستحيل القطع بهذا الاسم الذي يجمع العديد من الناس، استند إلى طرف المائدة حتى لا يقع وهو يكشف أن اسم عبد الله يرد بين اسم عبد الله واسم عبد الله واستعاض الله في شقاء أمه على تعليمه الذي ذهب هدرًا. واستجمع أنفاسه وهو يجد اسم عبد الله المطلوب مطوقًا بدائرة من الحبر الأحمر في الصفحة السادسة من القرار الجمهوري، وتوجه بالحمد إلى غرفة العمليات التي لا تغفل شيئًا، واستعاد الثقة في الجهاز الذي ينتمي إليه وفي نفسه وهو يصيح منتصرًا :

ـ غرفة العمليات لا تخطئ .

وجاء دوره ليسخر، وتقدم إلى الصالة حيث يجلس الابن والابنة، ولوَّح بقرار التحفظ في انتصار، وسأل الابن عبر الجدار البشري من الحراس الذي فصل فيما بينهما :

ـ أليس هذا اسم أبيك؟

وقال الابن :

ـ لا أب لي .

ونظرته معلقة بغرفة جده المكمم، وأضاف وربتة أخته تعيده إلى الواقع :

ـ نحن جيل بلا آباء .

لم يعد بالضابط طاقة على احتمال المزيد من الهزل وادعاء الجنون .

وأمر فأفسح الجدار البشري من الحراس الطريق، ودس الأمر الجمهوري تحت أنف الابنة ثم الابن واسم الأب مطوقًا بدائرة حمراء، وأشاحت الابنة بوجهها بعيدًا وهي تتمتم :

ـ ما من أحد بسالم في هذا البلد .

وفرت دمعة من عينيها ولم يقل الابن شيئًا، ارتجف من رأسه إلى قدميه وتقلص وجهه بما يشبه الضحك وبما يشبه البكاء وإن لم يكن ضحكًا ولا بكاء، ومضى كالطاووس إلى حجرة جده المكمم .

وتنهد الضابط ارتياحًا وهو ينقل اسم الأب الثلاثي في ورقة ويعيد قرار رئيس الجمهورية إلى الحقيبة «السامسونايت». وخطر في باله أن من الضروري أن يعود من مهمته الأولى بأكثر مما جاء، فطلب صورة للمدعو. ولما كان المطلب مطلبًا عسيرًا على عائلة لا تحتفل بالمناسبات ولا تلتقط صورًا للذكريات في أعياد الميلاد والرحلات والحفلات، استولى الضابط آسفًا على صورة الزفاف التي تطل على الحاضرين من إطار مذهب، ولما احتجت الأم بأنها غير مطلوبة، وناحت على تلطمها في أقسام البوليس وفضيحتها بين «من يسوى ولا يسوى»، اضطر الضابط آسفًا إلى بتر الصورة إلى قسمين بالعدل والقسطاس، ومنح الزوجة القسم الخاص بها بالإضافة إلى الإطار المذهب والزجاج .

وقال الضابط قبل أن ينصرف ما تقضي التعليمات بقوله قبل الانصراف في حالة عدم وجود المتهم المطلوب. وجَّه إلى الأسرة تهمة التستر على متهم خطير هارب من يد العدالة، وخيَّر الأسرة بين تسليم الجاني أو استصدار أمر بإلقاء القبض عليها، صغيرها قبل كبيرها، بالتهمة المذكورة أعلاه. وأمهل الأسرة ثلاث ساعات لتسليم المتهم .

وفوجئ الضابط بالجيران وجيران الجيران يزحمون السلم وهو ينزل برجاله، وبالجد وقد انحل وثاقه يقف على عتبة السلم يصيح :

ـ اخرجوا من بلادنا أيها المستعمرون. عليكم اللعنة .

(3)

لحظة عاد عبد الله من طابور الجمعية وجد داره على حال غير الحال، وجد أباه منتصبًا في وسط الصالة كالتمثال، مثخنًا بالجراح، مغطى بأوراق البلاستر البيضاء، وزوجته تلوح بورقة كما العلم، تردد كلمات لا تبين، كهتافات صبية المدارس يستقبلون رئيس الجمهورية وكبار الزوار من الأجانب، وابنه محمومًا تتنازع وجهه الابتسامات والدموع وقد فقد السيطرة على عضلات وجهه، وبنته شفتها في لون طرحتها البيضاء، تميل عليه تقول شيئًا يضيع في ضجة يحدثها الصغار من الأولاد والبنات يدورون حوله، يتصايحون كصبية زمان وهم يحرقون أقفاص الجريد فجر يوم شم النسيم .

وأفلتت زجاجة الزيت من يد عبد الله وهو يفهم أخيرًا ما تحكيه البنت، واصطدمت بحذائه أولًا ثم ببلاط الصالة محدثة صوتًا معدنيًّا حادًّا وهي تنفجر، ولا أحد على الإطلاق يهتم بالزيت المسكوب . ولا أحد يجمع حتى هشيم الزجاج. ولما كاد عقله يشت وهو عاجز عن استيعاب ما حدث وتصديق ما يقال، صرخ صرخة ألجمت الزوجة فسلمته علمها المبتور، وألقت بالعيال في الأركان مكومين، وأبقت أباه مصلوبًا وسط الصالة وسبابته معلقة في الهواء .

فكرت واستبعدت إمكانية الهرب، وإن كانت الإمكانية موجودة حتى الآن. واستبعد هو كلام البنت كهراء غير مفهوم، وجلس محتميًا بمقعده يحدق في استغراب في البقية الباقية من صورة زفافه، وأبوه لا يكف يردد بصوت جهوري منتصر :

ـ عائدون... إلى السجن عائدون .

وابنه يؤكد لأخته في اعتداد أن الهرب لا يليق بمن كان مثل أبيه. وإذ يلمح عبد الله يده مبتورة على طرحة الزفاف يدرك أنه في علم لا حلم، وألا مجال هناك للتشكيك في صحة ما قالته البنت وأكده الولد من صدور أمر بإلقاء القبض عليه، لم يعد يعي ما يجري من حوله وعيًا كاملًا وقد واتاه الإدراك. انصرف اهتمامه إلى بقع زيت تلوث سرواله وإلى يده مبتورة على طرحة زفاف .

ورأى عبد الله فيما يرى النائم ابنته تختفي وتعود بحقيبة صغيرة منتفخة يتدلى منها غطاء صوفي أبيض مرقط ببقع بنية كما جلد النمر، ورصد بارتياح ألا وجود في بيته لمثل هذا الغطاء الفخم، ولا بد وأنه يحلم وزوجته تستمطر اللعنات على ظالم، وأبوه يعدد تهمًا لا أول لها ولا آخر، يطالبه بالإقرار بتهمته ليتم تحديد موقفه القانوني. وهو منشغل بتأمل يده المبتورة وبقع الزيت تلوث سرواله، وكأن شيئًا في الوجود لا يعنيه سواهما .

وظل أبوه يكرر كما اللازمة :

ـ سمموا الآبار وأهلكوا الزرع .

وتأكد له أنه يحلم حين فتح فمه لينبه أباه إلى خطورة سب الحكومة، وبقي فمه مفتوحًا دون أن يسعفه حلقه بالصرخة، والآبار قد تسممت فعلًا والزرع قد هلك، أبوه يقسم الآن أن أحدًا من أهل بيته لا يسرق قوت الشعب ولا يمتص دماء الناس، وفراغ اليدين يكذب الاتهام وبقع الزيت. وكما في الحلم كاد أبوه ينقض عليه مرتين ولم ينقض، قذفه كل مرة بسؤال تراجع حتى قبل أن يكتمل السؤال، وعيناه تطوفان المكان بحثًا عن حفيده الذي اختفى الآن تمامًا من المشهد. متى وأين اختفى؟

ـ هل تعاملت مع الأعداء؟

قال أبوه وهو يقذفه بالسؤال الأول، ينقض عليه وكلما أذن المشهد بالانقضاض تراجع بمثل ما انقض، وتكوم كما كومة القش وعيناه تبحثان عن حفيده، تستقران يائستين وهو يسأل بصوت متحير :

ـ من هم أعداء الدولة الآن؟

ويستعيد أبوه قسوته الهرقلية وهو يفلت من يد البنت تحاول تهدئته، وينقض عليه من جديد ولا ينقض، يقول وسبابته مشرعة بالاتهام :

ـ هل أهنت دولة صديقة؟

ولا يتكوم هذه المرة ككومة من القش، يظهر الولد فجأة على باب المطبخ، يرتجف وهو يحمل، كما لم يحمل من قبل، إناء كبيرًا من البلاستيك مليئًا بسائل يخشى عليه أن ينسكب، يرفض، كما لم يرفض طول عمره، عرض أمه وأخته بالمساعدة في حمل الإناء، وجده يعاجله بالسؤال :

ـ من هم أصدقاء الدولة الآن؟

والولد يشير إلى جده بالصبر ويسير تجاه أبيه، يترك الإناء المليء بالماء الدافئ ورغوة الصابون تحت قدميه ويعود يحمل جده ما بين يديه إلى مقعده، يدثره بغطائه الصوفي ويهمس في أذنه بشيء ما يجعله يصيح :

ـ ألم أقل لك؟

ويركن الجد إلى النوم ملتحفًا بغطائه الصوفي. وكما في الحلم رأى عبد الله الولد يترك جده خلفه ويتجه نحوه، يركع تحت قدميه، يخلع عنه حذاءه وجوربه، يلف سرواله إلى أعلى ساقيه حتى لا يبتل، ويرخي قدميه في الماء الدافئ، وكما في الحلم لم يشعر بيدي الولد وهما تمسحان على ساقيه، ولم يفهم كلمات الولد تنهمر كالسيل، تبدأ هادئة وتتصاعد محمومة في صوت فرح باكٍ، منتصر مهزوم، ولم يتأكد أنه في علم لا حلم إلا حين واتى الشعور ساقيه والإدراك عقله .

مسح الولد على ساقيه المرة بعد المرة يغسلهما بالماء الدافئ والصابون وهو يردد محمومًا :

ـ وزراء، أساتذة جامعات، مطارنة، وعاظ وقساوسة، أئمة مساجد، عمال، فلاحون، طلبة .

وهو لا يستشعر شيئًا ولا يفهم شيئًا، والولد كما في الحلم لا يكف يردد :

ـ علماء جيولوجيا، اقتصاد، آداب، شريعة، دين، سياسة، طب، هندسة، صحافة .

وما إن واتى عبد الله الشعور والإدراك حتى حاول أن يسحب ساقيه من بين يديّ الولد ومن الإناء، وبدأت بينه وبين الولد معركة صامتة، وهو يحاول أن ينهي المشهد ويدا الولد تتشبثان بساقيه ونبرته تسارع، وكلماته لا تكاد تبين وهو يعدد صفات المتحفظ عليهم :

ـ مسلمون وأقباط، علمانيون، حزبيون، مستقلون، يسار، يمين، وسط، مؤيدون، معارضون، منشقون، مناهضون .

وفجأة وجد عبد الله نفسه يقلب الإناء في وجه الولد ويصيح من أعماقه :

ـ مظلوم يا عالم .

وراقب الولد ينتفض واقفًا مبللًا بالماء يترنح لحظة كالمطعون وسط الصالة، وينسحب إلى غرفة جده مغلقًا الباب دونه في طرقة مدوية، وارتجف والبنت تربت على كتفه هامسة :

ـ نحن شهداء هذا العصر يا أبي فلتكن الشهادة اختيارًا .

ولم تعد بعبد الله طاقة على احتمال هذا الهوس، ونحَّى يد البنت في عنف عن كتفه، وأمر فمسحت زوجته الماء المسكوب ممتزجًا بالزيت في الصالة .

*

وجد الضابط عبد الله في انتظاره على الباب لحظة عاد بعد غيبة ثلاث ساعات، ولم يرَ أيًّا من سكان البيت سوى الابنة المحجبة تملي على أبيها إملاء حقيبة يد تحتوي الملابس الضرورية للمعيشة في السجن وبعض المأكولات. وطمأنت البنت أباها قائلة :

ـ لا تشغل بالك. سنكون بخير .

وفتح عبد الله فمه ولم يقل شيئًا، وربت ربتة خفيفة على شعر البنت ونزل في هدوء، وأخاف الهدوء المتوتر، الذي ساد الشقة والعمارة، الضابط بأكثر مما أخافه الشغب الذي شهده الحي مكتملًا قبل ساعات والرجل العجوز يصرخ: «اخرجوا من بلادنا أيها المستعمرون. عليكم اللعنة ».

وأخذت الضابط الشفقة بالرجل النحيل المرهَق، يجلس محشورًا بينه وبين السائق في مقدمة عربة البوليس، وهمَّ أن يقول له شيئًا مشجعًا، وبدلًا من أن يفعل ارتجف خوفًا أن يكون قد أخطأ من جديد

المتهم المطلوب والرجل يقول :

ـ هناك خطأ ما .

ووضع أمام الرجل أمر التحفظ وقال :

ـ أليس هذا اسمك وعنوانك؟

وأكد عبد الله أن الاسم اسمه والعنوان عنوانه، غير أنه ليس بالمتهم المطلوب .

وارتخى جسد الضابط المشدود وفقد الاهتمام تمامًا والرجل يضيف :

ـ المسألة مجرد تشابه في الأسماء.. أنا رجل أجري على رزق عيالي، ولا علاقة لي إطلاقًا بالسياسة .

وكاد الملازم يغفو حين أيقظه صوت الرجل يقول :

ـ هل تتكرم بمساعدتي بشرح الخطأ للمسؤولين؟

وأشار الضابط بسبابته إلى أعلى مرجعًا الخطأ إلى مسؤول مجهول، وغفا .

(4)

انتظر عبد الله قرار الإفراج لحظة دخل السجن، ونسج مشهد الإفراج في مخيلته في الليلة الأولى بعد أن شبع من الطعام الذي حملته إياه ابنته قسرًا، وبعد أن التحف بغطاء العروس المرقط كجلد النمر من رأسه إلى أخمص قدميه حتى لا تزعجه الصراصير تزحف من حوله .

مشهد الإفراج يبقيه في السجن حيًّا، مشهد الإفراج يحييه ويقتله ألف مرة، واللحظات تكذبه لحظة بعد لحظة، والأيام وسلسلة المفاتيح ترن في القفل المرة بعد المرة تحبس أنفاسه كل مرة، والباب الحديد ينفرج ولا ينفرج عن المنادي بالإفراج ينادي باسمه، ومن هوة العدم ينتظر من جديد المنادي بالإفراج ينادي باسمه، ربما في اللحظة المقبلة، ربما غدًا، وعبد الله على يقين أن الأمر مزحة ثقيلة لن يلبث أن يبددها طلوع النهار، وملابسات عملية إلقاء القبض عليه تؤكد له هذا اليقين. أصيب الكل، في اعتقاده، ليلة القبض عليه بمس من الجنون تجسد في سبابة اتهام تبين وأخرى لا تبين، وامتد الجنون من البيت إلى أقسام الشرطة والكفور والدساكر والنجوع والصحافة والإذاعة وعنابر السجون .

وتوقف عبد الله عن تعداد الأماكن والأجهزة وهو يجلس على حشيته المطاط في عنبر السجن، خشية أن يصاب بمس الجنون الذي أصاب عائلته، وسوَّى ما بين أبيه المفروض أنه خرف، وابنه المفروض أنه عاقل، وامتد فيما يبدو إلى بقية سكان العنبر التسعة من السياسيين. وجودهم في حد

ذاته في السجن غريب، يتوقعهم الإنسان شبابًا وهم، فيما عدا شابًّا يكبر ابنته بسنوات قليلة، كهول، منهم من هو في سن أبيه. قال أبوه: «عائدون... إلى السجون عائدون » ، وها هم قد عادوا. ولكن أين موقع الشاب من كل هذا؟ وهل انقلبت الآية والتزم الشاب الحذر وجن الشيوخ؟ وأي زمن هذا الذي يجبر الشيوخ على المجازفة، والمجازفة بالكثير؟ موقع هذا الرجل النحيل، أخضر العينين، خمري اللون، في مقعد وثير، وفي يده كتاب يوشك أن يقلب صفحته التالية... وموقع هذا الشيخ الجليل وردي البشرة في البيت يلاعب أحفاده، وخلف المكتب الأنيق يتأتى أن يجلس هذا الرجل المهندم الذي يتحدى بأناقته القذارة والحشرات وطعامًا لا يصلح لآدميين، وفي المحكمة لا في السجن ينبغي أن يكون هذا المحامي شامخ القوام داكن السمرة أبيض الشعر. وجودهم في السجن غريب، وإن لم يعد هناك شيء غريب في هذا الزمن العجيب، والأغرب منه تقبلهم لهذا الوجود وكأنه من طبائع الأمور. تؤرقه ضحكاتهم وهم يتأهبون لإقامة طويلة في السجن، أسفر عنها تحليل للموقف السياسي لا يأخذ في الاعتبار حالته شديدة التفرد والخصوصية. يغلق أذنيه دونهم عامدًا، وإن استغلقت عليه معظم الوقت مصطلحاتهم. تصله كلماتهم أحيانًا تحول بين مشهد الإفراج والاكتمال .

وفي انتظار الإفراج جلس عبد الله في ركن قصي من العنبر اختاره بدقة تؤكد للمسؤولين اختلافه عن بقية المساجين من السياسيين، وخصوصية وضعه شديد التفرد، فالحكومة قد ارتكبت في حقه خطأ تشفع لها فيه نوبة الجنون التي اجتاحت البلد. وهي لن تلبث أن تكتشف خطأها وتصححه ويعود كل شيء إلى ما كان .

وليلة بعد ليلة يلملم عبد الله مشهد الإفراج من عدم، يبدل فيه ويجدد، يصل به إلى لحظة الانتصار المرة على بوابة السجن، وضابط المباحث وقد ظهر الحق وزهق الباطل يعتذر عن خطأ الحكومة. وسبابة الاتهام تنحسر عنه، وهو منتصر على ضابط المباحث وعلى غرفة العمليات وعلى هذا الأعلى والأوحد الذي يُنسب إليه قرار السجن وقرار الإفراج، وفي حالته شديدة التفرد قرار الخطأ والرجوع عن الخطأ، يقول في أريحية تجعل الدموع تطفر في عيني ضابط المباحث :

ـ عفوًا يا أخي، العبرة بالخواتيم .

المهم أن يعود كل شيء إلى ما كان وأن تُحسر عنه سبابة الاتهام، تبين ولا تبين، فلم تعد به قدرة على مزيد من الاحتمال من لحظة عاد إلى البيت من الجمعية الاستهلاكية وسبابة الاتهام لا تريم .

في مديرية أمن القاهرة أطلق الضابط كبير الرتبة سبابته أفقيًّا مدينًا له، وقرر أن غرفة العمليات لا تخطئ. وفي الطريق إلى سجن طرة تنهد ضابط الشرطة وهو يجلس إلى جانبه في المقعد الأمامي لعربة مكشوفة، وطلب اللطف من الله، واثنا عشر جنديًّا مدججون بالدروع والأسلحة يقومون على حراستهما. ومل مأمور السجن فيما يبدو كثرة الاستدعاء من منزله في أعلى السجن لاستقبال المزيد من المقبوض عليهم، فلم يستكمل ارتداء زيه الرسمي واستقبله بمنامته في الساعة الثالثة صباحًا، وهو يخفي قدميه العاريتين خلف المكتب مكتفيًا بالكاب على رأسه والقايش حول وسطه. وقال المأمور ليلتها إنه عبد المأمور وأشار بسبابته رأسيًّا إلى مسؤول أعلى وأوحد، وشاء السجان الذي قاده إلى العنبر ألا يتورط فأراح سبابته وقال :

ـ يا عم إحنا ناس غلابة بنجري على رزق العيال .

يتجه اهتمام ضابط المباحث المختص بالعنبر إلى السياسيين من السجناء دونه، يتلاعب بهم ويتلاعبون به، كلٌّ على طريقته. هذا الرجل الأسمر النحيل، أخضر العينين، في منتصف السبعينيات من عمره، التحف بالصمت المختنق باللعنات. ما إن تقع عيناه على ضابط المباحث حتى يرفع ساقًا على ساق، حتى وهو ممدد على حشيته. إن تكلم ـ وهو لا يتكلم مع ضابط المباحث وقلما يتكلم مع الآخرين ـ خرجت كلماته مذبوحة وأنبوبة الأوكسجين الطويلة تلقي بظلها الكئيب على وجهه الوسيم. أنبوبة الأوكسجين لا تفارقه بعد أن أصيب بذبحة قلبية في السجن، ولا ترَفُّعه الجريح. الرجل المهندم في أواخر الخمسينيات يدخل في سجال سياسي مع ضابط المباحث، يرقبه الشيخ الوردي البشرة في السبعين في هدوء، وطبقة من الدموع لا تريم تزيد عينيه التماعًا. ما أبرع الرجل المهندم في السجال! كلماته طلقات رصاص ملفوفة في طبقة من السكر، كما اللوز في ملبس الأفراح. تعلو الضحكات، والمهندم يسجل ضحكاته خشنة متحدية جارحة ومجروحة، وكل يودع ضحكته معاناة عمره، ويتدخل الشاب يكبر ابنته بسنوات كما الطاووس فاتح الشعر، أبيض البشرة، ممشوق القوام، يحول النقاش إلى وجهة أكثر عملية، ينتزع والآخرون كل يوم حقًّا جديدًا من الحقوق التي تكفل أوضاعًا أكثر آدمية، مهددين بالإضراب عن الطعام، أو بتسريب الأخبار إلى وكالات الأنباء، ليعرف من لا يعرف طبيعة السجون في عهد السادات. والمحامي أبيض الشعر في الخمسينيات من عمره، نافد الصبر، يبصق على الأرض في وجه السجن والسجان، ويرقب عبد الله وهو مبهور رغم أنفه بما يرى، ولم يعد يدري: هل يرضيه انصراف اهتمام ضابط المباحث عنه أو يغضبه؟

تلمس عبد الله لضابط المباحث الأعذار ووجد في انصراف الاهتمام عنه الدليل على براءته، فالضابط يحاول الإيقاع بالآخرين دونه. ولكن الأعذار وهت يومًا بعد يوم، وصِلته بالعالم الخارجي تنقطع فلا يعود يعرف إن كان أهله قد ماتوا أم هو الذي مات. دوار الجوع يلازمه، يُسقط الفاصل بين الواقع والحلم، ويسلمه في رفق إلى مشهد الإفراج، وضابط المباحث يسقط من عليائه معتذرًا عن خطأ الحكومة وخطئه، وهو يتعالى على ضابط المباحث والحكومة والصغائر، ويتظاهر بالعفو والغفران .

وفي هدأة الليل وفي سكينة الفجر يصوغ عبد الله مشهد الإفراج، ويعاود صياغته وهو يقبع في ركنه الذي كان نائيًا ولم يعد على مر الأيام... ينفتح باب العنبر على مصراعيه وينادي المنادي بالإفراج باسمه. ويترك هو خلفه كل شيء يخرج كما دخل، كما لو كان لم يدخل . وعند باب السجن يصافحه ضابط المباحث مودعًا في حرج واضح لا يخفى على أحد: «ارتكبنا في حقك خطأ فظيعًا يا أخي، لعن الله تشابه الأسماء، فلتغفر لنا هذه الهفوة ».

ويتأتى عليه في لحظة الوداع هذه أن يمارس قدرًا من السيطرة على الذات، حتى لا ينفجر لاعنًا «سنسفيل» ضباط المباحث والحكومة والمسؤول الأوحد والأعلى والدنيا بأكملها. ولن تكون السيطرة على الذات بالأمر الصعب على من تمرس العمر على ضبط اللسان، ولن يكتفي هو بإخفاء حقيقة مشاعره، بل سيذهب إلى أبعد من ذلك، سيبتسم ابتسامة تسامح عريضة ويقول

بأريحية تجعل الدموع تطفر في عيني ضابط المباحث: «عفوًا يا أخي، جل من لا يخطئ، العبرة بالخواتيم». وربما تفوق على نفسه وأضاف: «كلنا إخوة. ولا داعي للأسف ».

وتأتى على عبد الله، وهو يعاود صياغة مشهد الوداع كلما انهدم، أن يصم أذنيه عن الكلمات تصله من الجانب الآخر من العنبر، وأن يستبعد من خياله ما حدث في بيته ليلة إلقاء القبض عليه، هو يدرك أن كليهما يشكلان خطرًا يحول بين مشهد الإفراج والاكتمال .

(5)

طَرحت مشاكل الجوع نفسها، توجّد عبد الله غصبًا وبقية المسجونين، وكان دوار الجوع يلازمه الآن ومعدته ترفض طعامًا لا يصلح لآدميين، وسكان العنبر من السياسيين ينتزعون الحق في شراء ما يحتاجون إليه من كانتين السجن بنقودهم المودعة في الأمانات، وما من نقود له في الأمانات، ولم يخطر في باله، وهم يخططون لحياة جماعية ويوزعون ما اشتروا إلى حصص متساوية، أنهم يدرجونه في هذه الحياة الجماعية، ولكنهم دون أن يدري أدرجوه .

ولم يتقبل عبد الله هذا الإدراج بسهولة، عنى الإدراج الشعور بالحرج من قبول هبة من أغراب، وعنى، وهذا هو الأهم، التخطيط للحياة في السجن والتسليم بالتالي بأن الإفراج لن يأتي غدًا .

طال الحوار بينه وبين الشاب يكبر ابنته بسنوات، وتعقد، ترى هل استمع إليه الآخرون؟ كان الحوار يدور هامسًا بينه وبين الشاب طوال الوقت، إلا بالطبع لحظة انتفض هو غاضبًا وتحدث عن الحق والعدل وحقوق المواطنة. ترى ماذا كان رد فعلهم لكلام عرف هو ذاته مقدمًا أنه هراء؟ تجاوز الشاب هذا الهراء وبدا مهمومًا ومهتمًّا بألا يموت هو جوعًا، ولكن ماذا عن البقية؟ هل أسدل الرجل النحيل جفنيه على عينيه الخضراوين يستبعده من المشهد متألمًا، وأشاح الرجل المهندم بوجهه حتى لا يرى أحد ابتسامته، وأطرق الشيخ الوردي البشرة رأسه يائسًا منه ومن الدنيا، وتأفف المحامي نافد الصبر لا يعرف اللف ولا الدوران وهو يستمع إليه يتكلم عن الحق والعدل وحقوق المواطنة؟

لم يلحظ هو أحدًا لحظتها ولا رأى شيئًا وهو منهمك في الدفاع عن حقه في الإفراج، والشاب المهموم يسايره على قدر عقله وكأنما هو طفل. ترى متى وكيف اختاروه مندوبًا عنهم في مهمة يعرف ويعرفون أنها حساسة؟ هل عقدوا جلسة وحسموا الجدل الطويل بالتصويت كعادتهم؟ ما كان أحراه أن يقبل من البداية، وما من اختيار آخر، ويوفر على نفسه سلوك الغريق الذي يتشبث بقشة .

طال الحوار بينه وبين الشاب الذي جاءه بحصة الأسبوع والأدوات الضرورية للمعيشة، وشيء ما في منطق الشاب يذكِّره بمنطق أبيه قبل أن يصاب بالخرف، واستحال الحوار والشاب يقفل دونه أبواب الرحمة، ويشككه في أمل الإفراج القريب، وانفرج انفراجًا جزئيًّا والشاب يستخدم لغة يفهمها، ويستكتبه إيصالًا بثمن حصة الأسبوع كدين يستحق السداد، ولو لم يستوقف هو الشاب لانتهى الأمر عند هذا الحد ولكنه استوقفه .

جلس عبد الله مستندًا إلى الحائط والشاب على الطرف الآخر من الحشية ممددًا ساقيه على البلاط، وبينهما علبة من الكرتون تحوي طبقًا وكوبًا للماء وملعقة من البلاستيك وحصة الأسبوع؛ صابونًا للوجه ومسحوقًا لغسيل الملابس، لفة ورق لدورة المياه، شايًا وسكرًا وجبنًا أبيض وحلاوة طحينية وبعض العلب المحفوظة من السردين و«البلوبيف ».

ـ لا تشغل بالك، إدارة السجن منعت إيداع نقود في الأمانات بعد الليلة الأولى، ولا بد أن أهلك حاولوا إيداع نقود باسمك بدل المرة مرات .

وشعر هو بالامتنان والشاب يصل ما انقطع بينه وبين أهله، ويمده بمعلومات استعصت عليه عن منع الزيارة، ووجبات الطعام من الخارج وتبادل الرسائل بين المتحفَّظ عليهم والأهالي. ولكن هذا الشعور بالامتنان لم يسقط بحال تحفظاته على قبول هبة من الأغراب، ولا على إدراج حالته الاستثنائية في بقية الحالات .

ـ أنا الآخر لا نقود لي في الأمانات، ونحن نعيش هنا عيشة جماعية .

قال الشاب، ورد هو حريصًا على التفريق بين حالته وحالتهم :

ـ أنتم .

ـ السجن هو الذي جعلنا نحن.. وأنت سجين .

جاءت إجابة الشاب يكبر ابنته بسنوات، سريعة، وكأنما أعدها مسبقًا، وأغمض هو عينيه رافضًا لهذه «النحن» التي لا هو راغب فيها ولا قادر عليها، وقال :

ـ سجين إلى حين .

وتساءل الشاب في هدوء :

ـ هل تبقى على لحم بطنك من سبتمبر إلى أبريل على أقل تقدير؟

وانتفض هو غاضبًا، مُزيحًا بلا وعي الكرتونة التي تحوي مستلزمات المعيشة في السجن :

ـ أي أبريل؟ أنت لا تفهم الموقف، قبض عليَّ من باب الخطأ، الحكومة أخطأت في حقي .

ـ وفي حق الجميع .

وانتوى هو ألا يُستدرج بحال إلى مناقشة عن عدل الحكومة ومداه، وقال يركز على موضوعه شديد الخصوصية والتفرد :

ـ سيفرَج عني قريبًا، بمجرد أن تكتشف الحكومة خطأها .

ـ ولصالح مَن تقدم الحكومة الدليل على أنها أخطأت؟

قال الشاب وارتد هو إلى الخلف محاصَرًا، والتساؤل مقنع يواتيه، وتبين ألا مهرب من مناقشة موضوع العدل فقال :

ـ لصالح الحق والعدل .

وأدرك بلاهة ما قال بمجرد أن قاله، وأضاف مستدركًا :

ـ لصالحي أنا .

ـ ومن أنت؟

تساءل الشاب بلا استخفاف، مجرد سؤال تقريري يسد عليه باب الرحمة، يذكره، وهو لم ينسَ، أن الحكومة طلبته اسمًا دون أن تعرف له صورة ولا وصفًا ولا سنًّا، وأخطأت فيه أباه الهرم وابنه الشاب على السواء، وقال بصوت هامس لا يكاد يبين :

ـ أنا مواطن .

وتوقع أن يبتسم الشاب، وحين لم يفعل، ضحك هو ضحكة قصيرة ليشاركه الشاب الضحك ولكنه لم يفعل، بدا مهمومًا وهو يميل عليه يقول :

ـ وماذا لو اعتبرنا هذه الأشياء دَينًا قابلًا للسداد؟ ويمكن أن تكتب إيصالًا بذلك .

وبدت له لغة الشاب مفهومة للمرة الأولى، ومال إلى قبول الاقتراح، وقد أزال عنه بعض الحرج وإن أبقى على بعض من تحفظه :

ـ ومتى أسدد الدين؟

وصمت الشاب قليلًا، ثم قال في بطء وكأنما ينتقي كلماته :

ـ تستطيع دائمًا السداد.. وأنت خارج السجن .

وما كاد يوقع إيصالًا بأربعة جنيهات وخمسة وعشرين قرشًا حتى تذكر قول ضابط المباحث :

ـ القلم عندي أخطر من البندقية .

وتساءل هامسًا في تآمر :

ـ أليس القلم من المحظورات؟

وابتسم الشاب :

ـ المحظور الوحيد في السجن هو أن نستسلم لما يريدون بنا .

ولو لم يستوقف هو الشاب لانتهى الأمر عند هذا الحد، ولكنه استوقفه يسأل :

ـ هل دخلت السجن بدل المرة مرات؟

ـ وكيف عرفت؟

ولم يشأ هو أن يقر أن الشاب يذكره بأبيه، وما كاد يرتخي في جلسته حتى قال الشاب :

ـ أتريد أن تعرف خلاصة تجربتي؟ الإفراج لا يتأتى في السجن إلا لمن لا ينتظر الإفراج .

ولم يتوجس هو شرًّا حتى هذه اللحظة، وأدرج عبارة الشاب في إطار العبارات الغريبة التي ترددها ابنته أحيانًا، ولكن الشاب لم يلبث أن عاجله بالضربة القاضية حين قال :

ـ يُجن الإنسان في السجن إذا ما انتظر الإفراج غدًا .

وانسحب مرتبكًا ومهرولًا .

*

في محاولة أخيرة للإبقاء على أمل الإفراج الذي تبدد أو كاد، طالب عبد الله يومها بالانتقال إلى سجن انفرادي، مضيفًا إلى سلسلة الحماقات حماقة جديدة يحمد الله أنها كانت الأخيرة، وقد نال ما يستحق عنها ويزيد .

سأل ضابط المباحث المختص يومها كما يسأله كل يوم عن آخر التطورات، وأجاب الضابط في استخفاف كما يجيب كل يوم :

ـ الحالة قيد البحث .

ولم يتراجع لحظتها عن مطلبه بالانتقال إلى سجن انفرادي إلا حين رحب به ضابط المباحث في زنزانة التأديب، وما في السجن مكان خالٍ سواها .

*

توهم عبد الله، وهو يستقبل أباه للإقامة في بيته، أن الزمن قد دار دورته ليثبت أن طريقه هو، دون طريق أبيه، هو طريق السلامة، وما من طريق للسلامة .

حسب أنه آمن من المزالق وما أحد بآمن. الإدانة التي تدمغه هنا دمغته هناك في البيت والسجن على السواء، فهل يأتي الوقت الذي يطالب فيه بالتحقيق في سجله؟! من لحظة وقعت زجاجة الزيت وانكسرت، وسبابة الاتهام تطارده، من لحظة قلب إناء الماء وصاح في أهل بيته: «مظلوم يا عالم»، والماء، دافئًا، ينسكب من الإناء يتعكر بالزيت وطين البلاط يتكوم آسنًا في الأركان، والسكون المتوتر بالإدانة يلجم الكل، يُخرس العيال، يسقط سبابة الأم تستمطر اللعنات على الظالم، يقفز بابنه الراكع تحت قدميه واقفًا في احتجاج، يميل بابنته نحوه تقول: «فلتكن الشهادة اختيارًا ».

شاءت البنت أن تدثره في سجنه، وتمنَّع هو متدثرًا بوهم الإفراج، قالت: «اطمئن سنكون بخير»، وفتح فمه ليقول إنه عائد لتوه، وحمد الله أنه لم يقلها، ولو صار التحقيق مطلبه بدلًا من الإفراج لتمخض خرف أبيه عن نبوءة نبي، ولاكتسب الغضب الصبياني لابنه المعنى ولانطوى كلام البنت الغريب على لب الحقيقة. وكان التحقيق قد أصبح، دون أن يدري، مطلبه .

(6)

لكلٍّ شريطه المسجل بالصوت والصورة أحيانًا، وتُعزّي عبد الله حقيقة أن «مَن أنت؟» يبقى بلا شريط .

جاءت الرسالة مهربة من عنبر من عنابر السجن على ظهر ورقة للف السجائر. اكتشف أوائل من خرجوا للتحقيق أن المخابرات والمباحث العامة دست، ومن زمن طويل، أجهزة الاستماع، وأحيانًا أجهزة الاستماع والتصوير، في البيوت والمكاتب والسيارات الخاصة وأجهزة التلفون لمعظم المتهمين، وأن لكلٍّ شريطه المسجل بالصوت، والصورة أحيانًا. أعلن الخبر المحامي أبيض الشعر بصوته الجهوري «ليعلم الجميع»، وأحرق الرسالة بعود من الثقاب، وألقى الرماد في المرحاض وصاح الشاب يكبر ابنته بسنوات :

ـ أولاد الكلب .

وعمت العنبر موجة من الصمت الثقيل وكل يستوعب الصدمة، ويبدأ في استعراض شريطه، ويبقى «مَن أنت؟» بلا شريط... والولد ينتفض واقفًا وسط الصالة، يرتجف مبتلًّا كالفرخة المذبوحة ...

عدَّد أبوه ليلتها تهمًا لا حصر لها ولا عد، وهو يتساءل أيتها على وجه التحديد تهمته. وشر البلية ما يضحك. ولو كان هو في وعيه ليلتها، لأكد لأبيه أنه انشغل بالوقوف في طابور الجمعية، بمتابعة تسعيرة الخضار في الجريدة اليومية، رغم يقينه ألا تسعيرة للخضار في السوق، بعَداد

النور يقفز كالرمح، وعداد المياه، بإحكام المزلاج على باب الشقة الخارجي، بشقوق في سقف البيت تتسع مع الأيام، فلم يفعل شيئًا على الإطلاق. وما من شريط لمن لا يفعل شيئًا ...

ـ خط الدفاع الأول هو الإنكار على الأقل في هذه المرحلة المبدئية من التحقيق .

ـ هكذا أفتى المحامون داخل السجن وخارجه .

قال المحامي بنفس الصوت الجهوري، ومال على النحيل أخضر العينين وأضاف هامسًا :

ـ يخجلني الإنكار لحد الموت، كيف يتأتى للإنسان أن يتنكر لأقواله وأفعاله؟

وأجاب النحيل :

ـ القضية أخلاقية فعلًا .

واستقام المحامي والرجل المهندم يوجه إليه السؤال :

ـ حتى في حالة المواجهة بالشريط؟

واستعاد صوت المحامي جهوريته وهو يجيب :

ـ حتى في حالة المواجهة، المهم ألا تتضارب أقوالنا في هذه المرحلة الأولى من التحقيق. من شأن التضارب أن يمكنهم من خلق قضية حيث لا قضية، من اختلاق تهم حيث لا تهم محددة حتى الآن .

واستوقفت عبد الله الإجابة كما لم تستوقف أحدًا من المتحلقين حول المحامي الأبيض الشعر. هذا هو الفجر بعينه: كيف يستطيع الإنسان أن ينكر صوته؟ وهل يصدقه المحقق إن فعل؟ وما جدوى الإنكار إن لم يصدقه؟

وحمد الله من جديد ألا شريط له يستوجب المساءلة ولا المواجهة، ودهمه المشهد في البيت ليلة إلقاء القبض عليه مغيبًا للنقاش الدائر حول جواز الإنكار من عدمه، وانحبس وأهل بيته في المشهد محاولًا، كما لم يحاول من قبل، فهم ما استغلق عليه في تلك الليلة .

ولا يعرف هو حتى اللحظة ما أراده أبوه على وجه التحديد. كان الرجل يرتجف وهو يسائله أي تهمة هي تهمته. بم ارتجف؟ بالرغبة في أن يكون ابنه بريئًا أم جانيًا؟ وهل خرف الشيخوخة هو الذي جعل الأب يرتجف أملًا في أن يكون ابنه جانيًا، أم ومضة عقل بددت للحظة حالة الخرف؟ ولتكن الشهادة اختيارًا على حد قول ابنته؟ وارتعد وهذا السؤال الأخير يواتيه، وأسند رأسه المحموم إلى حائط السجن يستمد البرودة من رطوبته، وتساءل من أي أعماق نبع هذا السؤال الغريب: هل تغير إلى الحد الذي تختل فيه نسب الأشياء، فلا يعود يفرق بين الصالح والطالح؟

ونبهه صوت داخلي إلى خطورة التفكير، وأدرك أن مصرعه يكمن في الرغبة في الفهم والمعرفة، ولو لم يستسلم للرغبة في حل فوازير رئيس الجمهورية لما فقد ليلتها السيطرة على وابور يقول: «توت توت»، وينسب الإخلال بالوحدة الوطنية إلى كل الضمائر. وانتوى أن يكف عن التفكير فيما حدث في البيت ليلة إلقاء القبض عليه، ولكنه كان قد قطع شوطًا طويلًا في طريق اللاعودة، وتحتم عليه أن يفهم ما استغلق عليه فهمه من سلوك الولد تلك الليلة .

ارتجف الولد مثلما ارتجف جده برغبة ما، فبأي رغبة ارتجف؟ وهل غضب الولد لأنه قلب الماء في وجهه، أم غضب لأنه صاح في أهل بيته: «مظلوم يا عالم»؟

هل استكثر عليه الولد أن يجأر بالشكوى في ظل وضع لا تغير منه الشكوى ولا تبدل؟ يستغلق عليه سلوكه هو شخصيًّا بمدى ما يستغلق عليه سلوك الولد، ويبدو من الأساسي الآن أن يفهم لِمَ فقد صوابه أصلًا وقلب الماء في وجه الولد. لماذا لم يتقبل سلوك الولد رغم شذوذه وخروجه عن المألوف، كمساندة من ابن لأبيه في لحظة محنة؟ ولِمَ غضب هذا الغضب الجنوني والولد يعدد في اعتداد أجوف صفات المتحفَّظ عليهم؟

للحظة استكان هو للرجفة في أصابع الولد، وود أن يجاريها برجفة مماثلة تُسرُّ للولد بحكاوي العمر، التي دوت حكاية بعد حكاية وما من أذن تستمع، ولم تسعفه ساقاه، وود لو ينهال عليهما بقبضتيه يُجري فيهما الحياة. وشلت يديه نبرة الاعتداد تخنق أنفاس الولد، وهو لم يزل يعدد صفات المتحفَّظ عليهم. ولم يبرأ من الشلل الطارئ الذي أصاب ساقيه إلا لحظة أدرك، ومؤخرًا، أن الولد يدرجه كما تدرجه الحكومة في قائمة المتهمين. وبلغ الشعور بالظلم منتهاه فقلب الماء في وجه الولد وصاح: «مظلوم يا عالم ».

تساءل عبد الله: أكان الولد يرتجف خوفًا عليه أم رغبة في أن يكون قد فعل ما يدرجه في قائمة المتهمين؟ وأخافه السؤال فأغمض عينيه، ومن الأغوار طفت إلى وعيه نظرة الرجاء الخائب في عيني الولد وهو يقف برهة في الصالة، نظرة تُدينه لأنه لم يفعل، تُسقطه من عرش الأبوة وتُغلق دونه الباب .

وهبَّ عبد الله واقفًا تحت وطأة الإدانة، والتصق بحائط السجن محتميًا، وتمتم بصوت يكاد أن يكون مسموعًا لرفاق العنبر: «وأنتم أيضًا؟ ألا يكفيني ما أنا فيه؟»، مخاطبًا ابنه وأباه .

وتأتى على عبد الله، وإدانة ابنه تطارده، أن يفعل شيئًا ما يستوعب غضبته، ولم يكن الدور دوره في مسح البلاط وفقًا للجدول الذي يوزع الاختصاصات على سكان العنبر، ولا في تنقية العدس والأرز من الحصى، ولا في حرق الجرائد المهربة وإغراق الرماد المتبقي في فتحة الدورة بدلو من الماء بعد دلو، قبل أن يفتح السجان باب العنبر ويضبط الواقعة، ويتم استدعاء مأمور السجن، ويُفتح المحضر، وتبدأ عملية التفتيش وتنتهي دون أن تتمخض عن المنشور الذي لا يكف ضابط المباحث يبحث عنه، والمنشور بحروف الدم انكتب وهم منشغلون بالتفتيش في عقول الناس وضمائرهم. وقيل إن الظالم سقط وما سقط، ولكلٍّ شريطه المسجل عندهم. والناس باتت يأكل

بعضها بعضًا، والإنسان لا يعرف من أين تواتيه الإدانة، والأخ لم يعد يعرف أخاه ولا الابن أباه. وتمتم عبد الله غاضبًا من جديد: «وأنتم أيضًا؟ ».

وكان قد تعلم أن اللافعل في السجن أخطر من أسلحة السلطة مجتمعة، وأن الفعل اليدوي وحده الكفيل باستيعاب غضبه، فقرر أن يتطوع بمسح البلاط. تساءل على مَن الدور اليوم ليعفيه من المهمة، وارتاح وهو يلمح الشاب يكبر ابنته بسنوات يجمع أدوات التنظيف، يملأ الجردل. الرجل حساس ولماح وسيدرك ولا شك مدى حاجته إلى عمل يستوعب غضبته المدمرة، ثم إن لديه الأكثر والأهم ليفعله وهو منشغل بالاتصال ببقية العنابر، وبالتنبؤ بحملات التفتيش والتأكد من التزام كل فرد بإجراءات الأمن، وإخفاء الأقلام والأوراق والراديو الصغير في حجم الكف في باطن الأرض قبل أن تبدأ حملة التفتيش. ولا شك أن الرجل سينزل له راضيًا عن دوره في مسح البلاط، في هذا اليوم الأسود الذي يستوجب التفكير فيما جد اكتشافه من وجود شرائط تسجيل .

وكاد عبد الله يقلب الجردل في وجه الشاب يكبر ابنته بسنوات حين تمنَّع وأبى أن ينزل عن دوره في مسح البلاط. وعاد إلى مكانه يلهث وهو يدرك أنه يقف على حافة فقد الصواب والإدانة تواتيه من كل ناحية.. ليس حبًّا في مسح البلاط تمنَّع الرجل ولكن خوفًا أن تعلق به شبهة استغلال. في حساسية غريبة تعامل معه الشاب، وحق له أن يفعل فها هو من بداية السجن يعيش عالة على الآخرين .

ولا يعرف عبد الله هل ارتطم يومها صدفة بالشاب يمسح البلاط، أم تعمد ومشهد الشجار بينه وبين ابنه يتشكل، وهو يلقي بملابسه القذرة في الإناء البلاستيك ويجلس ليغسلها. والماء يتطاير من الإناء وهو يلعن «سنسفيل» أبي الولد وجد الولد في دوائر تتسع، وكاد الجلباب يتمزق في قبضته وهو يعدد مآثره على ابنه وأبيه اللذين لولاه لماتا جوعًا. وأفاق على زر من أزرار جلبابه يتهشم في يده وهو يميل في الخيال يضرب الولد الذي لا يستحي .

وتساءل في دهشة وقد أفاق: أي عنف هذا ينطوي عليه جسده؟ وأدرك كم هو أخرس وعاجز هذا العنف. ورث العنف عن أبيه ولم يرث الحلم، فبقي عنفه أخرس وخمد غضبه وهو يعتصر الجلباب لا يبقي فيه قطرة ماء. وتساءل في أسى: ماذا أورث هو الأولاد؟

وتوصل عبد الله وهو ينشر جلبابه على حبل الغسيل إلى حقيقة أن المشهد الذي بناه لا يليق ببالغ ولا عاقل واستعاد توازنه وهو ينتوي إعادة بناء المشهد، وفي طريق العودة إلى العنبر اعتذر للشاب يكبر ابنته بسنوات قليلة، وسحبه الشاب برفق إلى جانب وقال :

ـ من المتوقع أن يستدعوك للتحقيق قريبًا .

ولم يفاجئه بحال الخبر، كان الآن على يقين أن التحقيق معه قد بدأ .

وأضاف الشاب :

ـ من المستبعد أن يكون لك شريط، وعلى كلٍّ فخط الدفاع الأول هو الإنكار أيًّا كانت التهمة .

ولدهشته وجد نفسه يقول في هدوء وفي يقين قبل أن ينسحب إلى مكانه :

ـ لكلٍّ شريطه .

وقَرَّ في اعتقاد عبد الله أن الحكومة تربصت له دائمًا بتهمة ما، طاردته أينما حل، وإلا فيم استبق الأحداث وتوقع المصائب، وإلا فيم التزم دون غيره بالأوامر والنواهي؟

ـ ما من واحد مثلي إلا ويرتكب مخالفة لا يعرف ما هي .

قال له الساعي العجوز في المصلحة وهو يرصد ردَّ فعله لحكاية حكاها لتوه. استوقف الساعي رجل في الشارع وضربه «قلمًا» على خده، وبدلًا من أن يثور الساعي ويرد للرجل «القلم قلمين»، وجد نفسه يسأل الضارب :

ـ ماذا فعلتُ؟ وأين أخطأتُ؟

ورصد الساعي نظرة الاستنكار التي تبدت في عيني عبد الله بعد أن سمع الحكاية ولم يفته التعليق عليها، توقف عند الباب قبل أن ينسحب وقال وهو يحمل صينية القهوة :

ـ مثلي دائمًا في الخطأ، ولو كنتَ مكاني لفعلتَ ما فعلتُ أنا .

وطرق الباب خلفه .

وتنهد عبد الله بصوت سمعه رفاق العنبر وهو يصدق على كلام الساعي العجوز، يفعلها هو بدل المرة مرات وهو يأتمر بالأوامر التي تصدر له، ظالمة كانت هذه الأوامر أو عادلة. يفعلها وهو يتلقى صامتًا تعنيف رؤسائه وزملائه على السواء، وهو يزاح من الطريق، وهو يراجع الحسابات في المصلحة بدل المرة عشرات، حتى لا يدس عليه أحد رقمًا، ويحتفظ بنسخة من الكربون ليبرزها يوم تقام عليه الدعوى. يفعلها وهو يقوم بعمل أفراد الإدارة مجتمعين حتى لا توجه إليه تهمة الإخلال بواجبات الوظيفة، وهو يهب من النوم يُحكم رتاج البيت الذي سبق وأحكمه... يخاف ينهار سقف البيت، يخاف يفض خطابًا يحمل قرار الطرد من الشقة، يخاف البواب يدير شقق المساكن الشعبية بيوتًا للدعارة ولعب القمار... يخاف شرطة التموين تلقي القبض عليه وهو يشيح بوجهه عن عمليات التهريب في الجمعية الاستهلاكية، يخاف بائع الفاكهة على ناصية الشارع لم يعد يتعامل معه، ويحمد الله أن أحدًا لا يعرفه في السوبرماركت والبوتيك، يخاف عسكري المرور ورجلًا يستوقفه في الشارع يصفعه دون سابق معرفة أو احتكاك، يخاف أباه يقول كلما رأى وجهه: «ألم أقل لك؟ ».

يخاف يصرخ: «مظلوم يا عالم»، والماء يتعكر بطين البلاط، يتكوم آسنًا في الأركان، يخاف الولد يغلق دونه الباب، والإفراج لا يتأتى إلا لمن لا ينتظر الإفراج، ولم يتبقَّ لنا سوى احترام الذات

فلنتمسك به ما أمكن .

(7)

تساءل عبد الله وعيناه معلقتان بسقف عنبر السجن: والآن ما هي التهمة التي توجهها لي الحكومة؟ وما كاد السؤال يتبلور على لسانه حتى شعر بارتياح عميق، ربما لأن الأسوأ أو ما توهمه الأسوأ قد وقع، وربما لأنه عرف أخيرًا أين يقف بعد أن طال تراوحه بين الأمل في الإفراج واليأس من الإفراج .

ومن السؤال الجديد أدرك الرجل أن جانبًا منه كذبه وهو يكرر للمرة الألف، كما الأسطوانة المشروخة، دعوى خطأ الحكومة، وهو يكتب العريضة العشرين يشرح لأولي الأمر طبيعة الخطأ، وما من خطأ. عرف أنه مدان وضابط الأمن عظيم الرتبة يقول: «غرفة العمليات لا تخطئ»، وهو يتوقف بمشهد الإفراج عند باب السجن لا يتعداه، يستبعد ما حدث في البيت ليلة إلقاء القبض عليه كضرب من الجنون. عرف أنه مدان وهو يطالب بالسجن الانفرادي تشبثًا بوهم العمر. عرف أن الإفراج كان دائمًا مطلبه حتى قبل أن يدخل السجن .

وشعر الرجل بقوة لا عهد له بها وبصفاء ذهن جديد عليه. وقرر أن يبدأ بتحديد تهمته بخط الدفاع الذي يحتاج، ولا شك، إلى مناقشة مع زملاء العنبر. وأدرك الرجل أن تحديد التهمة ليس بالمهمة السهلة، وهو لا يعرف أيًّا من أفعال الإنسان تخضع لعقوبة الحكومة وأيها لا تخضع، والأفعال تفلت من قانون لتقع في قانون آخر.. و«مِثلي دائمًا على خطأ» كما قال الساعي العجوز. وهو لم يهن دولة صديقة، ولا تخابر مع دولة أجنبية. سأل الرجلَ المهندمَ، وقد ترددت تهمة التخابر منسوبة إلى عدد كبير من المتهمين داخل العنبر وخارجه :

ـ ما معنى «التخابر»؟

وأجاب الرجل المهندم :

ـ التعامل .

ولم يزدَد هو علمًا، وأضاف إلى قاموس الكلمات المستغلقة عليه كلمة «التعامل» جنبًا إلى جنب مع كلمة «التخابر». حسب أن أباه قد أتى ليلتها على كافة القوانين والتهم. واكتشف في السجن أن أباه لم يعاصر قانون العيب .

وعن فحوى قانون العيب سأل المحاميَ أبيضَ الشعر، وأجاب بما يعني أن الاستهجان جريمة والاستحسان أيضًا، وأضاف، محاولًا إنقاذه من حيرته :

ـ المهم هو الإطار، وأنت بخير طالما استهجنت ما تستهجنه الحكومة، واستحسنت ما تستحسنه .

وتنهد الرجل متعجبًا والإنسان يولد مدانًا بتهمة الاستحسان مرة وتهمة الاستهجان أخرى، فما من إنسان يدب على وجه الأرض لا يستحسن ولا يستهجن. وتنبه إلى أن مهمته هي تحديد التهمة الموجهة إليه، لا تأمُّل وضعية الإنسان ومدى العدل في هذه الوضعية. المهم هو الإطار كما قال المحامي أبيض الشعر والمصيبة حقًّا أنه لا يعرف هذا الإطار نتيجة لتحريمه السياسة على نفسه وعلى أهل بيته. وجد من اللجاجة أن يسأل أبيضَ الشعر عما تستهجنه الحكومة وتستحسنه، ومن غير المفيد أيضًا، فعلم ذلك يبقى عند ربي، وما من مخلوق يمكن أن يحيط بكل ما تستهجنه الحكومة وتستحسنه ولا أن يتنبأ بتقلبات مزاجها في هذا المضمار الوعر. وود لو تلقى إجابة على السؤال الذي أثاره أبوه عن من هم أعداء الدولة الآن والأصدقاء، وخاصة أن خريطة الأعداء والأصدقاء لا تكف تتغير كل يوم ولا يملك متابعتها رجل يتلطع في طابور الجمعية ومحطة الأتوبيس بالساعات .

واستعرض الرجل شريطه في صفاء ذهن جديد عليه، وتوقف عند اليومين السابقين على سجنه، حيث لم يجد فيما سبقهما ما يستحق التوقف. مؤسف أن تطلع الحكومة على ما حدث في بيته ومرعب أيضًا، ولكن لنضع الأسف جانبًا والرعب، فالمصيبة قد حلت والشريط قد سجل، ولا يتأتى تغيير الشريط، والرعب لن يزيد الوضع إلا تعقيدًا. عاش عمره يهرب ولا مجال للهرب، يُحكم المزلاج على باب بيته ولا باب للبيت، يخاف ينهار السقف والسقف منهار، يتحاشى المصائب وهو غارق فيها ويتأتى الآن أن يواجه، أن يلتف على التهمة وأن يخرج بجلده سالمًا. واستعرض الرجل المشهد ليلة إلقاء القبض عليه طويلًا، مقلبًا أرجاء المشهد، وخلص إلى حقيقة أنه لم يكن ليلتها في حالة تمكنه من الاستهجان والاستحسان. الكل استهجن واستحسن عداه. حتى زوجته لم تكف تستهجن وهي تستمطر اللعنات على الظالم. وتحير في التوصيف القانوني لحالة عدم الاستحسان والاستهجان هذه، خاصة وأن المشهد انطوى على الكثير مما تستهجنه الحكومة... وواتته صرخته في آخر المشهد: «مظلوم يا عالم»، تعادل الصرخة التي أراد أن يطلقها استنكارًا لقول أبيه: «سمموا الآبار وأهلكوا الزرع» ولم تخرج من فمه، وتعادل ـ وهذا هو الأهم ـ التهم التي كالها أبوه للحكومة ومن شأنها أن توقع الإنسان في ألف داهية .

وسرت الرجفة إلى جسد عبد الله وذاكرته تسعفه بالتهم التي عددها أبوه واستعصت من قبل على ذاكرته.. أراد الأب أن يعرف إن كان ابنه قد لغم بالديناميت قطارًا محملًا بالجنود البريطانيين أم عطل مسيرة السلام في الشرق الأوسط، وإن كان قد أحرق سيارات الجنود الإنجليز في ميدان الإسماعيلية أو العلم الإسرائيلي في نقابة المحامين، وأراد الأب أن يعرف على وجه التحديد إن كان هو قد تآمر لقلب نظام الحكم أو اكتفى بالتحريض على كراهيته بتوزيع منشورات معادية، وإن كان قد تخابر مع الولايات المتحدة أم مع الاتحاد السوفيتي ودول الرفض والتصدي .

وأبطل هو ليلتها كل التهم التي فهمها بصرخته: «مظلوم يا عالم». جاءت خير ختام للمشهد رغم أنف الولد، وجد الولد. وعلى كلٍّ فما من محقق في وعيه يمكن أن يأخذ أباه مأخذ الجد، وهو لا يكف يخلط «طوخ في ملوخ» والأمريكان بالسوفييت بالبريطانيين، وقلب نظام الحكم بإهانة رئيس الجمهورية .

تنهد الرجل ارتياحًا وهو ينتقل إلى المشهد ليلة خطاب رئيس الجمهورية. كان موقفه موقف استهجان على طول الخط هذه الليلة، واستهجان في الإطار المطلوب وفقًا للمواصفات الحكومية، ولو كان مندوبًا للحكومة في البيت في تلك الليلة لما تصرف خيرًا مما تصرف. طالب بقلب محطة التلفزيون. هل المطلوب الابتعاد أو الاقتراب من السياسة في هذا الإطار؟ وأوقف، أو على أقل تقدير حاول إيقاف طابور «توت توت» وتصريف الضمائر الذي ينسب تهمة الإخلال بالوحدة الوطنية للبشر أجمعين. هل يمكن أن تكون تهمة الإخلال بالوحدة الوطنية تهمة دون أن يدري؟ ولكن على أي أساس وأين الدليل؟ صرخات الاستهجان التي أطلقها الصرخة بعد الصرخة تفلق الحجر والشريط، وتخرق عين العدو والصديق، فكيف يغفل المحقق عن هذه الصرخات؟ صحيح أنه لم يستحسن كلام رئيس الجمهورية، ولو عرف بحكاية التسجيل لفعل، لكن الصحيح أيضًا أنه استهجن كل من استهجن كلام رئيس الجمهورية .

وتساءل عبد الله أين يدرج محاولته لحل فوازير رئيس الجمهورية بالاستعانة بابنه وابنته؟ هل يحتمل أن يعاقَب على هذا الفعل، وتحت أي بند من البنود يندرج؟ ولم يلبث أن استبعد الاحتمال تمامًا. إذ لم يكن من المعقول ولا المقبول أن يرفض الاشتراك في لعبة يطالبه رئيس الجمهورية شخصيًّا بالاشتراك فيها وهو يتحدث عن «لويس السادس عشر الذي يريد أن يرجع بالتاريخ إلى الوراء»، وعن صديق رؤساء تحرير الصحف ورؤساء الجمهورية، والرجل الذي خدعه تسعة وستين عامًا واكتشف حقيقته في السنة السبعين. كان من الطبيعي، وقد طرح رئيس الجمهورية هذه الفوازير، أن يسأل هو البنت والولد وقد استعصى عليه حلها، وأن يتلقى الجواب. وإلا فيم زودتهم الإذاعة ومن بعدها التلفزيون بالفوازير كل رمضان؟ وفيم دربتهم على حل الفوازير كل رمضان؟ الصحيح أن رفض الاشتراك في حل الفوازير يعتبر إهانة لرئيس الجمهورية، وخاصة بعد هذا التدريب الطويل على حل الفوازير الذي امتد ما امتدت الحياة .

وخفق قلب الرجل بشدة، وهو على أعتاب الوصول إلى تحديد تهمته، سمع نفسه يصرخ المرة بعد المرة مطالبًا بقلب محطة التلفزيون، ولم يكن بحاجة إلى أن يسأل إن كانت مطالبته بقلب محطة التلفزيون قد جاءت قبل أو بعد ظهور رئيس الجمهورية على الشاشة. صرخ وصورة الرجل تطالعه وقد انقلبت سحنته وانسحبت رقبته إلى الخلف وجحظت عيناه إلى الأمام تطق شرارًا .

وهدأ عبد الله قليلًا بعد أن أفتى كافة المحامين من المساجين داخل العنبر وخارجه بأن القوانين، على كثرتها، لا تتضمن مادة تعاقب الإنسان على قلب محطة التلفزيون حتى إن جاء هذا القلب في وجه رئيس الجمهورية إلا إذا تعسف المحقق وأدرج المطالبة بقلب المحطة في بند إهانة رئيس الجمهورية .

وظل عبد الله يدعو الله كل ليلة أن يرزقه بمحقق غير متعسف إلى أن عاد الرجل المهندم من التحقيق بحكاية جعلت التنبؤ بما يحويه الشريط وما لا يحويه أمرًا مستحيلًا .

(8)

ـ هل يعقل أن أطالب بقلب نظام الحكم؟

وأجاب الشاب يكبر ابنته بسنوات تساؤل عبد الله قائلًا :

ـ لا يعقل .

ورصد هو نبرة الإدانة التي انطوت عليها إجابة الشاب، وتجاوزها، تأتى عليه على ضوء ما استجد أن يواجه احتمالًا يعز على التصور :

ـ هل استمع إلى صوتي وأنا أطالب بقلب نظام الحكم؟

واستبعد الشاب الاحتمال، وأورد أسبابًا للاستبعاد. ولكن ما عاد شيء مستبعدًا، وقلب محطة التلفزيون يمكن أن يتحول على يد الحكومة إلى قلب نظام الحكم. أما لهذا الكابوس من آخر؟ !

ـ إنهم يزوّرون الشرائط ليخلقوا قضية حيث لا قضية .

قال الرجل المهندم وقد عاد من التحقيق، وانقلب العنبر الذي لم ينقلب يوم جاء الخبر بأن لكلّ شريطه بالصوت والصورة أيضًا. حتى خيالهم الجامح عجز عن ملاحقة التطور المذهل الذي وصلت له حجرة العمليات. ما أشد تخلف أبيه! أهدر أنفاسه ليحدد له تهمته مسبقًا وعلم التهمة عند حجرة العمليات التي يعز علمها على كل عليم. هل يعرف أبوه أن حجرة العمليات تقص الشرائط وتلزقها، تدس المشهد على المشهد والكلمة على الكلمة لتنطق الناس بما لم ينطقوا به؟ «انقضى زمانك. نحن الآن في عصر «المونتاج»»، قال عبد الله مخاطبًا أباه وقد التقط كلمة «المونتاج» من الرجل المهندم يحكي الحكاية للمرة العشرين بناء على ما يطلبه المستمعون، مبرزًا كل مرة إصراره على تسجيل الواقعة في محضر التحقيق. «خط الدفاع الأول هو الإنكار» يكرر كل من يلقاه، وكأن الإنكار هو كلمة السر التي ينفتح لها الكنز. ما من كلمة سر في حالته وما من كنز. تساءل أبوه من هم أعداء الدولة الآن ومن هم الأصدقاء ويبقى السؤال معلقًا بلا جواب. الإنكار يفترض نوعًا من الإقرار. إنكار ما تنكره الحكومة وإقرار ما تقر. وهو لا يعرف بماذا يقر وبالتالي ماذا ينكر. ثم كيف يتأتى أن ينكر الإنسان صوته؟ وقال الرجل المهندم :

ـ استوقفتني عبارة جاءت على لساني وقلت لنفسي: ليس هذا منطقي ولا أسلوبي في التعبير .

وتساءل عبد الله إن كان له بدوره منطقه وأسلوبه في التعبير. وهل يعقل أن يرد قلب نظام الحكم في هذا المنطق والأسلوب؟ وأجاب الشاب يكبر ابنته بسنوات :

ـ لا يعقل .

في نبرة لا تخلو من شبهة الاستهانة والإدانة... وتوقفت أنفاس السامعين الذين استمعوا إلى حكاية الرجل المهندم بدل المرة مرات وهو يصل إلى لحظة الذروة في الحكاية :

ـ أمعنت السمع وإذا بصوت غريب يدخل في التسجيل، يأمر بإيقاف الشريط محتجًّا ويقول: «ليس هكذا، إنكم تفسدون عملية «المونتاج »».

ويضرب الرجل المهندم صندوق الكرتون إلى يمينه :

ـ ضربت بيدي على مكتب المحقق، وأصررت على تسجيل الواقعة في محضر التحقيق .

ويضيف الرجل المهندم قبل أن يسأله سائل هذه المرة :

ـ لم يملك المحقق سوى الرضوخ، تمت الواقعة في حضور ثلاثة من كبار المحامين. وتعم الجميع موجة من البِشر وكأن تسجيل نقطة ضد الحكومة هو غاية المراد من رب العباد، ولا يتبقى سوى أن يهتفوا كما في مباراة كرة: «جول !».

ـ هل استخدمت عنصر القوة في محاولة قلب نظام الحكم؟

سأل المحامي أبيضُ الشعر عبدَ الله وأضاف :

ـ اطمئن، تهمة التآمر على قلب نظام الحكم لا تدين الإنسان ما لم يتوفر عنصر استخدام القوة .

ولما احتج أنه لم يتآمر على قلب نظام الحكم أصلًا، بل لم يفعل شيئًا على الإطلاق، فقد المحامي اهتمامه وغسل يديه من الموضوع نهائيًّا. وآمن هو بأنه شهيد هذا العصر وكل عصر .

ـ الكل هنا متهم بقلب نظام الحكم، ولا تشغل بالك .

قال الرجل النحيل أخضر العينين، وتساءل هو :

ـ حتى أنت؟

أجاب ببساطة متناهية وأنبوبة الأكسجين تلقي بظلها على وجهه :

ـ حتى أنا. هذه أبسط تهمة .

وصدمته هذه المعلومة الجديدة عليه، وكاد يبدأ في تصريف الضمائر بداية بالإناء ومرورًا بكل الضمائر ناسبًا تهمة قلب نظام الحكم إلى الخلق أجمعين، وأسعفته عبارة وردت في حديث الشاب يكبر ابنته بسنوات، قال الشاب إن التزوير لا يأتي من عدم، وإنه يتطلب توافر مادة خام في مجموعة الشرائط تصلح للقص واللزق، وتندرج من خلال «المونتاج» في إطار تهمة محددة الملامح .

وعاود استعراض شريطه بحثًا عن مادة تصلح للقص واللزق. ثلاث كلمات قالها، ولم يقل غيرها، طالب بقلب محطة التلفزيون. وهذه الكلمات الثلاث لا تحتمل القص واللزق، ومن ثم لا تحتمل التزوير، وهو لا «يدردش» في السياسة مثل الآخرين، كما قال الشاب، ولا تملك الحكومة أن تركب الجملة على الجملة والكلمة على الكلمة لتنطقه بما لم ينطق، واحتج أبوه بأن ما من أحد من

أهل بيته يسرق قوت الشعب ويمتص دماء الناس، وتساءل: ولِمَ تتجشم الحكومة معه والأمر كذلك، كل هذا العناء، وفي خواء اليدين وبقع الزيت الدليل؟ وتعجب من حرص الحكومة على توزيع التهم، دون غيرها، على الناس بالعدل والقسطاس .

واستعرض عبد الله استخداماته ليتبين إمكانية التزوير في كلماته الثلاث. كلمة «قلب» ترتبط في حديثه العادي بقلب البذلة القديمة لتصبح جديدة، وقلب الجورب قبل لبسه حتى لا يتهدل، وقلب قطع الباذنجان في الزيت المقلي، وكلمة «محطة» ترد في كلامه في اتصال بمحطة التلفزيون والراديو والسكة الحديد والأتوبيس والترام، ولا يعقل أن يطالب إنسان بقلب هذه المحطات الأخيرة حيث لا تحتمل بحال عملية قلب أو انقلاب .

«هل تآمرت لقلب نظام الحكم أم اكتفيت بتوزيع منشورات مناهضة له؟»، قال أبوه وآمن هو بأنهم سمموا الآبار فعلًا وأهلكوا الزرع، وفي خواء اليدين وبقع الزيت الدليل. وتمنى لو لم يكن قد استخدم كلمة قلب أصلًا ليقطع على الحكومة خط الرجعة، والفعل قد استخدم، وهو لا يملك له كما تملك الحكومة تغييرًا ولا تبديلًا. «فكرت واستبعدت فكرة الهرب» قالت البنت، وأضاف الولد: «الهرب لا يليق بأبي ».

وتساءل هو: ما الذي يليق به؟ أن يقف متهمًا بقلب نظام الحكم؟ وأسعفه تعبير «نظام الحكم» كالتعبير الذي لا يرد في كلامه قطعًا، وتيقظت مخاوفه وما من أحد يستطيع أن يقطع بأنه لم يستخدم في حياته كلمتي «نظام» و«حكم»، ولا شك أنه تحدث أكثر من مرة عن «نظام العمل» في المصلحة وفي الجمعية الاستهلاكية و«نظام المرور»، وما الحياة اليومية إلا سلسلة من الأنظمة. وأقر أن من الصعب أن ترد في حديثه كلمة «الحكم» وإن لم يكن مستحيلًا، فهناك «حكم القوي على الضعيف» و«حكم الأنذال فينا ».

«أي أنذال تعني؟» سمع المحقق يقول، وهو يرد واثقًا: «لم يحدث أن قلت هذه العبارة. ليس هذا منطقي ولا أسلوبي في التعبير». وتعزى عبد الله بحقيقة أن أداة التعريف اللازمة لـ«قلب نظام الحكم» لا ترد في أي من الأمثلة التي وردت على ذهنه، وحقيقة أن الحكومة ملزمة بتزويد كلمة «حكم» بأداة التعريف إن أرادت أن تحكم التزييف، فـ«قلب نظام حكم» مجهل غير «قلب نظام الحكم ».

ونشط لإعداد خطة دفاعه ضد تهمة قلب نظام الحكم، وأداة التعريف تسعفه أحيانًا، وتخذله معظم الأحيان. وأدرك أنه لا يملك سوى الإنكار سلاحًا، وإن استبقى كل تحفظاته حول فعالية هذا السلاح وهو لا يعرف حتى أعداء الدولة والأصدقاء .

واستطال اللقاء بينه وبين الشاب يكبر ابنته بسنوات، وتعقد الحوار أحيانًا وانفرج أحيانًا أخرى، وأسفر في نهاية المطاف عن التسليم بضرورة الإنكار وألا بديل للإنكار. وخلال هذا الحوار استغرب عبد الله من نفسه وهو يتقبل إدانة الشاب له أكثر من مرة، وهو يتجاوزها ربما لأنه تعود الإدانة تواتيه حتى من أهل بيته، وربما لأنه يدرك الآن أن الجهل بالسياسة الذي تحصن به يرتد اليوم إلى صدره. «من زمن وأنت تلعب لعبتهم» قال الشاب، وصدمه .

سأل هو وقد انفرد بالشاب :

ـ هل يصدقنا أحد حين ننكر أصواتنا؟

وأجاب الشاب بالنفي، وتساءل هو عن جدوى الإنكار في هذه الحالة، وقال الشاب :

ـ لعبة لكسب الوقت. هم يلعبون ونحن نلعب .

ووجد نفسه يهمس مرعوبًا :

ـ ولكنهم يلعبون على رقابنا .

ـ ويتأتى أن نلعب. ما من اختيار .

وساد الصمت الثقيل يفصل بينه وبين الشاب، قال وهو يتذكر مدى حرصه على تجنب السياسة :

ـ لم أشأ أن ألعب لعبتهم .

وواتته الإجابة قاطعة كحد السيف :

ـ من زمن وأنت تلعب لعبتهم .

وكاد يحتج بأنه لم يلعب على الإطلاق، لا لعبتهم ولا لعبة غيرهم، وتراجع وهو يدرك أن الاحتجاج بأنه لم يلعب يحتمل في حد ذاته المزيد من الإدانة، وأرقته حقيقة أنه لا يعرف ما فيه الكفاية لمواجهة المحقق وقال :

ـ مِثلي لا يعرف بماذا يقر وماذا ينكر .

ـ ألم أقل لك إنك تلعب لعبتهم من زمن طويل؟

وقال وهو يكتشف حقيقة غابت عنه طويلًا :

ـ لأني لا أعرف؟

ولم يشأ الشاب أن يعلق، قال :

ـ من الأسلم أن تنكر على طول الخط .

واحتج هو هذه المرة :

ـ وماذا لو بدوت جاهلًا أمام المحقق؟

وقال الشاب :

ـ هذا هو المطلوب، يسوء موقف الإنسان القانوني بمدى ما يعرف .

وتبادلا الضحك طويلًا، واستغرق وهو يسمع نفسه يضحك وفي مثل هذا الموقف، وتذكر أنه لم يضحك من زمن طويل .

(9)

سأل المحقق عبد الله عن اسمه، وسنه، وعمله، وعنوان بيته، وخُيل إليه لوهلة أن ليس من الكذب في شيء أن يجيب على هذه الأسئلة بالقول: «لم يحدث»، وقد هدوا عالمه وتركوا بدلًا من صورة الزفاف مساحة بيضاء في زرقة الحائط التي دكنت مع الأيام بفعل التراب والهباب، وخُيل إليه لوهلة لم يلبث أن تجاوزها مجيبًا على الأسئلة، أن ليس من الكذب في شيء أن يقول: «لم يحدث»، وهو لم يعد ذات الرجل الذي دخل السجن. ولم يصبه التردد فيما تلا من أسئلة، وما حاد عن الصدق قيد أنملة .

ـ هل تنتمي إلى تنظيم حزبي؟

ـ لا .

ـ سري أو علني؟

ـ لا .

ـ هل أنت شيوعي؟

ـ لا .

ـ من الجماعات الإسلامية؟

ـ لا .

ونبهه المحقق إلى خطورة استخدام كلمة «لا»، وما ينطوي عليه تكرارها من الاستخفاف بالسلطات وترويج الإشاعات، وإهانة موظف حكومي أثناء تأدية مهام وظيفته، وما إلى ذلك من تهم تخضع لقانون العقوبات. وصمم هو رغم كل التهديدات على استخدام كلمة «لا»، متذكرًا حيرة إدارة السجن في تصنيفه .

وأجاب بالنفي على سلسلة من الأسئلة حول التواجد في ندوة، في اجتماع، في معرض، في متحف، في مسرح، في بيت، فوق الرصيف، عبر الشارع، في القاهرة، في أسوان، في منوف، في الإسكندرية، في ليبيا، في دمشق، في الجزائر، في موسكو. واستفسر عن معنى «التعامل» مع دولة أجنبية، وأصر على تلقي الإجابة على سؤاله قبل أن يستطرد في النفي رغم نظرة المحقق التي تقول له: «مش عليَّ يا واد أنت، العب غيرها ».

ولم يزده المحقق علمًا ـ كما لم يفعل الرجل المهندم ـ حين فسر «التعامل» بعد الجهد بـ«التخابر»، واكتفى بالإجابة بالنفي، وقد تأكد له أن الكلمة متداولة إلى حد لا يحتمل التفسير، تهمة «التخابر» التي هي تهمة «التعامل» بدون شرح ولا تفسير منسوبة إلى الخلق أجمعين، و«أنا أتخابر»، أي «أتعامل»، و«أنت»، مرورًا بكل الضمائر .

وحين وصل المحقق إلى تهمة «قلب نظام الحكم» كان عبد الله قد وصل في استخدام «اللا» إلى طريق اللاعودة، وصمم على الإنكار سواء زيفوا الشريط أو لم يزيفوه، حولوا التلفزيون إلى نظام الحكم أو لم يحولوه .

وحين جاءت لحظة المواجهة التي تمنى في السجن أن يفلت ولو بالموت منها، وجد نفسه يستبعدها ببساطة متناهية. سأله المحقق إن كان مستعدًّا لسماع الشريط الذي يثبت تآمره على قلب نظام الحكم، وأجاب في بساطة متناهية :

ـ لا .

وحين لم يجبره المحقق على الاستماع إلى الشريط بالقوة، بدأ يتشكك في قدرة الحكومة على تزييف الشريط بالشكل المطلوب، ثم في وجود الشريط أصلًا، فما من أحد يستأذن أحدًا، ولو ملك المحقق الدليل ضده لأجبره على مواجهته .

وسبَّح الرجل الذي لا يعرف ما هي تهمته بحمد الله و«اللا» وهو لا يعارض اتفاقيات «كامب ديفيد» ولا معاهدة السلام، ولا التطبيع، ولا السياسة الخارجية ولا الداخلية، ولا يعطل مسيرة السلام في الشرق الأوسط بإهانة دولة صديقة .

وتوقف المحقق طويلًا حول موضوع التأييد والمعارضة، الاستحسان والاستهجان، وضاق ذرعًا بعبد الله، لا يؤيد شيئًا ولا يعارض شيئًا، لا يستحسن شيئًا ولا يستهجن شيئًا، وتراجع إلى الخلف راسمًا الخطة المحكمة لهجوم جديد :

ـ هل تشتري حاجياتك من السوبرماركت؟

ـ لا .

ـ من البوتيك؟

ـ لا .

ـ من محلات البيتزا؟ الكافتيريا؟ «الويمبي»؟ «الكنتاكي»؟

وبدت له أسئلة المحقق تافهة للغاية وفي خواء اليدين وبقع الزيت الدليل، ولكن المحقق استمر يصُفُّ أسئلته بتروٍّ شديد وبدقة شديدة، وكأنه يحكم الحبل على رقبة من يواجهه المرة بعد المرة :

ـ هل تدخن سجائر أجنبية؟

ـ لا .

وضرب المحقق بقبضة يده على مكتبه وقال، ونظرة الانتصار تلمع في عينيه :

ـ أنت تعارض إذن سياسة الانفتاح الاقتصادي .

ـ لا .

ـ وتقاطع البضائع الأجنبية .

ـ لا .

وهب المحقق واقفًا صارخًا في احتجاج :

ـ ألا تفعل شيئًا على الإطلاق؟

ـ لا .

وتوقع عبد الله قرارًا بالإفراج، وهو لا يفعل شيئًا على الإطلاق بإقرار المحقق ذاته، ولكن المحقق لم يصدر قرارًا بالإفراج، طلب من كاتب الجلسة استبعاد السؤال والجواب الأخيرين من محضر التحقيق، وشرع سبابته أفقيًّا ووجه إليه التهمة بصوت رتيب :

ـ منسوب إليك تهمة الإخلال بالوحدة الوطنية .

وسادت لحظة صمت متوترة، وتأكد لعبد الله أن تهمة الإخلال بالوحدة الوطنية هي تهمة من لا يفعل شيئًا على الإطلاق. وأجاب بالنفي بحكم العادة وإن تأكد له أن النفي في هذا الإطار لا يجدي :

ـ لا .

وبلغ غضب المحقق حدًّا لا يستدعيه المقام وهو يقول :

ـ لا ماذا؟

وأجاب صامدًا، وهم يلعبون ونحن نلعب :

ـ لا للإخلال بالوحدة الوطنية .

وأسدل المحقق جفنيه على عينيه وهو يستبعد عبد الله من مجال الرؤية وقال :

ـ هل لديك أقوال أخرى؟

وأقفل محضر التحقيق دون أن يدلي عبد الله، الذي عرف أخيرًا تهمته، بأقوال أخرى .

الشيخوخة

وقصص أخرى

بدايات

١١ ديسمبر ١٩٧٤

تلقيت مكالمة تلفونية مفاجئة من سامي اليوم. قرر، كما يقرر عادةً قبل أن يسافر بعيدًا وطويلًا، أنه في حاجة إلى أن يلقاني. لا أعرف أن سامي في الوطن إلَّا وهو على وشك أن يرحل بعيدًا وطويلًا. قال ربما لا يعود، كما يقول كل مرة، وأزعجني القول لأول مرة. (يقترن الشعور بالشيخوخة والخوف من الموت). ولم ألبث أن تجاوزت الخوف واستعدت اليقين بعودته التي منحتني دائمًا، ولا أعلم لِمَ، نوعًا من الاطمئنان .

في التلفون واتاني الحديث مع سامي في يسر، وكأني أستأنف حديثًا بدأته معه بالأمس. كم طالت غيبته هذه المرة؟ لم أسمع صوته منذ أن تناولنا طعام الغداء في هذا المطعم الجديد الأنيق في الهرم، كان هذا في أعقاب إنهائي لحياتي الزوجية بالطلاق، أي من حوالي عشر سنوات. لم أشعر بالأمس بالحرج الذي استشعرته وسامي يطلب لقائي ولا ترددت في تحديد الموعد كما ترددت إذ ذاك. ألأني رفضت الماضي بحلوه ومره إذ ذاك وبدأت الآن أتقبله؟ ألأني لم أعد أخشى، وأنا في الثامنة والأربعين، تعقيدات الامتداد إلى المستقبل؟ أي تعقيدات؟ بعد الثامنة عشرة لم يحمل لقائي مع سامي أي تعقيدات. ألأني، وأنا أواجه الآن مرحلة الشيخوخة، في حاجة إلى التصالح مع ما مضى من حياتي؟

يخطر في بالي الآن خاطر غريب. لقاءات سامي كانت علامات مميزة على طريقي، صادفت تقريبًا كل عقد من عمري. في الثامنة عشرة كان سامي الحب البداية بلا نهاية، الأرض والشمس التي تدور حولها الأرض .

أكانت القصة التي كتبتها قديمًا عن بداية هذا الحب «الأبدي» أم عن نهايته؟ ومتى كتبت هذه القصة؟ بعد نهاية حبي لسامي بعشر سنوات، أم بعد انفصالي بالطلاق عن زوجي وأنا في الثامنة والثلاثين؟ أهي عن حبي «الأبدي الأول» أم حبي «الأبدي الثاني»؟ !

(يتعين عليَّ أن أتوقف عن هذا الشعور بالمرارة، وأن أبحث عن القصة التي كتبتها وأنا في الثامنة والعشرين تحت عنوان «حبها الأول». أمامي فرصة ذهبية لا تتوافر لكاتب إلَّا قليلًا، فهأنا إزاء حكاية تواجه احتمالات الاكتمال).

ملحوظة: أرفق القصة التي كتبتها منذ حوالي عشرين عامًا بمذكرات اليوم ١١ من ديسمبر سنة ١٩٧٤ لأفرغ لتأمل بقية انطباعات اليوم .

حبها الأول

لفّتها موجة حنان وباب مكتبها يسفر عن سامي: السيجارة ترتجف غير مشتعلة في ركن فمه، ونغازتاه تعمقان في خديه، وقطرات المطر تتساقط من معطف المطر الأنيق الذي يرتديه، وتغلبت على دهشتها وهي تخرج من خلف مكتبها تتقدم في خطى هادئة تلاقي حبها الأول بعد غيبة عشر سنين. ومالت على المكتب تدق الجرس، وقالت وسامي يجلس في المقعد المقابل :

ـ تشرب إيه يا سامي؟

وضحكت ضحكات قصيرة متقطعة، وهي تلاحظ أن هذه هي المرة الأولى التي تناديه باسمه، والمرة الأولى التي تصمد فيها لنظرته دون أن تخجل، وقد استطال لقاؤهما الأول ما يقرب من الثلاثة أشهر .

رفضت أن تفصح عما أضحكها وسامي يسأل، وجمد وجهها لحظة والساعي يتقدم، وابتسمت ابتسامة العمل التقليدية، وهي تطلب منه إعداد قدحين من القهوة .

وسألت سامي عن أخباره، ونفث الدخان وبدأ يحكي عن أسفاره، سيجارته تهتز في فمه وهو يضحك، ويده تتحرك كعادتها، ترسم على طرف المكتب خطوطًا وهمية متعارضة ومتشابكة. وتساءلت، وعيناها متعلقتان بوجهه تشبع الرغبة التي لم تجرؤ أبدًا على إشباعها: أين ذهبت الفورة الحلوة المجنونة لبنت الثامنة عشرة؟

*

بنت الثامنة عشرة اعتبرت عدم وقوعها في الحب حتى هذه السن كارثة. تجاوزت نظرات المعجبين، وانتظرت متلهفة حدوث الشيء يخرج عليها من المجهول، تغشى له عيناها كأنه البريق، يجتاحها كالإعصار، تنتفض له كل خلية من خلاياها كمس الكهرباء. وتقلبت في الفراش ليلة بعد ليلة، تشوقًا، إلى أن هبط عليها سامي، وكأنما من السماء، وهي في السنة الأولى من دراستها الجامعية .

كانت تجلس مع ثريا وسميرة في الصالة العامة لمكتبة الجامعة في الأسبوع الأول من إجازة نصف السنة حين دخل الدكتور صفوت وبصحبته سامي. وبعد أن تمت عملية التعرف قال الدكتور صفوت مشيرًا إليها :

ـ تقرأ رابعة العدوية و«بودلير» معًا. الإنجيل و«البيان الشيوعي» في نفس الوقت .

وابتسمت هي. كانت تقف إذ ذاك والملايين في نهاية الحرب العالمية الثانية على مشارف عالم جديد ـ أو توهمت ـ عالم يصالح كل المتناقضات، تتفتح فيه آمال التحرر الوطني، تسقط فيه كل الحوائط، ويتساوى فيه التشوق إلى المعرفة مع التشوق إلى الحب .

وأدارت رأسها إلى الخلف لترى سامي وهو في طريقه إلى الخروج من الباب الخارجي لصالة المكتبة، وأدار هو رأسه ليراها، وأسدلت جفنيها خجلًا والعيون تتلاقى. ولكنها لم تدرك إذ ذاك أن شيئًا غير عادي قد حدث .

وأرسل الدكتور صفوت في استدعاء مجموعة البنات إلى حجرته، وقضت هي وسميرة وثريا ما يقارب الساعتين في جلسة مع سامي والدكتور صفوت، وخرجت من الجلسة دون أن تدرك .

خافت والصمت يلف الكلية في إجازة نصف السنة، يربض متوترًا في الممرات المعتمة، يطن في الحديقة، تواجه المكتبة، كالسكون يسبق العاصفة. وافتقدت الحياة تضطرم بالألوان الساخنة، بالضحكات، بالمناقشات السياسية، بأحلام المستقبل تتشكل في الأركان الهادئة خلقًا أدبيًّا وفنيًّا وسينمائيًّا وسياسيًّا. بالمناكب تتدافع إلى قاعات الدراسة والمؤتمرات السياسية والندوات الأدبية وحلقات الاستماع للموسيقى الكلاسيك .

لمدة ساعتين استمعت طويلًا، وتحدثت واتفقت واختلفت. لم يكن غاندي، والشعب المصري يطالب بالكفاح المسلح ضد الإنجليز، بطلها، كما كان بطل سامي. وضحكت حتى طفرت الدموع من عينيها وسامي يشخص كل حكاية يحكيها، يقوم ويعاود القيام، يقلد تمثال الحرية في نيويورك وغاندي يسحب المعزة في الهند، ينتقل من حكاية إلى حكاية، من بلد إلى بلد، وكأنه لا يستقر يومًا بمكان. ولم تدرك إلَّا حين بدأت ثريا تلعب لعبتها المفضلة على محطة الأتوبيس، تغافلهما وتعلن مجيء الأتوبيس وهو لم يأتِ .

- عليكم واحد .

قالت ثريا، وبدلًا من أن تضحك هي كالعادة، استدارت شفتاها وكادت تبكي. وفي الأتوبيس أدركت، وهي تجلس على طرف المقعد في حرص وكأنها تحمل كوبًا مليئًا حتى الحافة تخشى أن ينسكب. وانكفأت إلى الأمام تحتضن جسدها بذراعيها، وتستشعر لأول مرة ذلك الشجن الموجع يصل إلى مرتبة النشوة. واعتدلت ووميض الشمس يتراقص حبات ماس على سطح الماء. وعندما التفتت إلى الخلف لترى الوميض من جديد، لم ترَ سوى مجرى رمادي عاتٍ من الماء ينساب في رتابة وجلال .

وفي ميدان الأزهار أفاقت على صوت احتكاك وفرملة عجلات سيارة يتبعها سيل من اللعنات المتبادلة، ودخان أسود محمل برائحة الشواء، وناس حول المقاعد يأكلون على قارعة الطريق، ورجل يمضغ في روية وقد انتهى الطعام من فمه، وطفلة تبكي في حرقة على حطام طبق وزحمة من الناس تطرح الطفلة أرضًا، تتسارع في اتجاه محطة قطار حلوان، والقطار يتقدم وئيدًا ثم ينساب... وملأت الزحمة وعيها بألوانها وأشكالها وروائحها، وعاودتها حالتها الطبيعية إلى أن آوت إلى حجرتها في البيت .

ولفَّتها الحمى يقظى في سريرها تستعيد المشهد في المكتبة وفي حجرة الدكتور صفوت، تلف في أرجاء المشهد وتدور، تجزئه وتعيد تركيبه. تهد المشهد يائسة وتعود تبنيه، تبحث عن شيء ما

ميزها به سامي عن سميرة وثريا. تتوقف عند التقاء عينيها بعيني سامي في المكتبة، وتحاول أن تصل النظرة بشيء ما خاص بعد النظرة، ولا شيء على الإطلاق. وتثور. لا يمكن أن يحدث لها كل هذا ولا يحدث له نفس الشيء، لا يمكن أن تنقلب الدنيا ولا ينقلب هو .

ويقفز بها خاطر من السرير إلى منتصف الحجرة واقفة: سامي أراد أن يراها من جديد، أن يتعرف عليها. ألح على الدكتور صفوت لكي يستدعيها وصديقتيها من المكتبة، وإلَّا فيم الاستدعاء؟ وأسندت رأسها بيديها حتى لا يطير. ولكنه قد طار فعلًا وهي كروح هائمة تجوب الشوارع يومًا بعد يوم تبحث عن سامي، ترتاد قاعات المحاضرات ومعارض الفنانين والندوات على أمل أن تراه. وفي كل خطوة تخطوها يخيل إليها أنها وجدته، وفي كل خطوة تتراجع وقد توهمت أنها وجدته... يقترب سامي أخيرًا، وبحركة لاإرادية تكاد تنحرف عن الطريق ولا تنحرف... تدرك أنه ليس بسامي. وتعود إلى البيت منهكة، وهي تعرف أن سامي في مكان ما من القاهرة، خلف حائط من هذه الحوائط لا تعرفه، ولا تملك النفاذ إليه حتى لو عرفته، وشبه يقين يبقيها فوارة ضاحكة... سامي يستطيع أن يصل إليها في الكلية بعد أن تنتهي إجازة نصف السنة. وسيصل. ربما . لا بد . لا بد أن يصل .

وبدأت تهدأ هدوء اليأس وقد انقضى أسبوع على عودتها إلى الكلية، ولكن سامي جاء أخيرًا. شعرت به يقف خلفها دون أن تراه، ربما لأنها لم تكن تنتظر غيره، وربما لأنها أرادت بكل خلجة من كيانها أن يكون هو، وكان. لحظة شعرت به، كانت تقف في صالة من صالات المكتبة ويدها تمتد إلى مرجع من المراجع على الرف. وجمدت يدها لحظة واستدارت تلاقيه وتوقفت نظرتها عند ربطة عنقه وهي تصافحه. ولم تجرؤ فيما بعد على تجاوز هذا الارتفاع إلَّا وهو غافل عنها يتبادل هو وصديقة من صديقاتها الحديث .

وتساءل سامي إن كانت قد أعادت كتاب رابعة العدوية. وأبدت استعدادها لإعارته إياه، وخشي ألَّا تكون قد انتهت من الكتاب، وأكدت كاذبة أنها فعلت. وقررا أن يلتقيا صبيحة اليوم التالي في نفس المكان والزمان لتعيره الكتاب .

ولا تعرف كيف وصلت يومها من المكتبة إلى قاعة المحاضرات، ولا كيف اندست في هذا المكان الضيق بين ثريا وسميرة تأتى أن تتقاسما معها الفرحة التي تغلي في رأسها، واستحال أن تهمس في أذن أيٍّ منهما وجسدها معلق في الفراغ. وعلى ورقة كتبت: «جاء سامي»، وقربتها من عيني سميرة وثريا وتنهدت في ارتياح في انتظار رد الفعل... ولا شيء. سميرة تكمل كتابة المحاضرة وهي تبتسم ابتسامة خفيفة، وثريا أظلم وجهها. لا تدري لِمَ .

وألف يد متوترة في هذه القاعة، وألف عين وأذن تترقب، ولا شيء سوى طنين يحدثه الأستاذ ويتلقاه صرير الأقلام... موتى كلهم لا يشعرون ... كان هناك وكانت، وهو هنا وهي، ولكنهم لا يعرفون. شيء رائع يحدث كان ينبغي أن تتوقف له هذه الساعة تدور وتدور ...

ـ إنت مجنونة .

قالت ثريا وهي تقفل دفتر المحاضرات في غضب بعد أن انتهت المحاضرة. واستبعدت هي فيما بعد ضاحكة تصوير ثريا الكوميدي لمشهد دخولها قاعة المحاضرات بعد لقاء سامي. فها هي، على لسان ثريا، تقتحم قاعة المحاضرات وكأنما تدخل غرفة نومها، بوجه كرغيف الخبز خرج من الفرن لتوه، جسدها يرتجف كفرخة مذبوحة، يؤنبها الأستاذ و«ودن من طين وودن من عجين»، تثير صفير الاستهجان من الطلبة وهي تعبر القاعة، تدوس الأقدام وترتطم بالمناكب لتكتب وكأنما على السبورة: «جاء سامي ».

ولكن سامي استحال في الشهور الثلاثة التالية إلى جزء لا يتجزأ من حياة البنات وهو يزور الكلية بانتظام يوم إجازته في الأحد من كل أسبوع .

وعرفت هي، ولم تعرف على وجه اليقين، أن سامي يحبها . لم تتشكل المشاعر قط في كلمات، ولم يبدُ من الضروري أن تتشكل وفي الأسبوع يوم أحد، وأشعار رابعة العدوية تتحول إلى أشعار دنيوية تتنغم بها كل ليلة والفورة تقذف بها في جوف الليل إلى الشرفة، تفجر جسدها إلى ذرات، والذرات تتوحد والسحب تسافر لاهية، تغيب وتعاود الظهور متنكرة كل مرة، وهي الآن موكب من الفيلة ولكل فيل زلومة، سفينة ذات قلاع، عديد من القلاع تبحر، خيول مطهمة والخيول تركض. ونور ثاقب لكوكب يتبقى وحيدًا يدفع دموع الشجن إلى عينيها فلا تعود تعرف إن كانت تضحك أم تبكي، والدموع تلون الدنيا بألوان قوس قزح، وكل شيء رائع وجميل والهواء أنقى وخضرة الأشجار أعمق والأصوات أنغام والزمن لا يقاس بالأيام وإنما بالساعات التي ترى فيها سامي. ولا شيء ينتقص من سعادتها، ولا هي تريد أن تنفرد بسامي عن صديقتيها. يكفي أن تستمع إليه يتكلم، يكفي أن ترى السيجارة تهتز في فمه وهو يضحك .

ولم يخطر في بالها السؤال: وماذا بعد؟ استوعبتها اللحظة تحيا عليها حتى تحياها من جديد، فلم تسأل. وحين جاءها سامي يعلن أنه راحل لم يكن اليوم يوم أحد .

وصلت الكلية يومها متأخرة دقائق عن المحاضرة الأولى، وعبرت الممر الطويل إلى قاعة المحاضرات مهرولة، وقبل أن تدفع الباب سمعت سامي يناديها واستدارت. كان يقف على عتبة الباب المؤدي إلى الحديقة تفصله عنها درجتان من درجات السلم حين قال :

ـ أنا مسافر .

ـ فين؟

ـ لندن، اتعينت مراسل للجورنال هناك .

ـ مدة طويلة؟

ـ سنة على الأقل .

وبدا لها صوته غريبًا وكذلك صوتها، وكأنما لا يتكلمان بل يتقاذفان فيما بينهما بكرة بنج بونج، والكرة تصيب كل مرة ...

ـ ومسافر إمتى؟

ـ بكره .

مستحيل، لا بد وأنها تحلم، ليس هذا صوته، وهذه الخيول التي تركض في الدور العلوي من أين أتت؟ لو استطاعت أن تصرخ صرخة واحدة لأفلتت من هذا الكابوس. ولكنها لم تصرخ، وقفت تنتظر أن يبدأ، أن يقول شيئًا، وصمت يربض على صدرها بكلمات لا تقال. والتصقت بالحائط يغرق حسها طنين بلا معنى وزحمة من الطلبة تنزل السلم، تعبر الباب إلى الحديقة .

ووجدت نفسها فجأة تترك سامي خلفها بلا كلمة، وتجلس لاهثة في أول مكان خالٍ تجده في قاعة المحاضرات. وطالبة إلى جانبها تلوك قطعة لبان، تمدها في خيط طويل يكاد ينقطع، وتكومها بيدها لتقذف بها في فمها من جديد، ونحلة تتخبط على زجاج النافذة المغلق لتعود تتخبط. إمَّا أن ينكسر الزجاج أو تموت، والزجاج لا ينكسر والنحلة لا تموت. وقطعة اللبان تكاد تفلت من فم غليظ الشفتين ولا تفلت، تطبق عليها المصيدة من جديد... وتقفز هي واقفة وهي تدرك أن سامي قد ضاع منها. ويسألها الأستاذ عما تريد وتقول :

ـ أنا... أنا عايزة ...

ولم تستطع أن تكمل وألم حاد، لا يستطيل سوى ثانية، ينشب في العرق المجاور لعينها اليسرى. ولم تشعر بخطورة ما حدث حين فقد خدها الأيسر الحسَّ للحظات، كانت منشغلة بكلمات تأتى أن تتشكل ولم تتشكل.. لو رأته مرة ثانية، لحظة واحدة لعرف، وربما عرفت .

ورأته يومها ثانية ولم يعرف ولم تعرف، ليس بالتأكيد على كل حال. كان ينتظرهن على محطة الأتوبيس، ونفى في شدة مفتعلة أنه كان في الانتظار. ولم تنفرد به إلَّا في الأتوبيس وهما يقفان وجهًا لوجه إلى جانب السائق. ولفهما هذا الصمت المتوتر من جديد وهي تنتظر، واجفة الحلق، كلمات توشك أن تقال ولا تقال. وعبر الأتوبيس كوبري قصر النيل، وأزاحتها عن الطريق امرأة تحمل على رأسها قفة، وتنهدت وهي تقول :

ـ عارف أنا نفسي أعمل إيه؟ نفسي أرمي نفسي تحت الأتوبيس ده .

وكان هذا أقصى ما استطاعت أن تقول ولم يقل هو شيئًا، ترنح تحت وطأة كلماتها ولم يقل شيئًا. وتلفتت خلفها ترقب مجرى عاتيًا من الماء ينساب في رتابة وجلال، وعيون من الصخر تنظر ولا ترى .

*

وتأملها سامي وهي توقع بإمضائها بعض الأوراق العاجلة في ثقة وكفاية، ورقة بعد ورقة، وقال بصوت هامس وكأنما توصل إلى اكتشاف :

ـ إنت تغيرتِ .

وتوقف القلم في يدها لحظة، ثم أكملت كتابة اسمها الثاني بخط أكبر قليلًا مما تعودت أن تكتب به توقيعها الرسمي. والتقطت ورقة جديدة وتساءلت بسخرية خفيفة، وهي تتصفحها، إن لم يكن قد تغير هو الآخر. وأضافت باسمة وهي ترفع الورقة إلى أعلى وتتركها تسقط من بين يديها في حركة مسرحية مفتعلة :

ـ الزمن يا أستاذ... الزمن .

وضحك كما أرادت له بحركتها المسرحية أن يفعل، ولم تضحك هي. ما إن سقطت الورقة حتى شعرت فعلًا بوطأة السنوات العشر من ١٩٤٤ إلى ١٩٥٤. مليئة بالأحداث والمتغيرات كانت ولم تزل حبلى، بين الفرحة والغصة تقف. ولا هي تعرف ولا أحد يعرف إلى أين تسير. بقيت الغصة ولم تكتمل الفرحة، ولا هي تعرف إلى أين تسير شخصيًّا، ولا إلى أين يسير البلد .

ونجح سامي في إخراجها من وجومها ليقول ما أتى ليقول :

ـ إنت عارفة إني كنت ...

وهزت رأسها ضاحكة تنهاه عن الاستمرار في الكلام وهي تعرف مقدمًا ما سيقول، وتصدق مقدمًا على كل ما يقول، وأضاف :

ـ ولسه ...

وبدا لها الموقف مربكًا ومحيّرًا، وكأنه مشهد في مسرحية انتُزع من مكانه وزمانه وظروفه ووُضع، عنوة وبلا معنى، في زمان آخر ومكان آخر وفي ظل أوضاع متغايرة. الكلمات تشكلت بعد فوات الأوان، بعد أن أصبحت لا تعني شيئًا. وعدلت هي من وضع الورقة التي أسقطتها بحركة مسرحية ووقعتها وضمتها إلى بقية الأوراق، وكومتها، مرتبة، على حافة المكتب وهي تقول :

ـ مفيش داعي يا سامي نفتح الموضوع .

وقال في إصرار :

ـ وإنت كمان كنت ...

وغطت ضحكاتها القصيرة المضطربة على بقية كلماته وقطرات المطر تسقط كالحصى على زجاج النافذة. وخيم الصمت على الحجرة وهما مطرقان، يتحاشى كل منهما النظر إلى الآخر. وكسر الساعي وطأة الصمت وأشارت إليه أن يسدل شيش النافذة. وحين فعل لم تنسَ أن تشكره وهي تبتسم ابتسامة العمل التقليدية .

نوفمبر ١٩٥٥

*

١١ ديسمبر ١٩٧٤

مع سامي سأجلس في شرفة النادي وجهًا لوجه، كهل وكهلة، يجتران ذكريات الماضي. سأضحك وسيضحك ويقول إنه ما زال يحبني كما يقول دائمًا، ولن أقول إني أحبه، لأنِّي أوده ولا أحبه. (ما أحدَّ ما تتحدد مشاعري؟! أنمو على مشاعر الحب القديمة، أتجاوزها. لا لبس ولا التباس ولا حتى لدقيقة واحدة في طبيعة هذه المشاعر). ولن أنزعج لأن سامي يحبني ولا لأني أودُّه. فلا هذا الحب المعين من جانبه، ولا هذا الود الخاص من جانبي حال دون أن يعيش كل منا حياته مكتملة في استقلال عن الآخر .

وفي طريق العودة سألمح وجهي كما لمحته في مرآة العربة يوم تناولت طعام الغداء مع سامي من عشر سنين. لا لن أرى وجهي كما رأيته يومها. أعرف أني تجاوزت هذا الوجه من وجوهي ولكن إلى أي مدى؟ أعرف أني تصالحت مع الكثير في السنوات العشر الماضية ولكن بقي الأكثر لأتصالح معه .

يوم لا أعود أهرب من المرآة ومن عدسة التصوير، يكتمل ما بدأت .

*

في الثامنة والثلاثين أجلس، تفصلني عن سامي مائدة غداء وسنوات تجربتي. أجلس و«كان» فعل ماض يتحتم أن يسقط، ألا يكون. عيناي تتطلعان بعيدًا في الأفق إلى ما سيكون. تطول جلستي و«كان» طريق مسدود اقتضاني الإفلات منه صراعًا مريرًا .

كيف توهمت إمكانية الفصل بين ما كان ويكون؟

سامي يريد لي أن أتحدث عما كان مع زوجي، أن أتخفف. وأنا أقطع الحبل بضحكة مبتورة المرة بعد المرة. سامي يستثير ذكريات حبنا الأول وضحكته تواتيني متصلة تردد أصداء ماضٍ مكتمل بحلوه ومره، وأنا أسدل الستار على الماضي، وأعود أحكمه. تنزلق كلمات سامي، كقطرات ماء على معطف مطر، دون أن تمسني .

أسترخي في جلستي وأنا أدرك أن شيئًا ما من الماضي لن يخل بالتوازن الذي توصلت إليه، بالبركان الذي أحلته حجرًا خامدًا لأستمر واقفة على قدميَّ. أسترخي الآن وعلى فمي بسمتي الودود الخجلة. أحاول بلا جدوى أن أوقف هذا السيل الجارف من العاطفة الذي يمطرني ...

عواطف سامي تحرجني. أستكثرها على نفسي، أشعر أنها موجهة إلى امرأة غيري، وأني أغتصبها بلا وجه حق. وأنا موجودة وغير موجودة. أكاد أصرخ وسامي يذوب كيانه في كلماته: «كفى، المرأة التي تحبها ماتت». وأنتحل كلمات الحب لنفسي ولا أصرخ... تزدهيني كلمات الحب وألتزم الصمت .

وتخرج المرأة في الثامنة والثلاثين كما دخلت، مغتربة عن ذاتها والآخرين، مرفوعة الرأس، متئدة الخطوات، مستغنية بلا اكتفاء، ما من شيء هز كيانها ولا هي بذلت قطرة من هذا الكيان .

*

من عينيَّ تنسال الآن دموع تحجرت، كحصى الملح، في عينيّ المرأة في الثامنة والثلاثين، ومرآة العربة تصفعها بوجه مليح قُدَّ من صخر الكبرياء المر، من الألم وحتمية تجاوز الألم، من رفض مراهق للحياة ونسبية الأشياء، من تعلق مغترب بكمال دنيا غير الدنيا، من تشبث مجنون بالسبل المسدودة حتى الاختناق، ومن عمى عن الباب المفتوح .

وفي أعماقي أفسح مجالًا للمرأة المراهقة التي ضلت الطريق، وفي أعماقي ترقد، وقد انفرطت من عينيَّ اليوم وبعد عشر سنوات دموع استعصت عليها .

١٥ ديسمبر ١٩٧٤

لم أكتب بالأمس. التقيت بسامي صباحًا .

قالت سميرة وأنا أحكي لها مساءً جزءًا من الحكاية :

ـ وددت لو التقطت فيلمًا سينمائيًّا لمجموعة الانفعالات التي تتابعت على وجهك وأنتِ تحكين .

وانفجرت ضاحكة وأنا أقول :

ـ وماذا لو راقبتِ المشهد مكتملًا؟ !

ولم تكن سخريتي مرة، ولا كانت ضحكتي دفاعًا مسبقًا عن الذات في وجه ضحكة قد تصدر عن الآخر. واتتني ضحكتي منسالة كمجرى صافٍ بلا سدود، وكأنها امتدت، متصلة، من يوم تعلمت أن أضحك .

وانتقل الحديث بيني وبين سميرة من موضوع إلى موضوع. قررنا أن حملة التزييف في الجرائد تهدنا ولا يتأتى أن يلتزم الناس الصمت في وقت تنبح فيه الكلاب. وجرنا الحديث عن الوعي الزائف إلى مناقشة رواية «ماركيز»، «مائة عام من الوحدة». توقفنا كثيرًا عند مشهد اغتيال رجال الشرطة للمتظاهرين في محطة السكة الحديد، التي أنكرتها في اليوم التالي المصادر الرسمية عمدًا، وغير الرسمية خوفًا، والكل يقرر أن ما مجزرة حدثت في محطة السكة الحديد. تأملنا كم يتشابه الحدث الروائي و«الحادث المؤسف» الذي يتكرر الآن ذكره في الجرائد عندنا. تسابقنا في الإشادة بعبقرية الكاتب في الإمساك بلب الحقيقة في عالمنا الثالث، وقدرة الإنسان على الخلق والتجديد والتجاوز .

وودعت سميرة لأنصرف، وعلى عتبة الباب وجدت نفسي أتوقف وأقول لها وكأني أستأنف حديثًا لم ينقطع :

ـ انفعالات العمر مكتملة .

واندهشت لأني لم أدرج من قبل انفعالاتي خلال لقاء سامي في هذا السياق .

*

ـ أهلًا يا سامي .

قلت بعد أن اجتزت عدة مناضد من شرفة النادي واتجهت مباشرة إلى حيث يجلس سامي موليًا ظهره إلى المدخل. من بين مئات الرجال لا تخطئ المرأة رجلًا أحبته يومًا. تعرف انحناءة ظهره، والعضل الذي يتوتر مشدودًا في مؤخرة رقبته حين يميل برأسه. تميز لون شعره حتى لو مسح الزمن لونه .

حين وقف سامي يحييني أدركت ما فعله بي الزمن، كان مرآتي. ونظرت بلاوعي إلى ساعتي، وأشارت إلى دقائق سبع بعد الحادية عشرة، وقلت لكي أخفي توتري :

ـ هل تأخرت؟

ونفى سامي حقيقة أني تأخرت. وقال إنه في الانتظار من الحادية عشرة إلَّا ربعًا لأن السلوك المتمدن يقتضي أن يكون الرجل في الانتظار وأن تتأخر المرأة بعض الشيء. وضحكت وأنا أعاود التعرف على هذه اللمحة من لمحات الرجل الذي هو حبي الأول. وأزالت الضحكة بعضًا من توتري .

قال سامي بعد أن زال توترنا معًا إن يديَّ كانتا ترتجفان على طرف المائدة. وقصصت عليه بعد أن زال توترنا معًا تمامًا ما حدث وأنا أركن العربة في موقف من مواقف النادي محاذيًا للشرفة، وسط عربات لا تضاهيها في ألوانها السوقية سوى ملابس الكرنفال يرتديها الأولاد والبنات .

وجدت مكانًا خاليًا بعد طول لف ودوران، والنادي يزدحم على غير ما عرفته من سنوات، بمئات من العربات المستوردة. وضعت العربة في المكان. وقبل أن أتنفس ارتياحًا لأن الأمر قد تم، انحدرت العربة من المرتفع الذي كانت تقف فيه إلى الخلف، وحاولت أن أرتقي المرتفع المرة بعد المرة وفشلت. عطلت العربة، وتساءلت في ضيق: ما العمل الآن؟ وكيف أعود إلى بيتي؟ وأي بداية سيئة هذه البداية؟ واكتشفت فجأة أن قدميَّ كانتا طوال المحاولة على «الفرامل والدبرياج»، وأن العطب كان في حواسي لا في العربة .

*

أعرف الآن أني قطعت مشوار عمري ما بين بداية توتري ونهايته، أعرف أني لقيت سامي لكي أفعل. أعرف الآن أن العطب كان فيَّ أنا لا في العربة .

*

بالأمس صباحًا، أيقظني اللقاء المنتظر مبكرة، أبكر مما أستيقظ عادة. بذلت مجهودًا لأتجمل، بعد سنوات كففت فيها عن التجمل. وقررت فجأة وبلا تدبير سابق زيارة الحلاق قبل لقاء سامي .

لا يستطيع الإنسان أن يتجنب المرآة عند الحلاق. لم أحب كثيرًا ما رأيت في مرآة الحلاق، غضون رقبتي تعايشتُ معها وهذه التجاعيد الخفيفة في جبيني وحول فمي. ولكن ماذا عن هذا الأخدود الأسمر الغامق أسفل كل عين من عينيَّ؟ لم ألحظهما من قبل .

بعد أن اكتملت تسريحة الشعر تحسنت الأشياء بعض الشيء. وحين وقفت أزيل بعض الشعيرات التي التصقت بثوبي وألقي النظرة الأخيرة على صورتي في مرآة الحلاق، حسبت أني مستعدة للمواجهة. ولم تكن هناك ثمة مواجهة. عرفت سامي في الرجل الممتلئ تمتد سوالفه مجللة بالشيب، وعرفني بالشحم الذي اكتنز به جسدي وأخدودين أسودين. وجدت سامي ووجدني وظل يردد طيلة جلستنا :

ـ بودي أن أقف فوق هذه المائدة، في وسط كل هؤلاء الناس، وأقول إني أحبك، وإني أحببتك دائمًا .

*

تأتَّى عليَّ أن أطلق سراح الصبية لأفلت بحياتي من بين ضلفتي باب مغلق. ولست أدري على وجه التحديد إن كانت نشوتي وأنا أفعل هي التي أثارت الفضول اللحوح المنبهر من جانب الجالسين من حولي، أم هستيريتي. ولا أهتم. لم أعد أهتم بالانطباع الذي أتركه في الآخرين .

بمجرد أن جلست وسامي حول المائدة لمحت زميل عمل يجلس على مقربة مني، وأدركت أن لقائي بسامي سيصبح خبر الموسم في أوساط عملي، وأسقطت عامدة الإدراك عن وعيي. وكان أن

نسيت الرجل تمامًا وأنا أضحك، أنتشل من عدم الصبية التي كنتها يوم التقيت بسامي، وأنا أضحك بوجهي، بيدي، بمكتمل جسدي، إلى حد قذف حقيبة يدي من فوق المائدة إلى الأرض. ووعيت للحظة أثر هذا الحدث على من حولي. ولم أعد أعي وضحكتي تستطيل منسالة، تصل ما انقطع وأنا أبني قصة حبي الأول، أصور المشاعر التي لم تجرؤ الصبية على تصويرها، أكمل الكلمات التي تعثرت على لسانها، وأحيا الصبية من جديد. وأنا الآن هي، كياني وهج، وجسدي وهج، يشع، يزغرد بتشوقات الصبية المكتومة، التي لم تعد مكتومة. وأنا الآن أنا، ومسام جسدي الخامد تتفتح، ترق، تعمق، وأنا أتواصل في لحظتي الراهنة مع سامي، أحكي له عن خططي للمستقبل ويحكي، أفضي باهتمامات حاضري ويفضي، يمنحني من لحظته الحاضرة وأمنحه، ما يعينني ويعينه على استكمال المشوار .

*

صباح اليوم فعلت ما تمنيت أن أفعله من سنين. في فورة حماستي للدفاع عن القرار الذي تبنيته في اجتماع اليوم، خلعت حذائي وطويت ساقي تحت جذعي. بعد أن مر القرار الذي أردت له أن يمر، استرخيت في جلستي على المقعد المريح كما أسترخي في بيتي .

وتنهدت ارتياحًا وأنا أعبر بكهولتي ما مضى من عمري إلى ما هو آتٍ .

الشيخوخة

هذه يوميات كتبتها من عشر سنوات وسقطت في زحمة أوراق منسية. حاولت تعديل هذه اليوميات لتعبر عن منظوري الحالي للحياة كامرأة وككاتبة وتبينت استحالة ذلك. فكل شيء يتغير ويتبدل وخاصة في المرحلة المتقدمة من العمر، ومنظور امرأة في الستين غير منظور امرأة في الخمسين، وإن اندرج الاثنان في كلٍّ متعدد الجوانب متناقض الوجوه يلقى التصالح في نهاية المطاف .

وقررت نشر هذه المذكرات كما هي، على أن أضيف لها بعض ملاحظات توافرت بحكم السن والخبرة، فما من تجربة شعورية تتكرر على نفس الصورة، وما من تصوير لتجربة شعورية يمسك بحقيقة في كليتها ولا في حركتها الدائبة. وإن كان هذا لا يلغي بحال صلاحية تصوير التجربة .

تربكني المرأة في الخمسين التي تطل عليَّ من هذه اليوميات وتفرحني وأنا في الستين. تفرحني بقدرتها على التجاوز، وتربكني بحدة مشاعرها واستطالة هذه الحدة. أفتقد في يومياتها ضحكتها التي تجاوزت بها كل شيء، وأعرف الآن أن لحظات تعاستها قد اندرجت في عشرات من لحظات الفرحة والحماس والاهتمام بما هو خارج عنها. وتخيفني في كل الحالات النهائية التي تكتسبها المشاعر العابرة على الورق .

أرصد مبتسمة ميل المرأة في الخمسين إلى التنظير، ولا أعود بحاجة إلى الاعتذار عن هذا الاتجاه الذي ظل يلازمني، أدرك بعد قراءة اليوميات أن التنظير كان دائمًا وسيلتي كإنسان للفهم وللتجاوز عن طريق الفهم، وأقول ربما أفاد الناس ما أفادني، بالرغم من إدراكي أن التنظير ينطوي بالضرورة على التبسيط والتسطيح، ويخضع بالضرورة للتغيير والتطوير. ويذكرني هذا بملاحظة أستبقيها حتى نفرغ من هذه اليوميات .

١٩٧٤

٢٧ سبتمبر ١٩٧٤

اليوم صباحًا وأنا بين اليقظة والنوم، وجدت نفسي أكرر عبارة: «شيء ما خطأ»، «شيء ما لا يستقيم»، بعد شهر من عودة ابنتي حنان من غيبة استطالت عامين. وللمرة الثانية في حياتي تعاودني الرغبة في تسجيل يومياتي ومواجهة الذات على الورق. وهذا يعني أني أقف على حافة الانهيار وأني أسعى واعية للإفلات .

تعين عليَّ اليوم أن أزيل تراب عشر سنوات عن يومياتي الأولى ولم أفعل. تسع سنوات لا عشر، لم أجسر على الاقتراب من الورق في العام الذي أعقب موت زوجي أحمد من عشر سنوات. ومع

انقضاء العام تأتى عليَّ أن أسجل يومياتي. كانت ابنتنا حنان في السادسة عشرة وأحوج ما تكون إلى أم قادرة على الوقوف على قدميها .

ويتأتى عليَّ الآن، بعد أربع سنين من زواج ابنتي، أن أواجه نفسي على الورق من جديد .

أتوقف لأتساءل: ألم تكن الرسائل التي أدمنت كتابتها لمدة سنتين طيلة غيبة حنان نوعًا من المذكرات؟ يزعجني السؤال ويزعجني أكثر استخدام «الإدمان» في صيغة السؤال. في وعيي اندرجت الرسائل التي كتبتها على مدى سنتين في إطار دوري كأم تسعى بكل كيانها لإنجاح زيجة ابنتها، وفي إطار حاجتي كإنسانة للإفضاء وللتواصل مع ابنتي، في فترة تداهمني فيها كآبة الشيخوخة وتتضاعف فيها الحاجة للإفضاء والتواصل .

وعليَّ أن أقر الآن أن تدبيج الرسائل يومًا بعد يوم وصفحات بعد صفحات تجاوز أحيانًا هدفه، وتحول أحيانًا إلى غاية في حد ذاتها. تكاثرت الخطابات رغمًا عني كما تتكاثر النباتات الوحشية. ولكني لم أقصر يومًا في واجبي، ولا تخليت يومًا عن واجبي كأم يعتمد وجودها على وجود ابنتها سعيدة ومتحققة: لم أودع صندوق البريد إلَّا القليل من الخطابات التي كتبتها في غيبة حنان .

ولكن ما دلالة بقية الخطابات التي ترقد في ملفات ثلاثة؟ عنوان الأول: «خطابات كتبت لتُرسل لحنان ولم تُرسل» (أقسى من أن تُرسل)، والثاني: «خطابات كُتبت لكيلا ترسل» (على غير ما هي في الحياة، تكتسب لحظات التعاسة على الورق رسوخًا ونهائية)، وعنوان الثالث: «خطابات غير موجهة إلى أحد» (لحظات التعرية الكاملة للذات التي لا يجوز لإنسان آخر الاطلاع عليها).

*

أدركت أن العلاقة بين حنان وزوجها قد استقامت في البعد، كما أردت لها أن تستقيم، بمجرد أن لمحتهما يعبران الممر المؤدي من صالة المطار إلى الشارع. شيء ما في الطريقة التي دفعا بها عربة الحقائب فيما بينهما جعلني ألهث ارتياحًا كمن جرى مشوارًا طويلًا وآن له أن يستريح. بمدى ما استشعرت الذنب والطبيب يشخص سبب اختلال علاقة حنان بزوجها، بمدى ما شعرت بالارتياح وأنا أرقبهما يدفعان عربة الحقائب فيما بينهما، ووحدة تجمعهما، تميزهما، تعزلهما معًا عن بقية البشر .

*

لم أستشعر القلق لحظة رصدت تحفظ حنان تجاهي عقب عودتها من السفر، آمنت أن ما بيني وبين ابنتي لا ينفصم. عشت معها كل لحظة من لحظات حياتها مكتملة، وهي تستعد لكل امتحان، وهي تترقب في خوف نتيجة كل امتحان، وهي تتجاوز بنجاح كل امتحان. وهي تلتحق بالجامعة وتتخرج، وهي تكبر وتتحقق . علَّمت ابنتي وعلمتني، قرأت معها كل كتاب وتبادلت معها كل انطباع. عانينا معًا أشواقًا لا تشبع للمعرفة، وحللنا معًا الأغوار السحيقة للنفس البشرية. اكتشفنا الدنيا معًا وتصفحنا الخرائط واقتسمنا التعليقات. في زحمة الناس تلتقي عيوننا، ترصد وتسجل،

وتتلهف للحظة تنداح الزحمة وتلتقي رؤوسنا ونحن نعلق على ما حدث. نفضي، نتواصل ونضحك. تداخَل نسيج حياتي ونسيج حياة حنان حتى كدنا نصبح واحدًا .

فرحتُ وحنان تلتقي بهشام في الكلية، وتخبطت معها وهي تتخبط، تتلمس بين الشك واليقين موقع الأقدام، ولم أتخبط. استرجعت معها كل حركة من حركات هشام وكل لفتة، وكل كلمة في خطاباته الخجلة الوجلة بعد أن سافر عقب التخرج للعمل في الخارج، وأشبعناها تحليلًا ونحن نحاول قياس مدى عمق عاطفته نحوها .

ولم يكن بُعد هشام عن حنان بقادر على الحد من حيويتها وانطلاقها، ولكن هذا البعد حد من قدرتها على أن تحب من جديد. وتأتى عليَّ أن أعلمها أن تمد يدها ولا تنتظر انتظار العاجز ليد تمتد إليها طوال الطريق. علمتها أن تحسم، أيًّا بلغت قوة الحسم، فإمَّا نهاية قصة حب طفولية لم تتبلور بعد في كلمات، وإما بداية حب يقوم على أركان اليقين من مشاعر الآخر. ومدت حنان يدها الخجلة المتخبطة لتلاقيها يد هشام، ممتنة، في منتصف الطريق. وعاد هشام من الخارج ليعلن خطوبته على حنان بعد أيام .

لا لم أستشعر القلق لحظة رصدت تحفظ حنان تجاهي عقب عودتها من السفر. قلت: الآن وقد استقامت علاقة حنان بزوجها، لم يبقَ سوى أن تستقيم هذه العلاقة بالعالم الخارجي، وتعود إليَّ كاملة، مزدهرة، قادرة على العطاء .

اختنقت المرة بعد المرة بالحاجة إلى التواصل مع حنان دونما إشباع، وتوهمت أني أستطيع الانتظار إلى الأبد، وبهدوء وثقة، عودة التواصل والقرب مع ابنتي .

وكان أن قذفتُ حنان بالملفات الثلاثة بعد أسبوعين من عودتها. وجلست، بلا حياء، أرقبها تتصفح رسائل لا يجوز لإنسان الاطلاع عليها. وكان أن أعادت حنان الرسائل في اليوم التالي دون أن تقوى على قراءتها .

*

عدت لتوي من العمل ومعي هذا الإرهاق العام الذي هو عرض من أعراض الشيخوخة... أتساءل وأنا أستند إلى باب الشقة المغلق ورائي: لِمَ يعاودني أحمد في الحلم وقد مات منذ عشر سنوات؟ ولِمَ يعاودني الآن وعلاقتي تتعثر بابنتنا حنان؟ أتساءل ما زلت، عن مغزى الطيور السوداء في حلم أمس الأول. هل هي طيوري أم طيور أحمد أم طيورنا معًا؟

يخطر ببالي وأنا أستند إلى ضلفة الباب المغلق إمكانية إدراج يومياتي هذه في نفس الدفتر الذي كتبت فيه يومياتي عام ١٩٦٥ بعد موت زوجي أحمد. أفتح درج المكتب الذي لم أفتحه منذ تسع سنوات. أرقب الدفتر بغلافه الأسود السميك يرقد في جوف الدرج، وأقفله دون أن أزيل عن الدفتر طبقات من تراب يتعين إزالتها .

*

يستوقفني اليوم زميل عائد من السعودية وأنا أمر بالردهة الرئيسية في مكان عملي... يسألني بعد السلامات والتحيات عن إنتاجي الروائي الأخير. بداياتي كانت واعدة، شد ما كانت واعدة، يقول، وأتمتم بشيء غير مفهوم كما اعتدت أن أتمتم بعد أن تحولت البدايات الواعدة إلى نهايات. ونفترق وأنا أردد بيني وبين نفسي: «شيء ما خطأ»، «شيء ما لا يستقيم»، ولا علاقة لهذا الشيء هذه المرة بابنتي .

لا أدين بالاعتذار لأحد، لن أحتج بانشغالي بدور الأم، فأنا أعرف أن مسؤوليتي نحو الآخرين لا تعفيني من مسؤوليتي نحو نفسي، لن أحتج بكآبة الشيخوخة فأنا أعرف أن العمل هو الكفيل بالخلاص. أعرف هذا عقليًّا، وأتساءل: هل استقرت هذه المعرفة في وجداني وشكلت سلوكي؟ !

يعزيني أني حاولت، لم أكف عن المحاولة، أوراقي مفرودة على مكتبي، على سريري، يومًا بعد يوم وليلة بعد ليلة، وأنا لا أكف عن العمل، أعدل وأبدل، أشطب وأغير، لا أرضى عن شيء ولا أرتضي شيئًا، أسعى إلى كمال لا طاقة لي به، أو كمال لا وجود له في هذه الدنيا. أترك عملًا وأسعى لآخر، على أمل أن يكون أفضل. والبدايات تتكاثر، بدايات بعد بدايات لا يُكتب لأي منها الاكتمال، وأنا أعمل ضد نفسي لا من أجل نفسي، أعمل وأنا شبه موقنة أن شيئًا ما لن يكتمل لي، أعمل منوطة بهزيمة نفسي وكأن شيطانًا يركبني .

ما لم أتمكن من مواجهة أسباب ودوافع هذا اليقين بالفشل الذي يلازمني لن يكتمل لي شيء أبدًا .

*

ـ التصاق جنيني بالأم يترتب عليه انعدام في النضج العاطفي .

قال الطبيب وهو يشخص سبب اختلال علاقة ابنتي حنان بهشام، بعد سنة ونصف السنة من زواجها. وصرختُ مفجوعة، رافضة تشخيص الطبيب. كان تشخيص الطبيب بمثابة إشهار إفلاس لي كأم، وبمثابة هزيمة لكل الأهداف التي استهدفتها في أسلوب تنشئة ابنتي، واعية ومتعمدة. جاهدت عمري وما زلت أجاهد ليكون لابنتي كيانها المستقل عني وعن الآخر، كيانها الذي يقف موقف الندية مني ومن الآخر .

وعيت تمامًا خطورة اتكالها النفسي عليَّ بعد موت أبيها وهي في السادسة عشرة. ولم أجد قط حاجة إلى ممارسة هذا الوعي... كان لحنان دائمًا عالمها المستقل عن عالمي، تتألق فيه مُحِبَّةً ومحبوبة. واتسع هذا العالم بعد التخرج والعمل، حتى كدت لا أراها يوميًّا إلَّا في الساعات الأخيرة من الليل. وكان تعبير «التسكع» من تعبيراتها الكثيرة إن لم تنشط في هذا الاتجاه أو ذاك من اتجاهاتها الثقافية المتعددة والمتجددة، وإن لم تنشغل بهذه المهمة أو تلك، أو تجتمع بهذه الشلة من الصديقات أو الأصدقاء، كانت تفسر غيبتها عن البيت بقولها: «كنت أتسكع في ميدان التحرير... في خان الخليلي... في الهرم... عند تمثال نهضة مصر... على النيل ».

كانت كفتاة تحب الزحمة والناس ومعالم القاهرة. ولم أرد لشيء ما أن يعوق انطلاقتها العارمة، ولا أن يوقف هذا النهم الذي لا يشبع لاكتشاف الحياة: عيناها تضويان وحدقتاها تدوران، لا تستقران أبدًا في موضعيهما، تستقطبان الضياء من الناس والأشياء وتعكسان الضياء على الناس والأشياء .

*

ـ أي التصاق جنيني؟

صرخت مفجوعة غير مصدقة. كان لي سنة ونصف السنة أقف على أطراف أصابعي، أصالح وأوفق وأنصح وأعلم وأحتضن وأدلل وأستمع إلى شكوى هشام ساعات وشكوى حنان، أقف في صف حنان مرة وفي صف هشام مرات، أعمل جاهدة على إنجاح زيجة تتوافر لها كل مقومات النجاح ولا تنجح. أعيد الأشياء إلى نسبها الطبيعية بين طفلين يعيشان المثال لحظة، وواقع اصطدام «الأنا» بـ«الأنا» لحظات، طفلان ترعبهما الهوة بين المثال والواقع، يتخبطان حبًّا وخوفًا على ضياع الحب .

واستوعبني الدور تمامًا وأنا أقوم بدور ربان السفينة لتبحر، حتى قال الطبيب :

ـ التصاق جنيني ...

وانخرطتُ منهكة مهزومة في بكاء طويل، وتلقفتني حنان في حضنها تهدهدني وتدللني، وكأن المشكلة مشكلتي لا مشكلتها .

ـ حنان ...

قلت ضاحكة باكية وقد استرخيت في حضنها :

ـ حنان... متي؟ وكيف؟ لقد كنت غائبة عني في الشارع طوال الوقت !

ولمعت عينا حنان يومها بخبث الطفلة وقالت :

ـ كنت أملك أن أغيب، لأني على يقين أنك موجودة تنتظرينني، أضع رأسي على صدرك ونحن نتبادل، قبل أن ننام، الحديث .

وكان أن جاهدت حنان بعدها للحصول على منحة دراسية. وسافرت هي وهشام لاستكمال دراستهما في الخارج .

*

التواصل مع حنان الذي كان يتأتى لي سهلًا حلوًا طليقًا كالنبع الجاري لم يعد يتأتى. في كل مرة أحاول الولوج إلى عالم حنان الداخلي تخطئ كلماتي وتصيب، من حيث لا أدري، موطنًا للألم. في كل مرة تخرج كلمات حنان مذبوحة، وكأني أقتطع الإفضاء من لحمها .

أصبح الكلام، مجرد الكلام، مع حنان كالمشي على الشوك .

*

باترة ابنتي، كحد السيف باترة، أيًّا بلغت قسوة البتر على ذاتها باترة. تحمِّل نفسها دائمًا وأبدًا أكثر مما تطيق. يخيل لي أحيانًا أنها تنام وتصحو، تجلس وتمشي، وهي تكز بأسنانها على شفتها السفلى، متحدية كل ما هو قاصر في هذه الحياة وظالم، كل ما هو فاسد ومزيف. يخيل لي أحيانًا أن سوطًا وهميًّا يسوطها لتنجز أكثر ما يمكن إنجازه، أفضل ما يمكن إنجازه، متجاوزة لكل طاقتها. وحين يضنيني شعورها الحاد بقصر الحياة تقول: «لي رفاق ماتوا في حرب ١٩٦٧، فهل مات لك في سن الشباب رفاق؟ ».

وأشفق أن أقول: أورثني استشهاد الرفاق في الأربعينيات في المظاهرات والسجون الشعور بالامتداد إلى المستقبل. وأشفق أن أقول، ونحن نقترب محبطين من الذكرى الأولى لانتصار حرب أكتوبر الموؤود، إن الإحباط العام هو الذي يورث قصر العمر لا الاستشهاد . ويبقى الإحباط ما لم يندرج شهداء ١٩٦٧ و١٩٧٣ في سياق مد شعبي جديد ينتشلنا من الوضع الذي تردينا إليه، متفرجين .

بعد هزيمة ١٩٦٧ تغير الكثير من منطلقات حنان بلا رجعة. قالت لي في لحظة إفضاء في أعقاب الهزيمة :

ـ سرقوا الفرحة من جيلي، ولن تكتمل لواحد منا أبدًا ضحكة .

وبعد شهور من زواجها قالت :

ـ ما هي السعادة؟

مشككة في دلالة الكلمة على أي معنى محدد، ونحن بمعرض مناقشة هدف أي ارتباط إنساني قائم على الحب بين الرجل والمرأة. وتأتى عليَّ أن أتنازل عن منطلقين من منطلقاتي الأثيرة لكي تبدأ المناقشة من أرضية مشتركة. استبعدت السعادة واقترحت استخدام تعبير «التكامل» أو «التحقق النفسي» كبديل. ورفضت حنان اقتراحي، وذهبت إلى أن التكامل والتحقق النفسي منطلق آخر من منطلقات الكبار. وبدأت المناقشة والهدف الأسمى للحب والزواج هو التوصل إلى حالة من التوازن النفسي والحفاظ على هذه الحالة .

يتأتى علينا أن نتعلم من أولادنا وإلّا عشنا بطعم المرارة في حلوقنا. منطلق حنان منطلق صحي سليم يجمع بين تقبل النسبي وصرامة الالتزام. ومنطلقي، بلا وعي، هو منطلق المطلق المستحيل. استخدامي لتعبير «السعادة» مثلًا ليس سوى بادرة بسيطة من البوادر التي تدل على تشبثي الساذج بكل ما هو مطلق .

المطلق الآن في عقلي قرين الموت، رهين برفض قانون الحياة المحكوم بنسبية الزمان والمكان والتغير الدائب. ولكن هل هو كذلك في وجداني؟

*

ما مغزى الطيور السوداء في حلم أمس الأول؟ أعود وأتساءل للمرة الألف. أسجل الحلم هنا في محاولة لفك طلاسمه. غالبًا ما أنسى أحلامي بعد اليقظة ولكن حلم الأمس محفور في مخيلتي .

رأيت زوجي أحمد حيًّا يجلس فوق صوان ملابسه يضيف تركيبة كهربية جديدة، في نفس الحجرة التي كان يعيش فيها. في الحلم أدرك أنه مريض، وإن كان قد تجاوز أزمة صحية. أفكر في أن من الممكن أن يتجاوز أزمة أخرى وأن تمتد حياته، وتسرني الفكرة. يغادر أحمد الغرفة ويغيب عن مدى رؤيتي. ألاحظ أن الصوان والأرضية يحدثان مسًّا كهربيًّا أستشعره وأنا أمر بالردهة خارج الغرفة (مسًّا خفيفًا ولكنه محسوس). أصيح أبلغ أحمد بوجود المس الكهربي .

ينقلني المس إلى مرحلة أقرب إلى الوعي، وأنا الآن لا أستشعره، ألاحظ شيئًا جديدًا. طيور ترقد على الصوان حيث جلس أحمد سابقًا، سوداء أشبه بالبط الأسود وإن لم تكن بطًّا. طيور يبدو أن مكانها الدائم هو هذا المكان. لم ألحظها في اللقطة الأولى وأحمد يجلس على الصوان، وإن لم أستغرب وجودها، وقد بدأت تنزل نتيجة للمس الكهربي صفًّا بعد صف، ويبقى نصفها تقريبًا في مكانه .

أقف في الردهة مرتبكة وأنا أتعثر في طير من هذه الطيور، متحيرة لا أعرف كيف أجمع شتاتها لأعيدها إلى مكانها، الذي يبدو في الحلم مكانًا دائمًا، مرئيًّا وغير مرئي، ومحددًا بحيث تختل الأشياء إذا ما اختل. أعاود النظر إلى غرفة أحمد ويواتيني الإدراك أنه مات .

في اللقطة التالية لا أعود أرى الطيور السوداء. تسترعي انتباهي مكتبة خاوية في غرفة أحمد (المكتبة في الواقع لي وهي موجودة في الردهة). أقرر، وقد وعيت أن أحمد قد مات، أن أنقل المكتبة الخاوية إلى غرفتي لأضع فيها بقية من كتبي. لا ألبث أن ألاحظ ما لم ألحظه من قبل: المكتبة ليست خاوية كما رأيتها في اللقطة السابقة. المكتبة مليئة بحزم أوراق في حجم الفولسكاب، وكل حزمة ملفوفة بأوراق سميكة من اللون الأزرق اللبني (لون الخطابات) ومصفوفة على شكل كتب. يخطر في بالي، في ذات الوقت الذي ألمح فيه حزم الورق، وأنا في مرحلة أقرب إلى الوعي، أن لا مكان في غرفتي لمكتبة جديدة .

يحيرني الحلم. لم يزل. عادة ما أستطيع أن أفسر أحلامي أو على الأقل بعضها، بالاستعانة بأوليات المنهج الفرويدي وبعض الإدراك اليومي. غالبًا ما أستطيع أن أرد هذا الحلم أو ذاك إلى هذا القلق أو الخوف المعين أو ذاك، أو هذه الرغبة الدفينة في تحقق هذا الشيء أو ذاك، ولكني لا أستطيع أن أرد حلمي هذا إلى شيء .

وأنا أحاول هنا أن أخرج بأسئلة يفتقر معظمها إلى إجابات محددة. الطيور السوداء هي قطعًا طيوري بمدى ما هي طيور أحمد (تعثرت بأحدها في الردهة). ولكن إلام ترمز هذه الطيور؟ الخوف من الفقد، من الموت؟ فقد مَن؟ زوجي أحمد فقدته بدل المرة مرتين، يوم انسلخ عني عاطفيًّا قبل أن يموت بسنين، ويوم مات قبل أن أستكمل معركتي المستميتة لاستعادة المستحيل. موتي أنا؟ لم أنخرط بعد في الشيخوخة إلى حد الخوف من الموت .

الحديث التلفوني الذي تلقيته من سمير منذ لحظات يذكرني بأني ما زلت امرأة مرغوبة، وعرض سمير بالزواج ما زال قائمًا، رغم رفضي له المرة بعد المرة .

ـ فكري في الأمر بجدية، سمير أحبك دائمًا وما زال يحبك .

قالت حنان، وأيد هشام القول في حماس، واعترضت سوسن صديقة حنان وهي تقول :

ـ المهم أن تبادله هي نفس المشاعر .

وتساءلت سوسن وهي تضحك إن كان هشام وحنان يريدان الخلاص مني والسلام، وحسمت أنا المناقشة في هدوء قائلة :

ـ سمير لا يستطيع أن يمنحني ما أنا بحاجة إليه .

وتوهمت لحظتها أني أعرف تمامًا ما أريد، ولم أعد متأكدة وأنا أتعثر في طيوري السوداء. إلام ترمز هذه الطيور؟ أهي خفايا النفس البشرية التي ترقد طبقة فوق طبقة في أغوار اللاوعي؟

وأكتشف الآن أني أسقطت من كل محاولاتي السابقة لتفسير الحلم شيئًا أهم من الطيور السوداء. المهم في الحلم هو هذه الحزم من الأوراق وارتباط ظهورها المفاجئ بالإقرار أن حجرتي لا تتسع لمكتبة جديدة. ما عسى أن تكون ماهية هذه الحزم من الأوراق؟ وعلامَ تدل؟ ولِمَ كانت ملفوفة بورق بلون ورق الرسائل؟ أهي أوراق مكتوبة تشير إلى ماضٍ مثقل لا أملك الإفلات منه؟ أم هي أوراق بيضاء (إمكانية الكتابة)، وتشير إلى تطلع لمستقبل خلاص لا أملك نفسيًّا الولوج إليه (حجرتي لا تتسع لمكتبة جديدة). أم هما الاثنان معًا؟ وما علاقة كل هذا بتعثر علاقتي مع ابنتي حنان؟ وبكآبة الشيخوخة التي تعاودني في موجات أحدَّ وأمرَّ؟

تبقى الأسئلة بلا جواب .

*

ظلت حنان تردد، منذ عودتها، السؤال: «هل تخليت عنك يا أمي بطريقة أو بأخرى؟»، وهي ترفض بإصرار الإقرار بأني أمر بآلام الشيخوخة، وتستبعد ضاحكة مثل هذا الاحتمال، وترجع حالة الاكتئاب التي أمر بها إلى غضبي منها أو إلى ما قد يكون قد التبس عليَّ من تصرفاتها بعد عودتها. وهي تسعى لتفهم، لا تريد لتصرف من تصرفاتها أن يغضبني أو يجرحني. وأوضحت لحنان المرة بعد المرة أنها جزء من حياتي، وليست كل حياتي، وأن اهتمامي بها جانب من اهتماماتي وليس كل اهتماماتي، وأن كآبة الشيخوخة عرض فيزيائي بحت لن يلبث أن ينقضي مع الأيام، وهو حدث يعرض لكل امرأة في سني. وأن حالة الكآبة التي تنتابني جاءت نتيجة لتراكم عوامل عديدة لم تساهم هي فيها إلَّا بالقليل .

وربما كان هذا الكلام صادقًا، وربما لم يكن. عليَّ أن أختبر هذه الحقيقة، فأنا أكتب هنا لأفهم، لا لأتقبل مسلمات تُفرض عليَّ أو أفرضها أنا على نفسي .

٢٨ سبتمبر ١٩٧٤

قرأت ما كتبت بالأمس. أهرب من الحقائق، ولا أعرف حتى من أي حقائق أهرب. إدراك هلامي ومبعثر يتبدى في هذه الصفحات التي كتبتها ولا يتبلور. كلمات تكاد تتجمع في جمل مفيدة ولا تتجمع. كلمات قلتها أنا؟ قالتها حنان؟ وأسقطتها الذاكرة عمدًا؟ !

ألف وأدور حول الموضوع دون أن أتغلغل في وقائع تضعني في صميم صراع يمزقني، صراع يتأتى عليَّ إن أردت حقًّا تجاوزه، أن أحدد طبيعته وأن أبلوره في كلمات. أسطر حلمي بزوجي أحمد في صفحات، وأتجاوز حدثًا محوريًّا في علاقتي بابنتي في سطور. أكتب :

وكان أن قذفت حنان بالملفات الثلاثة بعد أسبوعين من عودتها. وجلست، بلا حياء، أرقبها تتصفح رسائل لا يجوز لإنسان الاطلاع عليها. وكان أن أعادت حنان الرسائل في اليوم التالي دون أن تقوى على قراءتها .

لم أتوقف لأتساءل: لِمَ فعلت أنا هذا الفعل المجنون؟ ولِمَ في هذا التوقيت بالذات وابنتي تخرج من مرض عضوي لتدخل في الآخر؟ لم أتوقف لأتساءل: أي ريح عاتية تحملني، تسلبني إنسانيتي، تخرجني عن حدودي، تحبسني وحنان في بئر، تجعلني أحرق وأحترق دون أن أدري؟ لم أتوقف لأتساءل: في أي سياق مجنون اندرج هذا الفعل المجنون، ولا إلى أين يقودني هذا السياق؟ ما من فعل ينشأ من فراغ، وما من فعل لا يندرج في سياق. أي قسوة تنطوي عليها أعماقي؟ وكيف واتتني هذه القسوة في مواجهة ابنتي؟ كيف أصالح بين رغبتي الواعية في الانسلاخ عن عالم ابنتي لتستكمل ما بنَت في غيبتي، وبين رغبتي العارمة في إملاء جحيمي الداخلي عليها؟ تعمدت أن أغيب عنها وهشام لمدة أيام في الإسكندرية، وعدت لأُملي عليها رسائل «غير موجهة إلى أحد ».

«أكانت قسوة أم استغاثة مستميتة لغريق؟»، أتساءل .

*

لا أملك التوقف لاستجماع الأنفاس .

ـ أرجو ألَّا يكون هذا بداية تخليكِ عنِّي .

تقفز جملتي إلى الوعي من أغوار النسيان، تثقب كالرصاص عقلي... يداي تتشبثان بعجلة القيادة، وكأنها طوق نجاة، كياني يتركز في عينيَّ، وعيناي على الطريق خشية تصادم يبدو أن لا مفر منه، وأنا أقول لحنان: «أرجو ألَّا يكون هذا بداية تخليكِ عني ».

حنان، وقد صدمها قولي، تلتزم الصمت بعد أن أفاضت في شرح الموقف «لكيلا يلتبس الوضع». من الضروري أن تحد من رغبتها الطفولية في الالتصاق بي لتحمي هشامًا من الألم، ولترسي التوازن المطلوب في العلاقة ما بينها وبيني من ناحية، وما بيني أنا وبين هشام من ناحية أخرى، هذه العلاقة التي أصبحت بدورها حيوية لكلينا. وصمت ثقيل يسود العربة. ووجهي يطالعني في المرآة بشعًا .

كان هذا قبل أن أقذف بقطعة من لحمي تنزف دمًا... لا لأحد .

*

لا أعرف كيف غاب عني قولي لحنان بعد عودتها بأيام: «أرجو ألَّا يكون هذا بداية تخليكِ عني». في أي أغوار دفنته، وحنان لا تكف تقول: «هل تخليت عنك يا أمي بطريقة أو بأخرى؟»؟ في أي أغوار دفنته، وحنان لا تكف تتساءل: هل يشكل هذا القول نقطة تحول في علاقتي بها؟ وأنكر أنا، صادقة، المرة بعد المرة، أهمية هذا التساؤل. كنت مقتنعة تمامًا بسلامة موقف حنان وبضرورته، ومقتنعة تمامًا بصدور هذا الموقف عن منطلق لاأناني يكلفها الكثير. ولم أعِ سوى أن الأشياء لا تستقيم ودأبت على القول: «أنا مريضة يا حنان، وأنت مريضة، ومن الصعب أن نمد أيدينا بعضنا إلى بعض الآن». ودأبت على القول، وأنا أتقوقع وأتباعد: «أن أراك ساعة في الأسبوع مزدهرة ومتحققة، خير لي من أن أراك كل يوم مريضة ومبتئسة». وبدا كل شيء منطقيًّا وعاقلًا، وبدا كما لو كنت أستطيع أن أنتظر إلى الأبد، في هدوء وثقة، عودة التواصل بيني وبين ابنتي .

ولكني أعي الآن أني تغيرت، وأن تلقائية الأشياء ضاعت بيني وبين حنان من يوم قلت هذا القول. تحفظت في علاقتي بابنتي، وتلا التحفظ حالة تقوقع دفاعًا عن النفس .

وحاولت حنان منذ بداية عودتها التوصل إلى عالمي الداخلي المرة بعد المرة، ورفضت أنا عامدة أن أساعدها. شعرت أن من الإجرام أن أضاعف حملها النفسي، وهي تترنح فعلًا لا مجازًا تحت وطأة هذا الحمل. ثم كان أن توقفت حنان عن المحاولة بعد أن صفعتها بحقيقة عالمي الداخلي .

تراجعت حنان في رعب وخوف ما زال يتملكها حتى اليوم، تراجعت في محاولة لتحاشي ألم لا طاقة بها على احتماله، وهي مبررة في هذا التراجع تمام التبرير، فهناك حد لما يستطيع الإنسان تحمله من ألم بشري .

*

في محاولة للدفاع عن صورة الذات، للإبقاء على المعتقدات أو بالأحرى الأوهام الثابتة عن الذات، يعمل العقل على صد الإدراك، مرة بعد مرة، حتى لا يطفو على السطح .

إدراك الأشياء المؤلمة لا يتأتى إلَّا بإرادة الإنسان الواعية وسعيه الدائب إلى بلورة الإدراك. مثل هذا الإدراك يتشكل وفقًا لصراع مع ميكانيكية للعقل شديدة التعقيد تدفن الانطباعات في أغوار النسيان، انطباعًا بعد انطباع وتحول بين الانطباعات والتراكم والاندراج في سياق متصل ومفهوم .

١ أكتوبر ١٩٧٤

انفردت بحنان مرتين لمدة نصف ساعة، بالأمس حين زارتني واليوم صباحًا وأنا أوصلها إلى مبنى إدارة البعثات في الطريق إلى عملي. غالبًا ما أراها مع هشام أو في جمع من الناس، إما في بيتها أو في بيتي. يخيل إليَّ أحيانًا أنها أصبحت تتحاشى الانفراد بي .

دخلت حنان بالأمس صباحًا في الموضوع مباشرة. كانت حالتي فيما يبدو قد شُخصت فيما بينها وهشام، وتمخض التشخيص عن علاج ناجح جاءت حنان تطرحه عليَّ .

كان لديَّ الكثير مما أردت أن أقوله لابنتي، ولكن حنان، التي جاءت في مهمة عاجلة لإنقاذي، بدت متباعدة تباعد الطبيب، محايدة حياده. سريعة، حاسمة وصارمة. افتتحت حنان الجلسة قائلة :

ـ آن الأوان لكي تكملي ما بدأت .

وتطلعت إليها متسائلة: «أيًّا من بداياتي التي لا تكتمل تعنين؟». وأجابت حنان وهي ترى نظرة التساؤل في عينيَّ :

ـ سيرتك الذاتية التي أهملتها منذ سنين .

وتأسيت لأنها لا تعرف شيئًا عن بداياتي العقيمة الأخرى. وتذكرت أنها اطلعت على صفحات من سيرتي الذاتية التي لم أقربها منذ خمس سنوات .

وغبت عن حنان في دهاليز العقم ليلة بعد ليلة، وهي تفيض في شرح الإشباع الذي أستشعره في الكتابة الفنية ومزايا الانشغال بكتابة سيرتي الذاتية. ورفعت رأسي بعد طول إطراق، وقلت في سخرية خفيفة لم تفت حنان :

ـ تعنين كنوع من اللهو أو التلهية؟

ـ التلهية ذاتها هي ما تكتبين الآن .

قالت حنان في نهائية وصرامة، وهي تشير إلى هذه اليوميات .

وتساءلت أنا :

ـ هل قرأت يومياتي لتصدري هذا الحكم؟

ـ ولكني قرأت الرسائل .

واستدركت وصوتها يحتد :

ـ قرأت ما يكفي.. حرام.. حرام ما تفعلينه بنفسك.. هذا انتحار .

وقبل أن تهبط علينا سوسن (تتعمد حنان دائمًا أن يهبط علينا أحد)، قلت كلامًا كثيرًا لا أذكر الآن فحواه ولا حتى هدفه . ربما كان دفاعًا عن يومياتي هذه، وربما كان تبريرًا لانعدام قدرتي على الكتابة الفنية الآن. وقالت حنان شيئًا بدا في غاية الأهمية إذ ذاك، وخذلتني ذاكرتي وأنا أحاول أن أستعيده بالأمس .

*

بت ليلتي غاضبة غضبًا جنونيًّا من حنان، ربما لأني لم أستطع أن أصل إليها، كما فسرت هي غضبتي هذا الصباح ونحن في الطريق إلى مكتب البعثات. وكان شعوري، وأنا ألجأ إلى فراشي، شعور الغريق يتشبث بقشة، وأعز أعزائه يحاول أن يسلبه القشة. وأقسى ما في الأمر أنه يملك أن يفعل. حنان تملك أن تسلبني، غير واعية وواعية أحيانًا، هذا الاهتمام أو ذاك، بهذا الشيء أو ذاك .

ولست متأكدة الآن، وأنا أكتب هذه اليوميات من قدرتي على الاستمرار. ولكن يتأتى عليَّ أن أواصل برغم كل شيء، لأن خلاصي يعتمد على أن أفعل .

*

ونحن نعبر كوبري قصر النيل صباحًا، تذكرت فجأة ما قالته حنان بالأمس وأسقطتُه من ذاكرتي .

قالت حنان بالأمس :

ـ من الخطأ الفادح الاعتماد على شخص واحد. ماذا يحدث لو اعتمد عليَّ هشام اعتمادًا كليًّا، وحدث أن مت فجأة؟ !

وسألت والعربة تتوقف في إشارة المرور المؤدية من شارع قصر العيني إلى مجلس الأمة، عما عنته حنان بالأمس بهذا القول. وتراجعت في مقعد العربة منزعجة وتمتمت بارتباك :

ـ لم أعنِ اعتمادك أنت عليَّ، ربما أردت القول إن من الخطر الاعتماد على شيء واحد، لا شخص واحد .

وانحسر الضوء الأحمر، وقبل أن يرسب ما قالته حنان في وعيي توقفت العربة، وانسلت منها مهرولة إلى فناء مكتب البعثات .

٤ أكتوبر ١٩٧٤

لم أستطع أن أكمل ما بدأت في واحد أكتوبر. أكمل الآن، لا لأني أريد، بل لأن من الضروري أن أفعل. أي قوة شيطانية دفعتني بالأمس إلى الاستمرار في عملية تعذيب للذات والآخرين استمرت ساعتين؟

بدأت أنا الجلسة في بيت حنان كقاضٍ يجلس على منصة الحكم يُصدر الأحكام، باردة بلا انفعال، وأنهيتها شاكية منهارة، عارية بلا خجل ولا حياء، فاضحة لمدى حاجتي ومستجدية العطاء .

ربما لو كنت بالأمس أتحدث أو أتواصل مع أحد لأرهقني الوضع لحد الإغماء، ولكني لم أكن أتحدث أو أتواصل، كنت أفرغ شحنة من الغضب طال كبتها، ومن الألم ومن الإشفاق على الذات ومن الشعور القاتل بالوحدة وبالعجز والفقد، وكأنما أفرغها على الورق. كنت أصرخ في صحراء، وبلا معنى، بلا معنى على الإطلاق .

شيء ما مَرضي في رغبتي في تعرية الذات، في استباحة هذه الذات وهتك عوالمها الخاصة، شديدة الخصوصية. شيء ما مرضي جديد وقديم. أذكر بألم موجع الغصَّة التي استشعرتها فترة من الزمن، لأن زوجي أحمد لا يراني وأنا أمارس هذا الجانب من نشاطاتي أو ذاك .

ذبحت عوالمي قربانًا تحت أقدام المعبود، وضِعت لأني لم أستبق لذاتي شيئًا .

*

ـ وكأنك تحملينني تبعة شعورك بالإحباط !

قالت لي حنان، وكان تعليقها العاقل هو النتيجة الحتمية لمنطقي المجنون. بدأت الجلسة وأنا أقول فيما يشبه الموضوعية المحايدة التي هي في الواقع قمة الأنانية :

ـ أتعرفين يا حنان ما هي صورتك عن الذات؟ أنت تتصورين أنك إلهة صغيرة عليها أن تعدل مع الكل. ومن يبدأ برغبة العدل مع الكل لا يعدل مع أحد .

وتلوت حنان تحت وطأة الاتهام، وإن سايرتني، وحاولت أن ترد الاتهام وجدانيًّا وعقليًّا إلى أسبابه في سلوكها. أرجعت حنان ما سميته أنا بـ«الألوهية» إلى شعور بالأمومة يستوي عندها والشعور بالبنوة، وإلى حاجة لحماية الآخرين تستوي عندها والحاجة إلى حماية الآخرين. وهي تريد أن

تحمي هشامًا وتحتمي به، تريد أن تحميني وتحتمي بي. وللتدليل على كلامها سألت حنان إن كنت لا أشعر برغبتها في حمايتي، وهي تتوقع بالطبع الرد بالإيجاب، ووجدت نفسي أجيب بالنفي، في برود، وصادقة .

*

أنكرت بيني وبين نفسي أهمية قولي لحنان: «أرجو ألَّا يكون هذا بداية تخليكِ عني». كان إنكاري إنكارًا عقليًّا مفصولًا عن وجداني. كان رفضًا لخوف عميق ينخر كياني .

الخوف من فقد حنان فقدًا معنويًّا يدمرني. لم أكتشف هذه الحقيقة إلا في أثناء انفجارة الأمس .

يتلوى خطِّي ويتعرج، يعلو على السطر ويهبط. يتخبط الحرف في الحرف، والكلمة في الكلمة، يصبح خطِّي قبيحًا ينزف ويستنزف .

الإرهاق يشل يدي. غضبتي بالأمس حررتني من الإرهاق ومن الإدراك الإنساني، وأنا لست بغاضبة الآن. أنا خائفة من مواجهة الحقائق، ومن ثم هذا الإرهاق الذي يشل يدي ويجعل خطِّي ينزف ويستنزف .

*

الوضع وضع ثالوث، الوضع الكلاسيكي للثالوث، ربما كنت لاواعية وهذه حقيقة أواجه نفسي بها لأول مرة، أقول «ربما»، رفضت حقيقة وجود هذا الثالوث بمدى ما رفضه هشام .

ربما كان منشأ الأزمة هو شعوري أن الأمر، في ظل الثالوث، حُسم ونهائيًّا لصالح هشام. أكرر كلمة «ربما» لأني غير واعية بهذه الحقيقة على الإطلاق .

إن كان في هذا الافتراض شبهة حقيقية لانطوى الأمر على هوة عميقة بين رغبة الأم العقلية في أن تقطع الحبل السري الذي يربطها بابنتها (أعني الذي يربط ابنتها بها)، وبين رغبة الأم في الاستئثار بابنتها والاحتفاظ بها في رحمها. كنت أدفع حنان باستمرار لحسم الموقف لصالح هشام، فلماذا أغضب هذا الغضب الجنوني حين يتحقق هذا؟

الحسم يسلبني الدور الذي اتخذته ذريعة لوجودي، أو بالأحرى لانعدام وجودي في السنين الأخيرة .

*

يتأتى عليَّ أن أختبر كل احتمال، أن أصفع نفسي في المرآة بصورة أقبح من صورة، أن أخلص للحقيقة ولو خلصَت معها أنفاسي . لم يعد في الأمر اختيار .

*

بالأمس في نهاية الجلسة قالت لي حنان :

ـ ما زلتُ عاجزة عن الفهم. لِمَ يتسبب اقتراح استئناف سيرتك الذاتية في هذه الانفجارة؟

وكانت حنان محقة في عجزها عن الفهم برغم الأمثلة البلاغية التي سقتها للتدليل على عجزي: الشخص المبتور الساقين المطلوب منه أن يلعب كرة القدم، والخرَّاج المتقيح الذي يتأتى أن ينفجر، وما إلى ذلك .

وأتساءل اليوم: لِمَ أنا مبتورة الساقين؟ ومن غيري بترهما؟! وأتساءل اليوم وخلايا جسدي تتليف الواحدة بعد الأخرى: لِمَ أدمنت القيح؟ اقتراح كتابة السيرة الذاتية مظلوم ظلم الحسين إلَّا من حيث انطوى على رفض جديد من جانب حنان لمحاولاتي لإملاء جحيمي الداخلي عليها .

غضبتي بالأمس لم تكن غضبة. كانت ابتزازًا رخيصًا. وتعرية الذات جزء لا يتجزأ من عملية الابتزاز. كنت كالمحبة المهجورة تتخبط ما بين التهديد الأجوف والرجاء العقيم. تبتز بتعذيب الذات والآخر ما توهمت أنه كان، ويستحيل أن يعود .

*

في حومة الانفجارة قلت شيئًا عن ضرورة الدفاع عن معقلي الأخير، وحقي في الدفاع عن هذا المعقل. وصرخت حنان محتجة :

ـ غلط. غلط .

توهمت أني معقل حنان الأخير حين تعثرت زيجتها. توهمت زوجي أحمد معقلي الأخير. وما من معقل أخير خارج عنا. قدرات الإنسان على التجاوز هي معقله الأخير .

في مخيلتي يرتسم الآن وجه حنان شاحب البياض وقد انسحب الدم منه كما لمحته في آخر الجلسة... لم يعد الدم ينسحب من وجه زوجي أحمد، تكرار مشاهد الابتزاز أكسبه المناعة، فلم يعد يراني ولا يسمعني .

*

أزيل التراب عن دفتر يومياتي الأسود، يحمل تاريخ سنة ١٩٦٥. أتصفح يوميات امرأة في الأربعين من عمرها بعد سنة من موت زوجها. أتجاوز بدايات اليوميات إلى نهايتها. أتوقف عند صفحات أخيرة وأقرأ :

تأتى عليَّ أن أخرج من البئر التي انحبست فيها طوال زيجتي، التي استطالت سبعة عشر عامًا سعادة وتعاسة، أو ما توهمت أنه السعادة والتعاسة، وأنا أتحرق إلى مطلق مستحيل .

فقدت ذاتي بعد موت أحمد، وظللت ما يقارب السنة أبدأ الجملة ولا أستطيع تكملتها، أصارع لكيلا يغيب خبري عن مبتدئي، وأناضل لكي أجد بديلًا لمسمى من مسميات الأشياء التي نتداولها يوميًّا، يغيب عن ذاكرتي. تأتى عليَّ أن أكون، قلت وأنا أبدأ هذه اليوميات: من أجل ابنتي. وأقول وأنا أنهيها: من أجل نفسي. فاقد الشيء لا يعطيه. ولا يملك أن يهب الحب الحقيقي سوى الإنسان .

تأتى عليَّ أن أستعيد قدراتي العقلية والحسية التي أهدرتها فيما سميته «السعادة» في السنوات السبع الأولى، وتجنبًا لألم فوق طاقة البشر، استطال بقية زيجتي، وأحمد ينسلخ عني عاطفيًّا ولا يعود بحاجة إليَّ .

تأتى عليَّ أن أستعيد الكلمات لأبني من جديد لغتي التي لم تكن بلغتي وأنا أملك أحمد وأحمد يملكني، والتي لم تكن بلغتي وأنا أمارس، لاواعية، عملية ابتزاز طالت سنين، أستخلص من أحمد ما كان لي ولم يعد، أو ما توهمت أنه كان لي ولم يعد، صارخة، محتدة، باكية، مستجدية .

تأتى عليَّ أن أبني من جديد، كما يبني الطفل لأول مرة، بيتًا بالمكعبات، نظام قيم الإنسان التي لم تكن بقيمي، وأنا، بلاوعي، أفني وجود الآخر في وجودي، وأنا، بلاوعي، أفني وجودي في وجود الآخر. وأسمي الفناء «توحدًا» و«مطلقًا» و «سعادة» فوق سعادة هذه الدنيا .

وباختصار تأتى عليَّ، بعد موت أحمد، أن أولد من عدم وأن أكون، أن أبذر بذوري في الأرض، في أعمق أعماق الأرض حتى لا تدوسها الأقدام. ولن يعاودني الاطمئنان حتى أستشعر جذوري عميقة، خشنة في أحشاء الأرض .

ولم تكن تجربة المخاض على الورق بعد موت أحمد بالأمر السهل. ليس من السهل أن يحاصر الإنسان بلا رحمة ذاته، مزيلًا طبقة جميلة من الوهم الزائف بعد طبقة، ودرعًا مزوقة لخداع الذات بعد درع. ولكنه أمر أساسي إن أراد الإنسان أن يولد من عدم. ليس من السهل أن يتوصل الإنسان لحقيقة أن ما سماه «حبًّا» كان ضياعًا، وما سماه «عطاء» كان فناء في الآخر ووأدًا للذات، وما سماه «توحدًا» كان موتًا .

تحرُّقي للمطلق جعلني أخلق سعادة موهومة وأعبدها، أجن في محاولة استعادة وهم لم يكن أبدًا. تحرُّقي للمطلق سلبني إنسانيتي، حولني إلى اللاشيء وأنا الخالق والمخلوق. تحرُّقي للمطلق كان في واقع الأمر تحرُّقًا للموت .

أستمر في قراءة ملاحظات كتبتها امرأة في الأربعين في نهاية يومياتي «لكيلا تنسى »:

ملاحظات نهائية تُكتب لكيلا تنسى

● في أعماق كل منا ترقد رغبة كامنة في الموت، في الانزلاق إلى حالة اللاشيء والتخفف من عبء الوجود الإنساني والمسؤولية الإنسانية تجاه الذات والآخرين. وتتضح هذه الرغبة في السعي إلى التوصل إلى مطلق ما يلغي المكان والزمان. وإلغاء المكان والزمان لا يتحقق إلَّا في حالة الموت. ولا ينبغي أن تخيفنا هذه الرغبة، فالإنسان الذي يعيها قادر على تجاوزها .

● تنخرط في إطار هذه الرغبة في الموت الكثير من صور الحب، أو ما نسميه حبًّا، بين الرجل والمرأة. ونحن نسمي هذه الصور من الحب «توحدًا» والمحبان يستحيلان واحدًا. وما من توحد يواتي ندَّين من بني الإنسان. التوحد يعني وأد الذات لحساب الآخر، أو وأد الآخر لحساب الذات .

● علاقات الحب/الموت هذه تنطوي، كما اكتشفت من تطورات علاقتي بزوجي أحمد، على تبادل المواقع. كنت الخالق والمخلوق، الرب والقربان، المالك والمملوك، الوائد والموؤود، الشيء واللاشيء .

● بدأت لعبة التوحد وأنا المعبود وانتهت وأنا العابد .

● الرغبة في امتلاك الآخر تستوي والرغبة في أن يمتلكنا الآخر، والوضعان وجهان لنفس العملة: محاولة لرفض الحياة المحكومة بالتغير ونسبية الأشياء .

● لم يقتلني أحمد كما توهمت فترة أنه فعل. لا يملك أحد أن يقتل أحدًا: يدا القتيل في كل الحالات مخضَّبتان بدمه: عروس النيل تُقبِل راضية، تنزلق إلى المياه مستسلمة، يطويها الموج منتشية بأمل التوحد مع المعبود، بأمل أن تصبح المعبود .

● حاجة الإنسان إلى الإنسان حاجة مشروعة وبناءة، وهي تساوي حاجته لأن يصل ما بينه وبين العالم الأوسع والأرحب، وحاجته إلى أن يتزود بالدفء والقدرة على مواصلة الطريق الأشق والأصعب. وهي حاجة لا يملك سوى الإنسان أن يشبعها. وهو يملك أن يشبعها طالما ظل صاحبها وسيدها، لا عبدًا لها .

● حاجة المالك والمملوك إلى الآخر تساوي الحاجة إلى تغييب الواقع الحي، إلى وقف الحركة، إلى تثبيت المتغير، إلى مزيد من الانغماس في حالة العدم، وهي حاجة تلغي ما عداها، وتلغي كل من يتجاوز حدود طرفي اللعبة .

● في بئر ضيقة ينتفي فيها العالم ولا يكون، تدور لعبة الموت الدامية، وينهد العالم ولا يكون إذا أفلت أحد طرفي اللعبة من البئر، أو شاء أن يبدأ اللعبة مع طرف ثالث .

● العلاقات الإنسانية الحميمة تساعدنا على الخلاص ولا تشكل الخلاص، وهي تساعدنا على التوصل إلى معنى الحياة، ولا تشكل المعنى. المعنى يكمن في عمل يصلنا بما هو خارج عن الدائرة الضيقة لوجودنا الفردي الضيق .

*

أكتب هذا بسرعة لأسجل ما قاله هشام قبل أن تزول عني حالة الانفصام النفسي التي لازمتني وأنا أقرأ يومياتي القديمة، واستمرت طيلة زيارة هشام. أعرف بخبرتي أن هذا الانفصام بين المرأة التي تتفرج وتلك التي تشعر لن يلبث أن يزول .

الغريب حقًّا أن هشامًا لم يحمل لي الجديد الذي لا أعرف. بلور هشام في كلمات ما عرفت وتعمدت كبته في الأيام الأخيرة، و«الأنا» التي تفهم ما يقال تتفرج وكأن الأمر لا يعنيها، و«الأنا» التي تستشعر وطأة ما يقال تغيب تمامًا أو تكاد. فتحت فمها لتصرخ بشيء وبقي فمها مفتوحًا دون أن تتشكل الكلمات .

قال هشام :

ـ لقد علمتِني دائمًا درسًا مستفادًا من حياتك، وحرصتِ على أن تكرري لي ولحنان الدرس في بداية زواجنا. وهذا الدرس هو أن من الخطأ أن يعتمد الإنسان اعتمادًا كليًّا على الآخر، وأنا أدرك الآن كم هو حيوي وأساسي في أي علاقة إنسانية بين ندَّين. وقد استقامت العلاقة بيني وبين حنان بفضلك، وبمدى ما وعينا الدرس الذي هو محصلة تجربتك .

وكان هذا المدخل لكي يقول هشام :

ـ وأنتِ الآن تعتمدين اعتمادًا كليًّا على حنان .

وأن يضيف مستدركًا وممعنًا في التهذيب :

ـ وعليَّ .

القلم يرتجف في يدي. ليس هذا كل ما قاله هشام ولا أهم ما قال . «الأنا» التي تتفرج بدأت تنكمش، و«الأنا» التي تشعر تتمدد بشكل يؤذن بالانفجار .

قال هشام :

ـ عندما كنا بحاجة إلى مساعدتك لتستقيم الأمور بيننا، كنت تفعلين كذا وكذا ...

*

يتعين عليَّ الآن أن أقر بحقيقتين، حقيقة أني أعتمد على حنان اعتمادًا مَرضيًّا، وحقيقة أن حنان تضيق بهذا الاعتماد .

*

داهمني شعور قذف بي من مقعدي واقفة، والبرودة تجمد أطرافي. أشعر أن وجودي زائد على حاجة البشر. أجرُّ ساقي خلفي وأنا أتجول من غرفة إلى غرفة أبحث عن شيء ما، أتخبط في قطع الأثاث ولا أجد ما أبحث عنه. أدرك أن شيئًا ما كان يجب أن يكتمل ولم يكتمل، وأنا ما زلت أجرُّ وجودي الزائد على حاجة البشر من غرفة إلى غرفة .

ألجأ إلى سريري ورجفة البرد ترجني. أشد الغطاء على جسدي إلى قمة رأسي، ألتف به. تصطك أسناني من البرودة. ينعدم وزني وصوت في مؤخرة رأسي يقول: «لا تخافي لقد اجتزت من قبل هذه اللحظات ».

يواتيني رنين التلفون من الصالة ملحًّا يناديني وأنا أطفو فوق سريري عارية والغطاء حولي. يخطر ببالي أن من الضروري أن أجيب، وترعبني ضرورة عبور الردهة المؤدية إلى الصالة. «من الضروري أن أستمر في أداء الدور»، أقول لنفسي. أي دور؟ انتهى الدور، وشكرًا. قالوا: «ارفعي قبضتك عنا لنتنفَّس». ورنين التلفون ما زال ملحًّا يناديني. أي دور؟ «دور من يمارس الحياة»، أقول وأنا أعتدل جالسة في سريري .

في الردهة أجد طيوري السوداء في انتظاري. أصارع لأصرخ الصرخة التي لم أصرخها في وجه هشام ولا أجد الكلمات. أصارع لأتقدم في الردهة، والطيور السوداء تعلق بساقيَّ، ببطني، بصدري، تعوق حركتي، وحنان تصرخ: «غلط»، وهشام يصرخ: «غلط، أكبر غلط»، والكلمات تتشكل في عقلي ولا أصرخ، تلتصق الطيور كالخفافيش بوجهي. أهشها بشراسة لتعود، ونداء التلفون يلح، وتنفك عقدة لساني وأصرخ :

ـ أي التصاق جنيني؟

يتعلم الإنسان ولا يتعلم، إلى الرحم يدلف منتشيًا، بوشاح الحب متشحًا، بوشاح الأمومة متشحًا والابنة الأم والأم الابنة. وما من حبل سري .

تخرج الصرخة من فمي في نواح حيوان جريح :

ـ أي التصاق جنيني؟

والطيور تنزاح الآن عن جسدي فوجًا بعد فوج، أزيلها عن طريقي وأتحرك، تتقافز من حولي وأتحرك، أتعايش مع طيوري وأتقدم، أستجيب لنداء التلفون. أرفع سماعة التلفون ولا نداء. ملَّ المنادي .

*

تدور يداي بقرص التلفون خمس مرات في نشوة ملتاثة. كيف غابت عني حاجة سمير إليَّ؟ «نعم» سأقول لعرض سمير بالزواج، بلا أدني تردد، «نعم». أملك أن أعيد إليه الحماس الذي فقده،

والإيمان بالحياة. أملك أن أحيل عجزه قدرة، وتعثره استقامة، وأشلاءه الممزقة كلّا موحدًا. كيف تأتَّى أن أستشعر وجودي زائدًا على حاجة البشر، وحاجة سمير منذ سنين تستجديني، تسيمني العذاب، تطوقني، تحاصرني... تتربص لي متحفزة؟

تدور يداي ملتاثة منتشية على قرص التلفون خمس مرات وتتوقف عند الرقم السادس لتلفون سمير، وصوت في مؤخرة رأسي يقول: «هكذا تبدأ اللعبة ».

«ما أسهل أن يتحول اللاشيء إلى الشيء، إلى الرب واهب الحياة! هكذا تبدأ اللعبة»، يقول صوت في مؤخرة رأسي، «وأسوأ ما في الأمر أنكِ تبدئينها هذه المرة بلا أدني رغبة، وبوعي كامل بمدى خوائك، وفي محاولة لملء الفراغ وإيجاد بديل لحنان ».

أنكرت وجهي في المرآة، لم يكن وجهي، قال زوجي أحمد بعد أول مرة يسافر فيها بعيدًا عني: «عيناك مرآتي، وجودي يتوقف على وجودك، حين لا ترد لي عيناك صورتي لا أكون». وحلقت أنا فوق أرض غير الأرض، في سماء غير السماء، لم أعد الزوجة ولا الحبيبة ولا الإنسان. استحلت إلى الرب واهب الحياة. وجود أحمد يعتمد على وجودي وأنا الخالق لا أبخل على مخلوقي بشيء ولا أستبقي شيئًا . أسرني احتياج أحمد. أسرني احتياج حنان، ولا يقدر على الحب الحقيقي إلا الإنسان. وما من حب إلَّا بين ندين من بني البشر .

أضع سماعة التلفون، ويحدث اصطدامها بالآلة رنينًا معدنيًّا يحملنِي إلى درجة أعلى من الوعي .

*

تتخبط يدي، تسعى إلى دفتر يحوي أرقام التلفونات التي شكلت عالمي، تتخبط عيني تتصفح صفحة طويلة بعد صفحة. أسماء بعد أسماء. أسماء رجال ونساء، معارف وأصدقاء، رفاق عمر وعمل واهتمامات، أسماء حفرت لي الطريق ومهدته، ظللته بالرؤوس تتلاقى براحة الإفضاء، باللمسات العمياء تكتسب البصيرة على أيدي الآخرين، برجفة التعرف، بلمعة الاكتشافات المتبادلة، بانكسار الوحدة، بوحدة التواصل، بضحكات الاعتداد الإنساني، بوهج العقول تُسقط ستارًا من البلادة بعد ستار، تتوهج وهي تتناقش، تنصهر وهي تتناطح، تحمل الإنسان على الطريق خفيفًا متخففًا، تحمل الإنسان واثقًا متكاملًا، مغنيًا ومغتنيًا، خطوة بعد خطوة، سنة بعد سنة، أفقًا بعد أفق... أسماء عنت لي الكثير ولم تعد تعني شيئًا .

*

«ضاقت بي مدينتي»، قلت وأنا أقفل دفتري، وصوت في مؤخرة رأسي يقول: «لا مدينة لعروس النيل ولا أصدقاء . مدينة للرب ولا للضحية، ولا أصدقاء. المدينة والأصدقاء للإنسان ».

*

رن جرس التلفون. يواتيني صوت سوسن: «هل كنتِ في الخارج؟»، تسأل. «طلبت الرقم من فترة ولم يرد». «نعم»، أقول. «كنت في الخارج ولكني عدت». هل تستطيع أن تأتي لزيارتي وزوجها حمدي؟ تسأل. «نعم، نعم»، أكرر .

ويخطر ببالي وأنا أعيد سماعة التلفون أن حُزم الأوراق في حلمي لم تكن ملفوفة بورق أزرق زرقة ورق الخطابات، وإنما كانت مجرد أوراق بيضاء معدة للكتابة. ويخطر في بالي في ذات الوقت، أنه يتعين عليَّ، لكي أملأ الأوراق البيضاء، أن أستعيد مفردات لغتي .

1984

ملحوظة قابلة للتعديل والتحوير

الشيخوخة هي شعور الفرد بأن وجوده زائد على حاجة البشر، وأن الستار قد أسدل ولم يعد له دور يؤديه، وهي الافتقار إلى معنى الوجود ومبرره الناتج عن هذا الشعور. والشيخوخة بهذا المعنَى حالة، وليست مرحلة من مراحل العمر، وهي حالة نفسية وليست بالضرورة حالة فيزيائية، وإن أدت ربما قبل الأوان إلى عوارض فيزيائية .

والشيخوخة بهذا المعنَى مرض لا يصيب سوى الإنسان المريض. لا يشيخ الإنسان إلا إذا فقد قدراته العقلية أو جانبًا من هذه القدرات. قد يطعن الإنسان في السن ويضطر إلى تغيير عدسات القراءة المرة بعد المرة. قد لا تحمله ساقاه ويضطر إلى الاستناد إلى عكاز أو إلى ذراع بشرية، ولكنه لن يستشعر أبدًا برد الشيخوخة ولا الإحساس بانعدام الوزن ما ظل يناطح، يبدأ عملًا وينهيه، يقبل تحديًا فكريًّا أو ماديًّا ويتجاوزه، يتبين منتشيًا ومحتضنًا للذات المزيد من القدرة على المناطحة، على المعرفة وعلى التوصل للهدف .

لا يشيخ الإنسان طالما ظل عقله يضفي على وجوده المعنى، يغنيه بهذا الوهج المتواصل الذي لا يشتعل فجأة ويخمد، الذي يدفئ ولا يحرق، هذا الوهج الأزرق زرقة غاز البوتاجاز النقي، الهادئ هدوء اليقين .

الممر الضيق

وقفت الأم في النافذة بعد الظهر تستعجل عودة ابنتيها من المدرسة. وانحنت بجذعها خارج النافذة لعلها تلمح سهام ومنى من بعيد. ولم تلبث أن اعتدلت، وكأنها لا تتعلم من التجربة. لا يلمح الإنسان من هذه النافذة شيئًا من بعيد: بيت رمادي قديم على مبعدة بيتين يسد الشارع بالعرض ولا يترك سوى ممر ضيق، فيبدو الطريق وكأنه مسدود. ولن تظهر سهام ومنى في مرأى البصر إلا بعد اجتياز الممر الضيق، سهام تلقي برأسها إلى الخلف وشفتاها مطبقتان في إصرار، ومنى تلهث خلف سهام، تركض لتلحق بخطوتها الأوسع والأكثر عنادًا، تركض تتشبث بذراع سهام وكأنما تخشى أن تفلت منها فتضيع .

وتراجعت الأم إلى الخلف تمسح بظهر يدها حبات عرق تساقطت من جبينها إلى عينيها. شيء ما جدَّ على مشية سهام في السنة الأخيرة، شيء يوجع القلب. البنت تمشي وكأنما هي تتحفز للدفاع عن نفسها في معركة تنتظرها في الخطوة التالية، معركة تتجاوزها مع كل خطوة في أعجوبة ...

الشمس انحسرت بعض الشيء ولكن الحرارة ما زالت شديدة، وكأن بلاط الشارع يختزنها في الحفر، يعكسها كالهبوب، محملة بروائح التقلية والبول القديم والنفايات المتعفنة أكوامًا في الأركان. قطة تشارك أولاد أم محمد، فيما يبدو، في عملية فرز النفايات. تخرج القطة من كوم قمامة، تتمطى في ظل بيت، تتمدد تمسح ظهرها بلسانها راضية ومستكينة .

صوت صفارة القطار يدوي من جديد، يقطع سكون الظهيرة في الشارع، والقطة تزحف على بطنها مذعورة. المجنون الذي يسكن سطح البيت المقابل خرج كالعادة يمتطي قطاره الموهوم. يطلق صفارة البدء ويشهق ويزفر كما القطار، وساقاه وذراعاه عجل القطار. تتزايد سرعة القطار ببطء تدريجيًّا ثم ينتهي بالاندفاعة المجنونة. وكأن لا سور هناك يوقف الاندفاعة. هرب المجنون من الواقع إلى الوهم. لا ممر ضيقًا في دنيا المجنون ولا مستحيل. كل شيء ممكن في دنيا المجنون ولا شيء. يرتطم المجنون بالسور ويطلق صفارة البدء من جديد لينتهي من حيث يبدأ، ودمه يسيل .

دم المجنون يتراكم على السور يومًا بعد يوم ولا يكف ينطح السور. و«لا حول ولا قوة إلا بالله»، يقول عم جمعة، البقال الذي تحول في السنين الأخيرة إلى صاحب «بوتيك»، وهو يستمع إلى صفارة البدء. ومن مسجل الولد سيد، صبي الميكانيكي، الذي استحال إلى صاحب كشك للسجائر المستوردة والحلويات ولعب الأطفال والحبوب المخدرة والأعراض، يرتفع صوت سعاد حسني تغني أغنيتها الجديدة للمرة الألف .

الولد سيد القواد يسترق النظر إلى بيت مقابل، وبصحبته اثنان من الأغراب عن الحتة. لن يلبث الغريبان أن يختفيا عن الأنظار عبر الممر الضيق، بمجرد أن ينفتح باب من هذه الأبواب، التي

كانت مستورة في يوم من الأيام، ويسفر عن امرأة. مَن عسى أن تكون المرأة هذه المرة؟ أو بنت من؟

تعرف هي أن طريق الاستقامة أصبح الطريق الصعب، تعرف أن التيار جارف ولا شيء عاد يعز على التصديق. وتوجعها المفاجأة كل مرة ويطعنها الخوف والباب يسفر عن هذه الجارة الأليفة الوجه أو تلك، عن هذه الفتاة التي حملتها طفلة أو تلك، وسعاد حسني ترفض البطاطا ولا تكف تردد: «يا تجيب لي شيكولاتة يا بلاش يا ولد»، والذباب يغطي صدر أم محمد العاري وهي ترضع وليدها وبقية أطفالها من الصبية والبنات، لا يزيد سن أكبرهم على ثماني سنوات، يحملون إلى عشة الجريد المسقوفة بالطين في الأرض الخلاء القمامة المفروزة أولًا بأول، الخرق والزجاج وعلب الصفيح، وبقايا طعام قد يسد الرمق. ودم المجنون لا يكف يتراكم على السور. والعجيب حقًا ألا يجن العاقل .

في المطبخ تقشر الأم الباذنجان الرومي لتقلي شرائحه، والأرز لم ينضج بعد، أخرت المواصلات عودتها اليوم من المدرسة إلى البيت، وسيرتفع عويل منى لحظة تكتشف أن طعام الغداء لم ينته بعد . وسهام... حكاية سهام طويلة. بنت الحادية عشرة كبرت قبل الأوان .

في سن سهام كانت هي قطة مغمضة لا تعرف من أمور الدنيا شيئًا، تعلق ثوب العيد على جدار سرير أمها النحاس وتدور فرحة تتأمل الثوب طول اليوم، وتنام تحلم بلحظة ترتديه في الغد. لم تكن تعرف آخر خطوط الموضة ولا نوعية القصة والقماش الذي يتواءم مع الموضة، ولا بقية الأطفال، في الشارع والمدرسة على السواء، عرفوا. كان فستان العيد جديدًا وكان هذا يكفي ليجعله جميلًا في عينيها وفي عيون بقية الأطفال. يوم مرضت في عيد من الأعياد بقي ثوب العيد معلقًا على جدار السرير الذي تشارك أمها فيه ثلاثة أيام، تتأمله محمومة، يحملها فرحة إلى الشارع صاخبًا بالألوان والأطفال والضحكات والصرخات، بالصداقات تنمو فجأة، بالخصام ينداح وكأن لم يكن، بالانتماء، بالألعاب الوهمية يتقمص فيها كل طفل دورًا يأخذه بمنتهى الجدية، سواء كان من العسكر أو الحرامية، بعالم الطفولة المسحور يستغلق على الكبار، بلغته، باصطلاحاته، بمعاييره وقيمه التي تساوي بين الكل ولا تميز طفلًا عن طفل .

وخدش حد السكين أصبع الأم، وأدركت فجأة أن مواجهة ابنتها سهام أصبحت تخيفها أحيانًا. وغسلت أصبعها وراقبت الماء يتلون بالأحمر ثم يصفو، وأكملت ما بدأت. وآلمها الجرح وهي تغمس شرائح الباذنجان في الماء والملح، وقررت أن الدنيا تغيرت ولم يعد فيها طفولة ولا أطفال، والغنى والفقر والأسود والأبيض يتلازمان حتى في مدارس الأطفال، حتى في الحواري ...

سقط الفاصل بين عالم الكبار والصغار، وقدرة قادر تحيل الأبيض أسود، وقسوة المعيشة، تضفيان على الأسود وهج الذهب الوحشي الفتاك، والسطوة. والكل يرى ويعرف، ويشيخ بما يعرف .

ووضعت الأم المقلاة بالزيت على النار وحمدت الله لأن سهام لا تميل إلى الاختلاط وتعتذر عن الزيارات ودعوات أعياد الميلاد. وتساءلت وهي تنتظر تحول الدخان المتصاعد من الزيت إلى

اللون الرمادي الغامق، إن كانت سهام تكره الاختلاط فعلًا، أم تكره الظهور أمام زميلاتها في المدرسة بأثواب ترثها منى حين لا يبقى في ثنية الذيل مزيد للاستطالة؟

أمس الأول سألتها سهام سؤالًا لا يزال يصيبها بالذهول: تساءلت البنت عن ثمن السيارة «الرولز رويس» إن كان ثمن السيارة «المرسيدس» ثمانين ألف جنيه. ولم تصدق أذنيها لأكثر من سبب، فطلبت إعادة السؤال وأعادته البنت، وأجابت هي في حدة، متسائلة عن دخل سهام في كل هذا !

وهي تعرف الآن أنها احتدت عامدة لتكسب وقتًا لتفهم فيه فحوى السؤال أولًا، ولتفهم فيه ثانيًا مغزى توجيه البنت لمثل هذا السؤال الغريب. وخمنت أن «الرولز رويس» سيارة أغلى من «المرسيدس» وهو ما لم تكن تعرفه حتى لحظتها، وهي لا تستطيع أن تفرق بين السيارتين حتى الآن. وتعجبت من حقيقة أن في الدنيا سيارة بثمانين ألف جنيه وهو الاحتمال الذي تستبعده حتى الآن، وأن في مدرسة البنتين أهلًا قادرين على شراء مثل هذه السيارات. وفجعت لأن سهام تبدي اهتمامًا بمجال خارج على كل سياق متصور أو معقول في إطار أسرتها وبيئتها. ولم يزدها فهم فحوى السؤال إلا حدة، فطالبت البنت بالتزام حدودها والالتفات إلى دروسها .

وتساءلت البنت إن كانت تستطيع أن تشتري حين تكبر سيارة، ولو «نصر»، لو تفوقت على طول الخط وادخرت كل قرش ممكن من مصروفها وعملها حين تتخرج. وأربكها سؤال سهام واحتمت وهي تجيب بالمثل الذي يقول :

ـ لكل مجتهد نصيب .

ولم تصدق نفسها وهي تعيد كالببغاء المثل الذي صح قديمًا ولم يعد يصح. وإن تأتى أن يتمسك الإنسان بالمثل كما يتمسك الغريق بحبل النجاة، حتى لا ينحرف أو يصاب بالجنون .

وتراجعت الأم إلى الخلف والباذنجان يستقر في المقلاة، حتى لا يصيبها رشاش الزيت المغلي. وطالعتها نظرة سهام تتفحص ملابسها وهي في الطريق إلى العمل: «هذه التفصيلة قديمة لم يعد أحد يلبسها»، تقول سهام. «ربما لو قصر ذيل هذا الفستان يكون أفضل»، تقول وهي تتفحصها بنظرة غريبة، وكأنها تلميذة من تلميذاتها وليست بابنتها. كم هي موجعة هذه النظرة لسهام ذاتها ولها هي. كم هو مؤلم أن نرى أحيانًا بعيون الغرباء، وأن يرانا أحباؤنا بعيون الغرباء. نتعرى لحظتها ونُصاب ويُصابون بالاغتراب .

وقلبت الأم شرائح الباذنجان في الزيت المغلي وعاودها الشعور بالذنب وكأنما اقترفت جرمًا. سترصد سهام غياب اللحوم على مائدة الغداء لليوم السادس على التوالي، وإن كانت في حالة نفسية جيدة ستسجل هذا الغياب: «هل أكلت القطة اللحمة يا ماما؟ ».

وقد تجاري هي سهام في سخريتها أو تكتفي بالابتسام، وجو السخرية الخالي من المرارة، والمليء بالإفضاءات الصغيرة المتبادلة، يحمل الأسرة راضية إلى نهاية الوجبة. السخرية لا تهم ولا

التهريج. كل شيء يهون أمام صمت سهام وامتناعها عن التعليق... لم تعد تعرف كيف تعامل البنت، وهذا يجعل مهمتها كأم أصعب .

و«طش» الباذنجان المقلي وهو يستقر في طبق زجاجي به خل وثوم، وتساءلت الأم كم مرة أوشكت أن تصارح سهام بحقيقة الوضع المالي للأسرة. راتب الأب الشهري من وظيفته الأصلية والإضافية، إلى جانب راتبها هي من العمل كمدرِّسة ودخلها من الدروس الخصوصية، يغطي بالكاد مصاريف مدرسة البنتين والكسوة الضرورية ولقمة العيش في ظل الارتفاع الجنوني للأسعار. كل ضروريات الحياة تستحيل بالتدريج إلى كماليات. أدرجت اللحمة من سنين في بند الكماليات عدا يوم أو يومين في الأسبوع، وبعد اللحمة الفاكهة، ويأتي الآن الدور على الخضار. لم تعد قادرة على تقديم طبق سلطة أخضر يوميًّا على المائدة رغم أهمية الفيتامينات للبنتين. ولولا أن إيجار الشقة قديم لاستحالت حتى لقمة العيش .

كم مرة أرادت أن تشرك سهام كبالغة في تحمل المسؤولية وأشفقت. كم مرة استفزها الوجه العارف الغاضب، وشرعت تكمل المعرفة لتُذهب الغضب. كم مرة تراجعت، وطعنة لا تكف تفاجئها وهي تدرك من جديد، كل مرة، أن الوجه العارف وجه صغير، وجه طفلة أنضجها قبل الأوان عوز لم يكن على بال أحد، لأبوين متعلمين تعليمًا عاليًا، يعملان ما يزيد على الاثنتي عشرة سنة في وظائف حكومية في منتهى الاحترام، وعمارة أصبح يمتلكها الولد سيد القواد، ومحل بقالة تحول إلى «بوتيك»، وسيارة بثمانين ألف جنيه يمتلكها موظف من المفروض أن يماثل دخله دخل آباء التلميذات من الموظفين .

لن تكون هي والزمن حربًا على سهام. يكفي ما تعلمت قبل الأوان، ومسير الأيام تعلمها ما فيه الكفاية ويزيد .

*

ظهرت منى في مرمى البصر، على غير العادة دون سهام، مهرولة متدحرجة كالكرة، والحتة تتقيظ بعد القيلولة، والمجنون ما زال ينطح الصخر. وتوقفت منى تحت النافذة تشير بذراعيها إشارات مبهمة لم تفهم منها أمها شيئًا. ووضعت حقيبة المدرسة على أرض الشارع وبدأت تقفز في الهواء قفزة أعلى من قفزة .

وكادت الأم تصرخ هلعًا، وعجلة في الطريق يقودها صبي تتفادى منى بالكاد، ولم تصرخ. التقطت سهام حقيبة الكتب من على الأرض وسحبت منى مرغمة إلى البيت .

وتركت الأم باب الشقة مفتوحًا للبنتين، وتساءلت عما جعل منى تسلك هذا السلوك الغريب، وهي تتجه إلى المطبخ تسخن حلة خضار تبقت من طعام الأسبوع. وسمعت خطوات منى تهرول في الصالة ومالت تصب قليلًا من الماء على الخضار الذي تجمد في الثلاجة .

وكادت الأم تنقلب فوق النار والحلة، ومنى تطوق ساقيها من الخلف في اندفاعة مجنونة. وربتت على كتف منى لتفلت ساقيها واستدارت تواجهها. ورفعت إليها منى عينين تضويان بألف ضي وضي. ونأت الأم بنفسها وبمنى عن النار وهي تسحبها إلى وسط المطبخ تسأل :

ـ فيه إيه يا منى؟ فيه إيه يا حبيبتي؟

وأجابت سهام في احتقار وهي تقف على باب المطبخ مربعة الذراعين :

ـ حاتتجنن يا ستي... حاتمثل في حفلة المدرسة .

وأضافت منى في اعتداد جديد عليها :

ـ دور تاجر الحرير في رواية «هارون الرشيد ».

وأطلقت ضحكتها التي تشبه صياح الديكة وبدأت تدور حول نفسها دورة أوسع من دورة، ورنين ضحكتها يختلط بصفارة المجنون يقلع، والدائرة تتسع تكاد... وصرخت الأم في هلع :

ـ النار يا منى! النار !

وتوقفت منى لحظة واجمة تواجه النار والباذنجان المقلي، واستدارت، وقد أظلم وجهها، ثم التقطت أذنها صفارة القطار يطلقها المجنون، وضحكت ضحكتها تشبه صياح الديكة، واندفعت إلى الصالة تشهق وتزفر: قطارًا عجلاته ساقاها وذراعاها .

والتقت عينا الأم بعيني سهام وهي تناولها طبق الخبز لتضعه على المائدة، وعاودها هذا الشعور بالارتباك الذي يعاودها كلما حاولت أن تصل إلى قلب ابنتها الكبرى. وتعثرت الكلمات على لسانها، وحين خرجت جاءت نغمتها مزيجًا بين النغمة التي نخاطب بها الصغار وتلك التي نخاطب بها الكبار :

ـ وإنتِ يا حبيبتي دورك إيه في الرواية... الملكة؟

وتوقفت يد سهام لحظة في منتصف الطريق إلى طبق الخبز، وقبل أن ترخي جفنيها رصدت الأم النظرة العارفة التي ومضت في عيني ابنتها، نظرة تقول: «أتضحكين عليَّ يا أمي، أم على نفسك؟ أنا عرفت وضعي في الحياة وما من وهم يا أمي ينسيني وضعي ».

ومدت الأم يدًا مرتجفة تحتضن اليد الطفلة التي استقرت على طبق الخبز، واحمرَّ وجه سهام وسحبت يدها بالطبق في حركة عنيفة كادت تخل بتوازن الخبز. وعند باب المطبخ قالت سهام ربما في اعتذار، وربما في محاولة للإفلات من لحظة تواصل شعورية مكثفة :

ـ أنا جعانة يا ماما. عايزة آكل .

والتقطت الأم الخيط من ابنتها، وقالت متخففة بدورها من اللحظة الشعورية المكثفة :

ـ حاضر يا حبيبتي. بس لهّي منى شوية أحسن تفتح جعورتها .

ولكن منى لم تعد بحاجة إلى من يلهيها. أظهرت أثناء وجبة الغداء استغناء عن الكل، واستقلالًا أغاظ سهام التي تعودت أن تتبعها منى كظلها. ولم يكن الأب موجودًا ليشهد التطور الجديد في العلاقة بين البنتين، ولو كان موجودًا لما رصد التطور، فهو دائمًا مهموم بأمور المعيشة، خارج البيت وداخله .

لم تكد منى تمس الطعام، ظلت تضرب الصحن بالشوكة والملعقة ويدها تنتقل من جانب من الصحن إلى الآخر في رَوية ورشاقة، وأذنها تنصت إلى الإيقاع المتصاعد من الصحن تصوّبه كلما مال إلى النشاز. وحاولت سهام أكثر من مرة إلزام منى بالهدوء، واحتجت منى مرة واحدة بأنها تعزف الإكسلوفون، ثم لم تعد تسمع نواهي سهام. اختلطت أنغامها بصفارة البدء يطلقها المجنون وهو يقلع. ومع نهاية الوجبة حاولت سهام أن تعيد الأوضاع إلى ما كانت عليه بينها وبين أختها. اتجهت إلى غرفة البنتين المشتركة، دون أن تساعد كالعادة في جمع الأطباق وغسلها، وتعمدت أن تحدث ضجة بمقعدها وهي تغادر المائدة، وأن تبطئ من خطوتها لتهب منى مهرولة تلحق بها كظلها. ولم تغادر منى المائدة، بل لم تلحظ حتى أن سهام قد غادرتها. وطرقت سهام باب الغرفة خلفها في عنف لتجذب انتباه منى، ورصدت منى انغلاق الباب دونها بلا اهتمام. وصوَّبت النغمات تتصاعد من صحنها وهي تعزف «الإكسلوفون ».

*

استمرت تدريبات حفل المدرسة أسبوعين ومنى تخرج صباحًا من البيت مع سهام وتعود من المدرسة في الخامسة بعد الظهر وحدها. قاطعت سهام الحفل على أساس أنه تمثيل في تمثيل وقلة عقل أطفال. ورفضت في إصرار، رغم إلحاح أمها الدائب، انتظار انتهاء أختها من التدريبات لتعود بها .

وقالت منى، وقد عادت وحدها لأول مرة، إنها تعرف الطريق، وفي كبرياء جديدة عليها، أكدت أنها لم تعد صغيرة وبينها وبين التاسعة ثلاثة شهور عدًّا على أصابعها .

وبعد هذا الحديث الطويل سكتت منى وانزوت في محاولة دائبة ومتصلة للانفراد بنفسها. وتنبأت سهام بقرب إصابة منى بالجنون كلما مرت بها متكورة في هذا الركن النائي أو المظلم. ولم يعد البيت يرتج بصيحات الديكة تطلقها منى ولا بتعليقات سهام الساخرة تثير الضحكات .

وطوال الأسبوع الأول من تدريبات حفل المدرسة حاولت الأم وفشلت في انتزاع منى من دائرة العزلة، وفي إقناع سهام أن عزلة منى ليست جنونًا بل مجرد إرهاق بدني من التدريبات. وكان أن انشغلت عن ملاحظة الأعراض الغريبة التي بدأت تظهر على منى بتصحيح الكراسات وأعمال

المنزل. ولكن سهام لم تنشغل عن أختها التي خرجت من دائرة نفوذها تمامًا. رصدت بدقة الأعراض يومًا بعد يوم، وإن امتنعت عن التعليق حتى استفحل الأمر .

قبل حفل المدرسة بأيام انشغلت الأم بخياطة ثوب جديد لسهام اختارت قماشه بنفسها وجاءت بباترون للموديل من إحدى زميلاتها في المدرسة. وكانت الأم تجلس في الصالة تلفق ذيل الثوب الجديد وقد انتهت منه حين خرجت سهام من حجرة البنتين المشتركة على أطراف أصابعها وأشارت لها أن تتبعها .

وفي حجرة البنتين وجدت الأم منى تجلس على سريرها تحد النظر إلى لا شيء، وما بين اللحظة واللحظة تَضيق حدقتا عينيها وتتألقان ببريق وهاج وكأنما ترى رؤية بارعة الجمال. وقالت سهام :

ـ حاتتجنن، قلت لك حاتتجنن .

وأفاقت منى وكأنما من حلم وتطلعت إلى سهام ثم إلى أمها، ومسحت حبات من العرق تجمعت على جبينها وهي تتعرف عليهما، وأطرقت لحظة. وطافت نظرتها بالحجرة وتوقفت عند البلاط العاري، وأريكة تدلت أحشاؤها، وشق في الحائط المقابل يتعمق يومًا بعد يوم. وبدت نظرتها كنظرة فأر وقع في المصيدة .

وأشاحت منى بيدها تطلب إلى أمها وأختها الخروج من الحجرة، واستلقت على سريرها متظاهرة بالرغبة في النوم .

وخرجت الأم وهي على ثقة بأن ابنتها محمومة، تبحث عن ميزان الحرارة. ونسيت تمامًا أين وضعت الميزان، وسهام تحول بينها وبين التركيز، تؤكد أن منى لا تأكل على الإطلاق، وهي تقلب رفوف الصوان رفًّا بعد رف بحثًا عن الميزان. كم مرة انتوت أن تعيد ترتيب أشيائها، وما من وقت على الإطلاق في الدوامة التي يعيشها الإنسان في هذه الأيام لإعادة ترتيب الأشياء والتقاط الأنفاس، وسهام تعود منتصرة :

ـ بصِّي.. حتى السندويشات نسيت تديها للعيال زي ما بتعمل كل يوم .

وهي محمومة تبحث عن ميزان الحرارة، وسهام تؤكد أن منى لا تنام، تقضي الليل مفتوحة العينين مستلقية على ظهرها، ولكنها لئيمة، ما تكاد تلمح النور حتى تغلق عينيها متظاهرة بالنوم. وتعتدل الأم وقد وجدت ميزان الحرارة أخيرًا. تقول في لوم لسهام :

ـ منى عيانة يا سهام .

والأم تدس ميزان الحرارة في فم منى وتعود تدسه، والميزان لا يصل حتى درجة 37، ومنى تحتج قائلة :

ـ أنا مش عيانة .

والأم تعري منى، تقلبها، تتحسس جسدها جزءًا بعد جزء، متشبثة بفكرة وجود خلل ما جسدي يبرر السلوك الغريب، وجسد منى يتصلب تحت يدي الأم، يذكرها بعبث محاولتها، يرفضها، ينبِّيها، ينفيها .

وأطفأت الأم النور مخذولة ومنى تسدل الغطاء على جسدها حتى قمة رأسها .

*

أضيئت الأنوار في الصالة، وانفتح الستار ليحيي جمهور الأهالي أولادهم، وانسدل. والستار مفتوح، تبادل الأطفال على خشبة المسرح، والأهالي في الصالة والبناوير والألواج، البسمات والتحيات، والقاعة ترتج بكلمة «برافو» تتردد ما بين الحين والحين على نغمة التصفيق المتقطع، بعد أن تعب الأهالي من التصفيق الممتد .

وحاولت هي أن تسترعي نظر منى المرة بعد المرة وفشلت، وقفت منى على خشبة المسرح موجودة وغائبة. بمدى ما بدت سعيدة طوال المسرحية، بمدى ما بدت تعيسة وقد انتهت. طوال العرض بدت منى سعيدة مندمجة في دورها، وفي هذا العالم الوهمي الجميل الذي بدت جزءًا لا يتجزأ منه، وهي تتحرك واثقة الخطى، تتكلم بطلاقة غريبة عليها، وبانطلاقة لا حدود لها. خلصت منى لعالم الغناء والرقص والطرب والألوان الحريرية الساخنة والمجوهرات الماسية والتيجان الذهبية، وخلص لها. لم تخرج عن عالمها الوهمي ولو للحظة، ولم تشعر بشيء عداه. وكان أن أجادت دورها كما لم يجده أي من الأولاد والبنات المشتركين في المسرحية، ففيم الاكتئاب وقد انتهت المسرحية؟ وفيم نظرة الفأر وقد وقع في المصيدة وهي تقف بين أطفال يتألقون وهم يتلقون التحية؟

وطال انتظار الأم لمنى في ردهة المسرح الخارجية. ولو لم تسمح لسهام بالعودة إلى البيت مع الجارة وأولادها لأرسلتها لاستعجال منى. وراقبت الأم الأهالي ينفضون بأولادهم فوجًا بعد فوج. ومع انتظام النمط استطاعت أن تفرق بين من لا يملك من الأهالي سيارة، ومن يملك سيارة يقودها الأب أو الأخ الأكبر، ومن يملك سيارة يقودها سائق يلبس زي سائقي السيارات الملاكي كما في تمثيليات التلفزيون .

الأهالي المشاة ينعرجون بمحاذاة حائط المسرح، يختفون في الظلمة حتى قبل أن تنتهي درجة السلم الأمامي الأخيرة، والأهالي أصحاب السيارات التي يقودها الأب أو الأخ، يبرز الواحد منهم مفاتيح السيارة دون حاجة، وفي افتعال ملحوظ، ربما لأن منظر السيارات الفارهة تمرق لامعة، وتتوقف تسد باب المسرح، تداهمه مثلما تداهمها، وأصحابها يتلكأون أمام سياراتهم الفاخرة يتبادلون الحديث، والسائق بزيه الرسمي يفتح أبواب السيارة بابًا بعد باب، وتدلف النساء يجرجرن ذيولهن إلى السيارة أولًا، إما بأثواب السهرة المطرزة بالترتر والخرز، أو محجبات. ولكن أي حجاب يا إله السماوات؟ وأي كمية من اللولي الحر تعقد الغطاء على الرأس كالتاج، وتلتف على العنق اللين المرتاح كالسوار؟ !

والتقت عين الأم بعين أم أخرى تنتظر ابنتها أو ابنها، وابتسمتا ابتسامة كسرت الشعور بالغربة في هذا الجو المعادي والمستفز. تعرفت كل منهما على الأخرى كموظفة، وربما كمدرسة، وكل تلبس هذا «التايير» الكلاسيكي الصارم المعد للمناسبات، يعيش على مر الأيام، ويتغير على مر الأيام بوشاح جديد أو «بلوزة» جديدة وربما بوردة صناعية. وداهم الأم القلق وزميلتها الموظفة تودعها ملوحة وتغيب في الظلمة .

الفوج الأخير من الأهالي ينصرف ومنى لا تخرج. المكان الآن شبه خالٍ وأنوار المسرح تنطفئ بالتدريج، وهي لا تعرف فيم تأخير منى في الخروج هذا التأخير الطويل. وولجت الأم صالة المسرح ولمحت بابًا جانبيًّا وارتقت درجات السلم التي تؤدي إليه وسارت في ممر طويل يتسلل إليه نور من عتبة باب مغلق، وهي تنادي منى وما من جواب. ودفعت الباب ودخلت ووجدت نفسها في حجرة معتمة الضوء، مستطيلة كالممر، تتراكم فيها في فوضى ملابس التمثيل، خلعها الأطفال في عجل. وعاودت النداء دون جدوى. وفي نهاية الحجرة وجدت منى بملابس التمثيل مكومة في ركن من الأركان وهزتها :

- جرى إيه يا منى... مش حنروح بقى يا حبيبتي؟

وخفضت منى رأسها وضغطت بأسنانها على شفتيها واستسلمت بوجه مظلم لأمها وهي تخلع عنها ثياب التمثيل. وشاءت منى أن تستقل بارتداء ملابسها الخاصة. وتبعت أمها مستكينة .

وعند باب حجرة الملابس توقفت منى تلقي نظرة أخيرة على المكان ورائحة كريهة تنبعث من ملابس حريرية عطنة وبقايا طعام، وعلب مياه غازية وزجاجات تسيل بقاياها. تيجان ذهبية وفضية من ورق ملقاة على الأرض في إهمال، وزهور صناعية داستها الأقدام في الطريق إلى الخروج، وقلادة هارون الرشيد الذهبية سلسلة من الصفيح، تلتف حول عنق فانوس ورق بلا نور. واستدار فم منى وكأنها توشك على البكاء، وأقفلت الباب في بطء خلفها .

*

سالت دموع منى بلا صوت وهي تجتاز الممر الضيق في طريق العودة. وانتزعت يدها من يد أمها بمجرد أن لمحت الأطفال يجتمعون كعادتهم كل ليلة لمطاردة المجنون. وقطعت منى المسافة من الممر إلى البيت تجري، تحتمي من الحصى يندفع من الأرض ويتساقط من السماء .

وارتفع عويل منى في بير السلم والأطفال يتفرقون، يشيعهم المجنون باللعنات، ويعاودون التجمع يطاردونه بالحصى والضحكات، وأغنية تتردد للمرة الألف تعقد صفقة، ثمنها الشيكولاتة، لا البطاطا .

*

فتحت سهام باب الشقة، وتوقفت لحظة ترقب الدموع في عيني أختها الصغرى، ثم تراجعت تفسح الطريق. ووقفت منى في وسط الصالة تمسح دموعها بظهر كفها. وطوقتها الأم من الخلف، تربت كتفيها وتقبل شعرها. وأفلتت منى من ضمة الأم، وتجاهلت يد سهام الممدودة إليها، وسارت إلى غرفة البنتين المشتركة بخطى ثقيلة، ملقاة الرأس إلى الخلف، مطبقة الشفتين .

وأدركت الأم أن منى قد كبرت بدورها. وأصابها الدوار وهي تشعر بسرعة إيقاع الحياة. واستندت على طرف المائدة حتى لا تقع تحت وطأة الدوامة... سهام كبرت بعد العاشرة ومنى ولم تبلغ التاسعة من عمرها .

وطفرت الدموع إلى عيني الأم وهي تعتدل واقفة، وتذكرت أن أباها بكى يوم أدركت سن البلوغ وهي في الثانية عشرة. بكى أبوها خوفًا عليها في أيام كانت الاستقامة فيها هي القاعدة لا الاستثناء، على كل المستويات. واستشعرت فداحة مسؤوليتها الجديدة كأم. وترحمت على أيام زمان .

وتمنت الأم على الله، وهي تخلع عنها ثوب المناسبات، أن يعين البنتين على اجتياز الممر الضيق بسلام .

الصورة

استقرت عينا آمال على رشاش الموج يتخلف عنه في الأفق خيط متعرج يتلون من أشعة الشمس بألوان قوس قزح، طيف رائع لا يكاد يبين إلا إذا مال الواحد برأسه في زاوية معينة وحَد النظر. أشارت إلى الطيف لزوجها وهو يجلس أمامها عبر المائدة في الكازينو المطل على ملتقى البحر والنيل في رأس البر، ولم يستطع أن يلمحه.. ليته يلمحه.. الطيف يختفي وهو موجود. ويخيل للإنسان أنه موجود وقد اختفى مع الأمواج وهي تنحسر عن صخور اللسان الذي يمتد عند الملتقى.. ستعود أمواج البحر تنطح الصخر من جديد ويعود الرشاش يتصاعد.. وصرخت آمال في نشوة :

ـ أهو يا عزت أهو .

وأمسك ابنها «مدحت» بذيل ثوبها وهو يتتبع نظرتها ويقول :

ـ فين ماما فين؟

وتبددت نظرة الملل في عيني عزت وانفجر يضحك، وصاح أفندي مطربش يلبس البذلة كاملة بما فيها الصديري :

ـ دبش يا أفندم دبش .

وقرع الطاولة بالحجر، وازدرد الرجل السمين الذي يلاعبه ريقه، وأزاح فتحة الجلابية السكروتة البيضاء وهو يمسح عرقه، وهز مصوراتي عجوز يلبس بذلة سوداء صبيه الذي نام مستندًا على جردل التحميض، وصاح بائع الطمبولا وهو ينفض الرمل عن قدميه الحافيتين :

ـ مش جايز تكون إنت الكسبان؟

وابتسمت آمال بسمتها الخجلة المعتذرة، ثم أصابتها عدوى الضحك فضحكت مع عزت دون أن تعرف لمَ ضحكت. وتوقفت عن الضحك فجأة وهي تدرك أنها سعيدة ...

وطلب مدحت جيلاتي وتلفت عزت يبحث عن الجرسون، وتسمرت عيناه عند مدخل الكازينو، وابتسم، لوى شفته الغليظة إلى أسفل وقد تبللت بالريق، وامتدت يده بلا وعي ففتحت زرارًا جديدًا من أزرار قميصه الأبيض، وانكشفت مساحة واسعة من شعر صدره الغزير .

واحتلت المائدة خلف آمال امرأة في حوالي الثلاثين من عمرها، تلبس «شورت» يكشف عن ساقيها البيضاوين الممتلئتين، وتلف شعرها المصبوغ باللون الأصفر بمنديل من «الجورجيت»

الأحمر المحلى بالفل الأبيض، ومعها امرأة أخرى في حوالي الخمسين من عمرها، تكشف فتحة ثوبها عن صدرها الأسمر المليء بالغضون. وصفق عزت في عنف ينادي «الجرسون»، وهو على مقربة منه تكفيه إشارة :

ـ ثلاثة، ثلاثة جيلاتي .

وهال آمال إسراف زوجها المفاجئ وهمست وقد احمر وجهها :

ـ كفاية اتنين يا عزت، أنا مليش نفس .

ولم يبدُ على عزت أنه قد سمعها، راح يردد بصوت محموم :

ـ ثلاثة جيلاتي، أيس كريم، مشكل، فاهم؟

وحين ابتعد الجرسون ناداه عزت من جديد وقال وهو يضغط على مخارج حروفه :

ـ هات واحد منهم لبن، أيوه لبن.. قشطة.. كريمة !

وابتسمت آمال في انتصار وهي ترتخي في جلستها... «منين يا حسرة؟ منين تصيفوا؟»، قالت أمها. «منين؟ من الخمستاشر جنيه اللي بياخدهم كل شهر؟ حوشت؟ أتاري يا بعيدة إيديك اتشققت من الغسيل وانسليتِ؟ ويا ريت كان بني آدم بيفهم ولا بيقدر، إلا راميك رمية الكلاب يا بعيدة، ودايرِ على حل شعره »...

وأطبقت آمال شفتيها في سخرية... هي وعزت أخيرًا، معه دائمًا، هي وعزت في إجازة في رأس البر في اللوكاندة. خمسة عشر يومًا بلا طبيخ، بلا غسيل، بلا مسح، بلا حر، بلا انتظار. وأمالت رأسها إلى الخلف في كبرياء تعيد خصلة من شعرها الأسود الفاحم إلى مكانها... ولمحت عيني عزت وغص حلقها ...

النار من جديد في عيني عزت. عينا عزت التي لم تعد ترى، تحلق على الأشياء ولا تستقر عليها أصبحت ترى، اشتعلت النار الآسرة المستكينة من جديد في عيني عزت. النار التي تحرق وتئن.. تلك النظرة؟! هل نسيتها أم تعمدت أن تنساها حتى لا تفتقدها؟ المهم أنها عادت وكأن لم يكن بدونها أمس... أهو المصيف؟ أهي الإجازة؟ المهم أنها عادت تلفها بالحمى من جديد... ولمحت آمال يد عزت الداكنة السمرة وقد نفرت عروقها وعصفت بها رغبة جامحة في أن تميل عليها وتقبلها. وطفرت الدموع إلى عينيها وقربت مدحت منها بيدين متخبطتين وانحرفت قبلتها من خده إلى أذنه، واحتضنته، وحين انطفأت الفورة التي اجتاحت جسدها أفلتت مدحت وراحت تتلمس الطيف من خلال دموعها وهي تميل برأسها إلى جانب .

يجب ألا تنخدع، أهذا هو الطيف حقًّا، أم طيف دموعها؟ «بكرة تبكي بدل الدموع دم » ، قالت أمها، وأبوها قال: «إنت صغيرة يا بنتي وبكرة الحب والكلام الفارغ ده يروح ولا يفضلش غير

الشقا». وهزت آمال رأسها وكأنما تزيح ذبابة حطت على خدها وتمتمت: «إنتم مش فاهمين.. مش فاهمين حاجة، أنا... أنا لقيت الحاجة اللي طول عمري بأدور عليها»... واحتضَنت عيناها الطيف، وأفاقت على صوت معدني مشروخ وكأس الجيلاتي تحتك برخام المائدة :

ـ ثلاثة جيلاتي، اثنين مشكل وواحد لبن .

ـ اللبن عليَّ أنا يا سيدي، كفاية عليَّ أنا القشطة .

قال عزت وهو يضغط مخارج حروفه ويبتسم ابتسامة ذات معنى في اتجاه.. أي اتجاه؟ وضحكة نسائية خليعة ترد على الابتسامة. وأحاطت آمال الكأس المثلجة بيديها وانكفأت وهي تراقبها.. فراولة.. فسدق، والأصفر؟ منجة؟ مشمش؟ صبغة مجرد صبغة.. مستحيل ..

وقال عزت لآمال :

ـ ما تاكلي .

وأمسكت بالملعقة وقربتها من الجيلاتي ثم أعادتها إلى مكانها وعادت تحتضن الكأس. ووجه عزت الكلام إلى مدحت :

ـ طِعم الجيلاتي يا مدحت؟

ـ طِعم يا بابا .

ـ طِعم زيك يا حبيبي إنت .

وضحكة ثانية ترن خلفها.. وتصلبت يدا آمال على الكأس المثلجة وبخار كالدخان يتصاعد منها، بخار ثلجي بارد. ورفعت عينيها وأدارت رأسها دون أن ترفع كتفيها، بلا رغبة، في بطء، في خوف من أن يراها أحد، في خوف من أن يرصد عزت حركتها. ورأتها.. بيضاء كما الحائط.. كما الشمع.. كما اللبن.. كما القشطة. والتقت عينا آمال بعيني المرأة البيضاء ذات «الشورت» برهة خاطفة، وارتجفت شفتها السفلى، وارتد نظرها إلى الكأس، ورفعت رأسها وكتفيها، وجلست متصلبة تأكل .

وأخرجت المرأة ذات «الشورت» من حقيبتها سيجارة وتركتها تتدلى من شفتيها حتى أشعلتها المرأة ذات الصدر العاري، وبدأت تنفث دخانها تجاه آمال في تحفز، ولكن آمال لم تعاود النظر إليها.. المرأة فاجرة.. ما يكاد عزت يتكلم حتى تضحك.. فاجرة لا شك في ذلك وعزت مظلوم .

وفرغ مدحت من أكل الجيلاتي، وبدأ يتلفت حوله في ملل، وتكورت شفتاه وكأنه على وشك البكاء، وقال :

ـ اللسان.. أروح اللسان .

وتنهدت آمال وقد انزاح هم كبير، فقد أتى الفرج، وستغور من وجهها هذه المرأة الفاجرة إلى الأبد. ومالت آمال برأسها إلى جانب وهي تبتسم، وقالت وهي تبرز مخارج الحروف وكأنما تلعب دورًا أمام جمهور من المشاهدين :

ـ حاضر يا حبيبي.. حالًا.. دلوقت حالًا بابا وماما ياخدوا مدحت ويروحوا اللسان .

وأزاحت مقعدها إلى الخلف وهي تضحك ضحكة قصيرة مفتعلة، وقال عزت في عنف لا مبرر له :

ـ على فين؟

ـ الولد عايز يروح اللسان .

ـ وبعد اللسان نروح فين؟ نروح ننكتم في اللوكاندة من دلوقت؟

وانفجر مدحت باكيًا وهو يدب الأرض بقدميه، وقفزت آمال تضمه إليها في عصبية: «عزت؟ عزت عايز.. مش ممكن.. مش ممكن يا رب »...

وانزعج مدحت من عنف الضمة، واشتد عويله وصاح عزت :

ـ اخرس .

ولم يسكت مدحت، وقفز عزت وانتزعه من حضن أمه وضربه على يده ضربتين متتاليتين ثم جلس وهو يقول وكأنما يبرر موقفه للآخرين :

ـ أنا ما عنديش أولاد تعيط .

وعادت آمال إلى مقعدها، وانسابت الدموع من عيني مدحت بلا صوت، وتجمعت في ركن فمه، وقالت المرأة ذات «الشورت» بصوت مبحوح ممطوط وكأنما استيقظت لتوها من النوم :

ـ تعال يا روحي، تعال عندي أنا .

وأخرجت من جيبها قطعة من الشيكولاتة مغلفة بغلاف أحمر :

ـ تعال يا حبيبي أنا، تعال خد الشيكولاتة .

وسحبت آمال مدحت نحوها، ومالت المرأة ذات «الشورت» برأسها إلى جانب ووضعت ساقًا على ساق، وابتسمت ابتسامة خفيفة وهي ترمي قطعة الشيكولاتة على المائدة على مرأى من مدحت، وأسندت آمال رأس مدحت إلى صدرها وراحت تربت بيدين مرتجفتين على شعره، واستكان مدحت على صدر أمه لحظة ثم رفع ذراعه يمسح دموعه. ومن خلف ذراعه بدأ يسترق نظرات خاطفة إلى قطعة الشيكولاتة. وأشارت المرأة ذات «الشورت» لمدحت بأصبعها وهي تغمز بطرف عينيها. ودفنت آمال رأس ابنها في صدرها، «مش ممكن، مش ممكن يروح لها.. عزت.. مدحت.. عزت مش ممكن يبص لها». وتملص مدحت من قبضة أمه في حركة مفاجئة وجرى إلى المائدة المجاورة. وانطلقت الضحكة الخليعة من جديد منتصرة مجلجلة .

وهمست آمال وقد ازرقت شفتاها :

ـ روح جيب الولد .

وابتسم عزت في تحدٍّ :

ـ ما تروحي تجيبيه إنت .

واختنق صوتها :

ـ إحنا مش شحاتين .

ـ ودي فيها شحاتة إيه؟ ولا عايزه الولد يطلع كاشش زيك؟

ولم تنظر آمال إلى المائدة من خلفها حيث جلس مدحت على حجر المرأة ذات «الشورت» يأكل الشيكولاتة ويلوث فمه وذقنه ويديه وقميصه.. وودت لو استطاعت أن تمسك به وتضربه حتى... ولكن ما ذنبه؟ الذنب ذنبها هي .

وقالت المرأة ذات «الشورت» في صوتها المبحوح الممطوط :

ـ برافو علينا، خلصنا الشيكولاتة ودلوقت نقوم نغسل إيدينا .

وقفزت آمال واقفة وقد شحب لونها، ومضت المرأة ذات «الشورت» تتثنى في مشيتها وهي تجرجر مدحت خلفها. وقال عزت في صوت ناعم وهو يضع يده على كتف آمال :

ـ خليك إنت وأنا حأجيب الولد .

وظلت آمال واقفة ترقبهما، المرأة وبيدها مدحت، المرأة وخلفها عزت، ترقبهما وهما يعبران الشرفة الخارجية للكازينو، ومن خلف الزجاج يعبران الصالة الداخلية، وهما يضيعان خلف جدران المبنى، المرأة أردافها تهتز وكأنما انفصلت عنها وخلفها عزت ينكفئ إلى الأمام وكأنه على وشك

أن ينقض عليها، ولا ينقض، خطوة وراء خطوة، خطوة لصق خطوة، خطوة لزجة إثر خطوة لزجة... «لأ يا عزت مش كده.. إنت بتخوفني، بتخوفني كده يا عزت»، وهي تتهالك على صخرة في المغارة في حديقة الأسماك، وعزت يلهث.. «لو تتصوري.. لو تتصوري قد إيه بأحبك يا آمال».. وشفتاه تتكوران وعيناه نصف مغمضتين، ونظرة قطة تنادي وليفها. نظرة تحرق وتئن... عزت والمرأة الأخرى.. عزت يشتهي.. مستحيل .. مستحيل .

ـ صورة يا هانم .

وتهالكت آمال على المقعد وهي تشير إلى المصوراتي العجوز بالابتعاد... «لأ يا عزت... لأ ما تحطش إيدك على رقبتي كده. الناس تقول إيه لما تشوف الصورة؟ تقول بأحبك. لأ وحياتك بلاش يا عزت . آدي الصورة طلعت يا ستي وإيدي على رقبتك وبالشكل ده مش حتقدري تفلتي مني أبدًا »...

ـ صورة كارت بوستال بعشرة صاغ وفي الحال يا هانم .

قال المصوراتي العجوز وأجابت آمال ضيقة :

ـ بعدين بعدين .

ومضى الرجل وهو يردد في صوت فاتر ممل منغم :

ـ صور للعائلات.. صور للذكريات .

ومن خلفه بائع الطمبولا الحافي يمسح يده في سرواله الكاكي ويصيح :

ـ مش جايز تكون إنت الكسبان؟ تلات نمر ونسحب، طقم شاي صيني معتبر بقرش صاغ يا بلاش ...

«أنا محظوظة يا نينا، أنا اتجوزت راجل»... «راجل ماشي على حل شعره»، قالت أمها... «شغل! قال شغل؟! عجايب على المصلحة اللي بتسهر لواحدة واثنين بعد نص الليل؟» قال صابر أفندي جارهم. والست سنية قالت وهي تصب القهوة: «أصل يا ضنايا صابر أفندي له أربعين سنة في الميري ولا تفوتوش فايتة »...

وقال عزت بصوت ناعم وهو يُجلس مدحت على حجره :

ـ الولد قعد يتلكع لغاية ما رضي يغسل إيديه .

ووجهت آمال إليه نظرة فاحصة باردة وكأنها تراه لأول مرة، وأشاحت بوجهها عنه وتركزت نظرتها على بقعة تخلفت عن قطعة الشيكولاتة في قميص مدحت. وبدا عزت منصرفًا تمامًا إلى

تعليم مدحت العد من واحد إلى عشرة. ومد مدحت يده وأقفل فم أبيه، وابتسم عزت ومال تجاه آمال وهو يقول :

ـ عارفة إنك وجيهة النهارده أوي.. اللون البمبي حينطق عليك .

وغص حلقها وهي تبتسم ابتسامة واهنة، وعاد المصوراتي العجوز يقول :

ـ صورة يا بيه للمجموعة كده تبقى ظريفة جدًّا، والاستلام في الحال .

وقال عزت رافضًا :

ـ متشكرين .

ولمحت آمال المرأة ذات «الشورت» قادمة تتثنى وقالت بصوت مختنق :

ـ نتصور .

واحتج عزت :

ـ بمناسبة ايه؟

ومرت بها المرأة في تحفظ دون أن تنظر إليها ولا إلى عزت، وجلست في مقعدها وانصرفت إلى الحديث مع رفيقتها .

ومالت آمال على عزت وخرج الكلام من فمها هامسًا مختنقًا :

ـ نتصور أنا وأنت.. نتصور .

وهي تشير بأصبعها إليه ثم إلى نفسها وتضم الأصبعين معًا. وهز عزت كتفه وقال مستسلمًا :

ـ صور يا عم ...

وعندما دس المصور رأسه في الغطاء الأسود مدت آمال يدها وأمسكت بذراع زوجها، وعندما أعطى المصور الإشارة تشبثت اليد بالذراع. وفي انتظار الصورة لم ينظر عزت إلى المرأة ولم تنظر المرأة إليه. وعندما ظهر المصور عائدًا بالصورة قام عزت يبحث عن فكة .

واختطفت آمال الصورة في لهفة، وأمسكت بها في يديها، وكأنما تخشى أن يخطفها أحد منها.. عزت إلى جانبها.. حبيبها.. زوجها.. وأزاحت المرأة ذات «الشورت» المقعد في عنف وهي تقوم،

وعندما مرت بالمائدة المجاورة التقت عيناها بعيني آمال لحظة قصيرة، لحظة خاطفة، ولكنها كافية. وتركت آمال الصورة تسقط من بين يديها .

سقطت الصورة على الأرض على مبعدة من آمال. ودون أن تتحرك من مكانها، أسندت مرفقيها إلى فخذيها ورأسها إلى يديها وراحت ترقب الصورة بوجه بارد خالٍ من التعبير. وطالعتها صورة امرأة غريبة عنها.. امرأة محمومة تقبض بيد محمومة على ذراع رجل ارتسم الألم على وجهه من عنف القبضة. وفي بطء وفي هدوء مدت آمال ساقها، وبمقدمة الحذاء طمست الصورة، ثم بكعب الحذاء. وأعادت ساقها إلى مكانها وأحنت رأسها تراقب الصورة من جديد .

كان الرمل قد طمس معالم الصورة، ومع ذلك تبقت منها أجزاء واضحة، وجه الرجل وهو ينضح بالألم، ويد المرأة وهي تقبض على ذراع الرجل. ومدت آمال ساقها من جديد، وبمقدمة حذائها قربت الصورة من مقعدها حتى أصبحت في متناول يدها ومالت والتقطتها .

وعندما عاد عزت بالفكة كانت الصورة قد تحولت إلى قطع صغيرة تناثرت في الهواء وكان الطيف قد اختفى. توسطت الشمس السماء، وبدأ الناس يجرون حتى لا تحرق الرمال الساخنة أقدامهم .

وأدركت آمال أن أمامها مشوارًا طويلًا .

1964

الرسالة

في جوف الليل أقفز من سريري، يتأتى عليَّ الآن أن أتخذ الخطوة الأولى، أن أكتب الرسالة. أخيرًا وجدت الحل لأني فهمت السر، لم تعد رجلًا بالنسبة إليَّ، تحولتَ إلى أسطورة. الساعات القليلة التي جمعتنا، حكاياتك وخيالي، في كمال الأسطورة جمدتك . ولا خلاص من الجنون الذي أعيشه دون المواجهة، مواجهة الرجل لا الأسطورة. الواقع وحده هو الذي يملك أن يبدد الأسطورة .

ليس من السهل عليَّ أن أخطو الخطوة الأولى، أن أكتب رسالة لغريب لا أكاد بعد شهر أذكر ملامحه، غريب يقف على طرف النقيض مني وكتفه لصق كتفي، كما أوقن الآن. ما حدث في رحلة القطار يخل بكل عقل ومنطق. شيء غير طبيعي. في منتهى الطبيعية بدا، ونحن نضحك. شيء ما لم يحدث لي من قبل وربما لن يحدث لي من بعد بمثل هذه الطبيعية والاكتمال، كما أتنفس حدث ونحن نضحك معًا. ما أندر الرجل الذي يعرف كيف يضحك! جنبك جلست لاهية أضحك، لا أتصور أن شيئًا ما يمكن أن يحدث بيننا، ولا أستغرب والشيء يحدث، أتفتح له لحظة العتمة وكأن من الغريب ألا يحدث، وكأني على موعد معه من ألف عام. لم أعرف فيك الهارب الأبدي لحظتها .

ولكن أن يحدث ما حدث في ساعات شيء، وشيء آخر أن يتمدد كالسرطان طيلة شهر في كياني. هذا هو الجنون المطبق الذي أعرف الآن كيف أتجاوزه. يتأتى عليَّ أن أراك مرة ثانية وجهًا لوجه، رجلًا من لحم ودم، لكي تتبدد الأسطورة. ولا بد وأن تتبدد. ما حاجة امرأة من طرازي إلى أسطورة؟ أنا أحيا الواقع لا الأسطورة. الأساطير قدرك أنت لا قدري .

مشاكل كثيرة لا بد وأن تحسم إذا تأتى للرسالة أن تُكتب وأن تُرسل، وأنا لا أملك الاختيار. طبيعتي وطبيعتك وطبيعة العلاقة بيننا، إن كان يمكن أن تُسمى «علاقة » بالمعنَى المفهوم. صيغة الخطاب مثلًا: هل أنت على الورق «عزيزي»؟ ورق ستتداوله أنت وربما الآخرون. أم أنت «عزيزي الأستاذ»، كما ينبغي على الورق أن تكون؟

كما يستوجب العقل أن تكون. أهو العقل أم الخوف من الرفض: من الليل مثخن بالجراح، من الفجر مُطعم بالمرارة، من الصبح والقامة تعلو أكثر مما تعلو عادة والكلمة والضحكة، من الغروب وعودة الكليل مرهقًا من الوقفة على خشبة المسرح؟ أهو العقل أو الخوف من الآخرين: من نظرات تحيي وتميت، من همهمات لا تتشكل، من أصابع مصوبة باتهامات لا تبين؟ هو الخوف قطعًا .

ما شاء الله! شهر الجنون بدأ يتمخض فاحتضنني الشوك. استعدِّي لتلقي المولود الجديد، كوّمي يديك. وإلى أي نهاية يمكن أن يقودني هذا التفكير المجنون؟

الصدق مع النفس وواقع الأمر يحول بيني وبين مخاطبتك بصيغة «الأستاذ»، أي مفارقة حقيرة هذه؟! «عزيزي»، أكتب أخيرًا على الورق. وليس الصدق مع النفس ولا واقع الأمر هو الذي يحسم التردد، بل شخصيتك أنت وحاجتي الملحة إلى وأدك .

عليَّ أن أكون في منتهى الحرص لكي تستجيب لدعوة اللقاء. اختيار النغمة مثلًا ليس بالأمر السهل، ما أكثر ما يتوقف عليه اختيار نغمة الرسالة وما أعقد ما يتطلب! وكيف أتوصل إلى إيجاد تعادل دقيق بين هذا العديد من النقائض؟! صورتي في نظري وفي نظر الناس، وصورتك كما حرصت على توكيدها في حكاياتك المشوقة. حكاياتك هي كل رصيدي منك، وست ساعات مستحيلة في جمالها واكتمالها. ما أفدح الرصيد حين يكون خاطفًا! يستحيل إلى أسطورة. لم أعرف فيك الهارب الأبدي، وقبضتك تفسح لي الطريق في زحمة رفاق الرحلة، وقبضتك تقرع مسند المقعد الحديدي ضيقًا بالفاصل قبل أن يتحطم بيننا الفاصل .

مِن تأمُّل حكاياتك طيلة شهر عرفت، لا من الست ساعات التي قضيناها معًا في قطار يجري من أعلى الوادي إلى أسفله. هأنت تسألني لتتأكد مما تعرف، أني عشت اللحظة معك، وهأنا أسارع أجيب وغصة في حلقي، فالنهار على وشك أن يبدد لحظة العتمة. أجيب صادقة مع المرأة التي بعثت من لحم ودم في لحظة العتمة. كيف تأتى لها أن تفلت من إطار الاحترام؟

ما هذا الذي أفعله؟ ألن يُكتب لهذه الرسالة الاكتمال؟ وهل أنا بسبيلي إلى اجترار الأسطورة أم تبديدها؟ أم لعلي أنا الأخرى لا أملك أن أعيش بلا أسطورة؟ !

لا داعي للَّف والدوران، لا بد وأن أدخل في الموضوع مباشرة إذا كُتب لهذه الرسالة أن تكتمل. ولا بد وأن تكتمل وأشياء كثيرة في الميزان: عملي، توازني النفسي ونمط حياتي. لن أدع أسطورة تحولني إلى عينين لا تغفلان ترصدان اللاشيء، إلى ذراعين تعانقان الوهم، إلى يدين تحلان بالنهار ما تنسجانه ليلًا. لأدع لك أنت الأساطير، ولأستعد أنا حاستي العملية .

«عزيزي»، أضيف، «أريد أن أراك». وأتوقف من جديد. لم أستجدِ رجلًا من قبل لقاءً. لم أبدأ الخطوة الأولى أبدًا. لم تستبق يدي يد الآخر قط، لم أمنح قبل أن أتلقى، قبل أن أتأكد من مشاعر الآخر. قبل أن أساوم. في منتهى الكبرياء أنا، وفي منتهى الاحترام، في منتهى الخوف من الرفض. «عزيزي، أريد أن أراك»، أكتب. وماذا لو لم ترِد أنت؟! وماذا لو تصور الناس أني ألهث خلفك مرفوضة؟ لم أكن أعلم أني صورة محنطة في عيون الناس .

شهر الجنون تمخض فاحتضنني الشوك ...

عن الأرنب المذعور تتفتح أكمام حكاياتك، وعن أكثر من صورة، والصورة تناقض الصورة. أيتها صورتك؟ أنت الآن أرنب مذعور يجري ولا يكف عن الجري. الأرنب المذعور يتحرق إلى الدفء ويخاف الشباك. القيود تنتظره في الشباك والجراح، الخسة والرتابة والقهر والغثيان. يود الأرنب لو تلاشى، لو تكوم في جوف البئر هربًا من الشباك. وأنت البحر الأزلي والموجة لا تتجدد

على نفس الصورة أبدًا، الحصاة مدفونة في عمق البحر، والزبد. أنت الآن ساحر جبار، غيوم الدخان تلتف حول عمامته البيضاء والتهاويم. كل شيء ممكن في الجو المعبأ بالدخان والتهاويم .

العملة القديمة الممسوحة تستحيل إلى تعويذة، وعن ألف مستحيل ومستحيل أن تتفتح التعويذة، صراع سمك القرش الوحشي يلد ضحكة لا تنتهي بغصة، وأطفال بعيون خضر وزرق وعسلية. آلهة الإغريق مهترئو الأقدام، صبية يلعبون الكرة في الحارة. الأشياء هنا تبدأ وفقًا لمشيئة الساحر المارد وتختفي، تكون وفقًا لعصاه السحرية ولا تكون، اللحظة الماضية من عدم تُولد. الميت من القبر يُبعث حيًّا والحي لا يكون... في الكون يتوحد، في الجمال يموت. غيوم التهاويم والدخان تلتف حول عمامة المارد الجبار تلغي الواقع وتفرض المستحيل .

«لا فائدة، لا فائدة»، تصيح أمي متدثرة من خلف زجاج النافذة، وأنت الآن القط السيامي الوديع في الحجر تقبع، على الصدر ترتخي، عيناك الزرقاوان تضويان بألف نداء ونداء. «لا فائدة لا فائدة»... وأنت الآن تنتقم لعالم مشوه من الآلهة. على القمة الباردة التي لا تتسع لقدم إنسان، تقف شامخًا بوحدتك ومتعذبًا. انتظارك يطول وسيفك بيدك للحظة تنتقم لعالم مشوه من الآلهة، وأمي تصيح متدثرة ...

أما لهذا الجنون من آخر! وما دخل أمي في كل هذا؟

لا أستطيع أن أكمل الرسالة وربما لا أرغب في أن تكتمل. الأفكار تلاحقني مبعثرة تكاد تنتظم ولا أريد لها أن تنتظم. انتظامها يهددني، لا أدري لم؟ صورة أمي مثلًا خلف زجاج النافذة متدثرة تحول بيني وبين التركيز، بيني وبين اختيار الكلمات الكفيلة بتبديد أسطورتي، ولكن يتأتى عليَّ أن أحاول أيًّا كانت الصعوبة، لا أملك التراجع الآن. لم يعد التراجع ممكنًا .

«عزيزي، أريد أن أراك نصف ساعة لن تتكرر». أضيف، حتى تطمئن أني لا أنسج لك شباك الحنان: «إن شيئًا ما لن يحدث». وكأن شيئًا يمكن أن يحدث للهارب الأبدي؟! اطمئن. ليس هذا ما أريد. ليس وأنت من أنت وأنا من أنا. أنا لم أبتر لحظاتي اللحظة عن اللحظة أبدًا. لم ألقِ بلحظة إلى البحر أبدًا... قضيت العمر ألملم لحظاتي في خيط طويل. أعقد الخيط كلما انقطع وأمي متدثرة تقول: «لا فائدة»، وأنا أجري في حديقة بيتنا القديم، أجمع فصوص البرَد على طبق من صاج. البرَد شاهق البياض، ماس على شعري، على ذراعيَّ، على ساقيَّ، على يديَّ. الماس ملء طبقي ...

«لا فائدة»، فصوص البرَد لا تلبث أن تذوب، «لا فائدة»، أقول لنفسي والريح من يومها تحملني، يحدوني رنين فضي في طبقي. ضيعت العمر بحثًا عن فصوص لا تذوب .

على الحافة الضيقة التي لا تتسع لقدم إنسان أردت دائمًا أن أقف متحدية. كيف قاومت الرغبة وأنا صبية؟! في الدور الثالث أمام فصلي أعتلي حافة السور التي لا تتسع لقدم إنسان. أحتضن عمود السور وأنا أنتصب واقفة. كيف كبحت الرغبة في إطلاق ذراعي في الهواء لأطير؟ أكنت أمتشق السيف الخشبي أنا الأخرى؟

لم أتصور نفسي أبدًا أهوي على الأرض وأنا أفعل. على القمة التي لا تتسع لقدم إنسان، كالطود أقف، شامخة بوحدتي ومتعذبة، رأسي يطاول السماء ويداي تشقان الفضاء .

في أخدودي أبحث عن فصوص لا تذوب، وعلى قمة لا تتسع لقدم إنسان. أبي يحول بيني وبين الفصوص لا تذوب، وعزرائيل والملاكان يثقلان كتفيَّ اليمنى واليسرى، وخبطة في جوف الليل على الباب، وقيود حديدية تغل اليد واللسان، وسين وجيم، وحساب الملاكين .

لا أحد في البيت القديم عداي عرف متعة التكوم في حلكة بئر جف منها الماء. لا أحد عداي ينزلق في يسر على السلم المؤدي إلى جوف الأرض الأسمنتي، «مليء بالثعابين» قالت أمي وأنا صغيرة، ولا شيء على الإطلاق في البئر. اللاشيء في البئر والكمال. الزمان ينتفي في عتمة البئر والمكان، ولا تعود بك حاجة لنسج الأساطير لتعيش، الفصوص هنا لا تذوب ولا أحد يملك أن يؤذيك. أصوات المعذبين في الأرض لا تتناهى إليك هنا، ودمهم لا يخضب يديك .

حملت بئري معي بعد أن هدوا البيت الريفي القديم. لعله الشيء الوحيد الذي تبقى لي من الصبية محلولة الشعر متوهجة الخدين، وإلا خبرني: لِمَ أحفر أخدودي المرة بعد المرة؟ لأدفن نفسي فيه؟ لم أتشبث بالأخدود في عالم لا يتسع إلا للحفر... يقنع بالحفر؟ صحيح أني لم أكن أعلم، ولكني لا أكف، وقد علمت أن الأخدود يفضي إلى البئر. يعلم الرافض للحياة ولا يتعلم. يعلم الهارب من الحياة وينسج الأساطير .

ربما لأن عاطفتي أعمق من أن تتبدد في الحفر، لا تملك سوى أن تقبع في أخدودها المستحيل. ربما لو لم أنسج أسطورتي على شكل قوقعة، لأدركت في الخريف حتمية حلول الشتاء، ولتعلمت في موسم الهجرة أن أطير. ربيع الحب دائم في قوقعتي وفي البئر .

أتمدد في سريري أبعثك، يا شبيهي، حيًّا أمامي. لا داعي للقلق، ربما لا تتبدل أسطورتي كل يوم شأن أسطورتك، ولكنها حتمًا تتبدل. الزمن في صفي وخيالي. وقد تكون أنت غدًا وقد يكون غيرك. وإن لم أجد من أنسج حوله أسطورتي أصنعه .

يتحتم على الرافض للحياة أن يعيش، وأسطورة تسلمه إلى أسطورة حتى يطبق عينيه على الربيع الدائم .

١٩٧٢

على ضوء الشموع

وقفَت خلف باب الشقة التي تقيم فيها تستعجل الرحيل، ورغبة قديمة تلح عليها في الإفلات من الشقة العالية تطل على النيل، ومن دائرة نفوذ زوجها يرقد في السرير إلى ساعة متأخرة من النهار كعادته .

وفي انتظار مرور المضيفة، صاحبة البيت الريفي في قرية سنور، وزوجها الكاتب المسرحي، ليصحباها إلى محطة الأتوبيس المتجه إلى بني سويف، وقفت تستعجل الرحيل .

وفي اللحظة الأخيرة دست في حقيبة السفر الصغيرة مشروع روايتها الثانية، فلربما... ربما ماذا؟ على طيلة سنتين وهي تهدم في يسار الدفتر رملي اللون ما تبنيه في اليمين، وخطوط المشروع لا تكتمل. تعليقات، الإنسان السياسي فيها، حيًّا لم يزل، تتالى في اليسار بتواريخ متلاحقة تمتد من سنة ١٩٦٠ إلى ١٩٦٢ ترفض محاولة تصوير تجربة فشل فردية كتجربة الإنسان الكلية، ترفض الخروج على الناس برسالة يأس من الحياة .

فهل يعقل أن تنفرج في يومين أزمة استطالت سنتين؟ سنتين أم عشرًا؟ تساءلت في مرارة وهي ما تزال تقف خلف الباب المغلق. وغيبت السؤال كعادتها أخيرًا حين تطرق أرضًا محرمة. وانتوت أن تخلص بكليتها لتجربة المعيشة في قرية وهي تجربة جديدة عليها .

*

استقلت الأتوبيس المتجه إلى بني سويف، وقد انضمت إلى المجموعة صديقة ناقدة أدبية وشقيقتها الطبيبة، وزوجها أستاذ علم النفس. وشعرت بنوع من الانتماء والمجموعة التي تسافر معها أقرب إليها من المجموعات التي تتحرك في إطارها خلف زوجها، أكثر أصالة وأقل ادعاءً وأصدق. مع هذه المجموعة يستطيع الإنسان أن يُسقط أقنعته وأن يتخفف من دروعه ويرتخي قليلًا، وهو لا يتوقى في كل لحظة الضربة المقبلة. ليست بالمجموعة التي تسهر في كافتيريا «سميراميس» «الليل والنهار» ولا التي تتناول العشاء على ضوء الشموع في المطاعم الأنيقة، ولا تلك التي تزين الليالي الافتتاحية في المسارح ومعارض التصوير والندوات العامة .

تلتقي هي والمجموعة التي تسافر معها في الكثير من الاهتمامات، حتى في السياسة، وإن لم تتماثل. تبقى بحكم ماضيها السياسي البطة السوداء في سرب البط الأبيض. «الحمراء» يقول الكثيرون، ولكن الأمر أصبح يختلط حتى عليها .

*

يتوغل الأتوبيس في طريق الصعيد الزراعي، تميزه أشجار النخيل على الجانبين عن معظم الطرق الزراعية في دلتا النيل. تتكاثف أشجار النخيل كالغابات وتبدو التلال الصحراوية في الأفق، وجهاز الراديو في الأتوبيس يذيع أغنية «مين قال إن الحب زي العسل والحب أحلى من العسل». إيقاع الأغنية الرتيب يتكرر على نفس الوتيرة الخانقة، والتلال الرملية تتقارب، تجثم على الوادي الأخضر. «جاجارين»، مترجَمًا من الروسية إلى العربية، يتحدث عن أول رحلة للإنسان إلى الفضاء، والتلال تخنق الوادي. يصل الأُتوبيس إلى بني سويف وعبد الحليم حافظ يغني «عشانك يا قمر أطلع لك القمر ».

تحمل المجموعةَ سيارةُ أجرة إلى أقرب بقعة من قرية سنور التي تقع على حدود الصحراء الشرقية. تتوقف السيارة وقد عبرت الوادي ولم يعد التقدم ممكنًا .

تغوص هي والمجموعة في تلال الرمل، وتجلس على شط النيل في انتظار وصول المعدية. لم يتبقَّ سوى عبور النيل للوصول أخيرًا إلى بيت ريفي قديم، ندر استخدامه في السنين العشر التي تلت تطبيق قانون الإصلاح الزراعي .

*

في انتظار المعدية افترشت رمال الشاطئ ترقب الضفة الشرقية للنيل. النيل يلتف في نصف دائرة يحجب الرؤية من الجانبين. الوجود يبدأ هنا وينتهي، عند هذا الشط من الرمال الصفراء الدقيقة الناعمة، تلتمع كحقل من الكهرمان تحت أشعة الشمس، عند هذا السوار الأخضر الفيروزي من النخيل السامق يطوق الكهرمان والفيروز في سكينة أبدية .

وودت لو بدأ الوجود هنا وانتهى والسكينة أبدية. وفي الأفق لمحت التلال الرملية تطوق النيل والشط والنخيل، وتطوقها. وقلَّبت صفحات دفترها الرملي بحثًا عن فقرة في مشروع روايتها تصف الاختيارات المفتوحة أمام بطلتها، وما من اختيار :

طريق من الطريقين مفتوح أمامها، وقد تلفت بلا أمل في البرء، إما أن تستسلم وتعيش بقية حياتها بطعم المرارة في فمها، وإما أن تتقبل الحقيقة في شجاعة .

وما من طريقين، وإنما طريق واحد، وما بين الموت والموت موت، والحقيقة المطلوب تقبلها في «شجاعة» موت. وانتفضت واقفة تلملم أشياءها وقد وصلت المعدية .

*

ازدحمت المعدية بفلاحين يعودون بملابس الأعياد بعد رحلة لا مفر منها إلى المدينة، وبفلاحين يعملون في المدينة جاءوا بعد غيبة في زيارة قصيرة للأهل، وبمجموعة المثقفين القاهريين وبحمارين ومعزة. وساد المعدية جو احتفائي ودود، والفلاحون يتبادلون التحيات بعد غيبة، يسألون عن الأهل ويحملون الأشواق للأحباب توزعوا في شطري النيل بحثًا عن الرزق .

وجلست هي تستمع إلى الحديث يدور بين ريس المعدية يربط القرية المعزولة بالعالم الخارجي، وبين الفلاحين. ويحكي الريس عن النبوءة التي روجت لها صحف القاهرة منذ أسبوع عن قرب حلول يوم القيامة، وينهق الحمار الأبيض نهيقًا مستطيلًا، وتضحك فلاحة عائدة بمعزتها من المستشفى البيطري وتقول :

ـ والنبي يا ريس لما الموت ييجي ما تعديه، عشان ما يجيش حدانا .

تبقى مشاكل البقاء حقيقة الحقائق التي تتضاءل إلى جانبها كل حقيقة، ما دام في الدنيا بشر يكافحون من أجل البقاء. «الوجود والعدم» لا يؤرق الفلاحة كما يؤرق «كيركجارد»، ولا «غثيان» «سارتر» يؤرقها ولا عبثية «كامو». ليست الفلاحة من المرفهين. الفلاحة تتعامل ببساطة وبخفة مذهلة مع الموت، أو «حقيقة الحقائق»، كما يسميه كاتب مصري . تحيل الموت إنسانًا تعايشه وتعانده، تقر بوجوده وتتجاوز هذا الإقرار فيما تتجاوز وهي تكافح من أجل البقاء .

تشتد الريح وتميل المعدية إلى جانب، يستوي سطحها وسطح الماء. تتبادل هي ومجموعتها نظرات التساؤل وبسمات التجلد، مصنوعة في وجه غرق محتمل في النيل، والفلاحون والريس يواصلون الحديث في جو احتفائي ودود وسطح الماء يستوي وسطح المعدية، وكأن الفاصل بين الحياة والموت قد انتفى وتصالحت الأضداد في لحظة احتفائية ودود .

تصل المعدية إلى الشاطئ وتغمرها فرحة الحياة والريس يطلب «السجادة». تتطلع لرجال يتقدمون نحو المعدية يحملون فيما بينهم شيئًا خشبيًّا. وبدلًا من «السجادة» تتعرف على نعش لطفل صغير. وفي لحظة مكثفة تتصادم الحياة بالموت، وتلتقي عيناها بعيني الفلاحة ذات الوجه البشوش وهي تفسر الوضع بصيغة تقريرية خالية من الانفعال :

ـ أصل ما حدناش قرافة... بندفن موتانا في البر التاني .

وتراقب الفلاحة تسحب معزتها الهزيلة، وتنزل على «السجادة» إلى الشط الرملي بخطى ثابتة. وتشعر بالخجل لأنها في عزلتها الطويلة عن الناس انزلقت إلى التفكير في عبثية الوجود، وحتمية فشل السعي الإنساني .

*

تأتى أن يسير كل شيء وفقًا لبرنامج مسبق في إجازة آخر الأسبوع القصيرة، وأرست صاحبة البيت البرنامج. يخصص عصر اليوم لجولة حرة حول البيت والحقول التي يشرف عليها، وكذلك صباح اليوم التالي الذي يتوج مساؤه بالاستماع إلى مغني القرية يغني الأغاني الشعبية ذات اللون المحلي الفريد في هذه المنطقة. وما بين عصر ومساء اليوم التالي يتعين على صاحبة البيت وزوجها زيارة منزل خولي العزبة سابقًا، والمشرف حاليًّا على توريد إيجار ما تبقى من أرض للأسرة. وهذه الفقرة من البرنامج اختيارية وعلى من يرغب في الإخلاد للراحة أن يبقى في البيت،

وإن كان من الملائم أن تشارك الطبيبة في زيارة الخولي، وخاصة أن زوجته مريضة وما في المنطقة بأكملها طبيب، وإن تبقى الاختيار في نهاية الأمر اختيارها .

وتساءلت هي وقد انتهت صاحبة البيت من إرساء البرنامج :

ـ أين القرية؟

وما من شيء يبدو من شرفات البيت سوى خضرة تنتهي بالرمال. وأكدت صاحبة البيت أن القرية ليست ببعيدة، وسيمر بها بالضرورة من يختار زيارة منزل الخولي مغرب اليوم التالي .

وما كادت صاحبة البيت تنتهي من كلامها حتى دخلت البيت فلاحة من القرية تحمل للطبيبة الزائرة طفلها الرضيع يحتضر .

*

بدأت بحديقة البيت التي استحالت بعد إهمال عشر سنوات إلى مرتع للأعشاب... حتى الأعشاب جفت. وخطر ببالها وهي تتجول أنها كفت من زمان طويل عن التجوال والتأمل. وارتسم في خيالها الدمع ينسحب بلا صوت على خدين معروقين لأم ريفية، وتساءلت: هل بلغت بها التعاسة حد الخوف من التفكير؟ ما بين تفكير مخطط لمحاضرة، لندوة، لمقال، لحديث إذاعي أو تلفزيوني، تقرأ، كل شيء وأي شيء حتى لا تفكر. إن لم تجد ما تقرأه أسعفتها نشرة طبية للدواء ملقاة هنا أو هناك. هل أصبحت كالقطار يفقد توازنه ويتحطم إن خرج عن شريط السكة الحديد؟

ـ المهم هو الرحلة وليس ما تتمخض عنه الرحلة، مواصلة الإنسان للسعي، وليس ما يتمخض عنه السعي الإنساني. ما من واحة خضراء في مكان ما أو زمان ما يتوصل إليها الإنسان. يلمح الإنسان الواحة الخضراء ويعيشها وهو يسعى. الرحلة هي الواحة الخضراء .

قالت وهي تلخص «التيمة» المحورية في مشروع روايتها الثانية، يوم كانت تأمل في استكمال الرواية، وقال الصديق أستاذ علم النفس يعلق على المشروع :

ـ مشروع هذه الرواية يفلسف للفشل، يعمم ما لا يجوز تعميمه، والأكيد أن السعي الإنساني ليس مرصودًا بالفشل .

وأضاف بعد فترة صمت :

ـ هل تحاولين تبرير وضع لا تطيقينه؟

وتأملت لأول مرة صدق تعقيبه، وأدركت أنها أسقطت هذا التعقيب فيما أسقطت من آلام الناس حتى لا يفقد القطار توازنه وينقلب. وقال زميل لزوجها يقف سياسيًّا على طرف النقيض منه :

ـ الناس مندهشة لأنك كتبتِ هذه الرواية الممتازة، رغم كل شيء .

ويومها استبعدت كلام زميل زوجها ككلام فارغ، ففيمَ الاندهاش وهي، رغم زيجتها، نفس الإنسان؟ إيمانها القديم لم يتغير ولا إرادة التغيير، سعت شابة إلى التغيير الاجتماعي بالفعل وتسعى إليه امرأة بالكتابة. وفي حومة نجاح روايتها الأولى نسيت عهدًا قطعته على نفسها ورهانًا عقدته: «لو ملكتُ القدرة على استكمال هذه الرواية لواتتني القدرة على التحرر من زوجي، ومن هذا البيت، ومن هذا الأسلوب من الحياة». وأكملت الرواية ونسيت العهد والرهان اللذين تتذكرهما الآن .

وتتبعت ممرات الحديقة مرصوفة بالحصى المدبب، وتساءلت: هل استوى الحصى على مر السنين أم تبلدت مشاعرها ولم تعد تشعر بالوخز يواتيها كل حين؟ وهل هي حقًّا نفس الإنسانة بعد زيجة استطالت عشر سنين؟ هربت من الطفل، نحلت ساقاه وانتفخ بطنه، تركته خلفها في البيت يموت وخرجت في جولة حرة. ربما اختنقت بالليل على وسادتها وبكت الطفل قليلًا، وانتظم تنفسها وقد تمت عملية التطهير. وإن اختنقت من جديد وهذا المظهر من مظاهر البؤس والحرمان والقهر يلح عليها أو ذاك، ففي الروايات والمسرحيات والأفلام متسع للجميع. وبدلًا من أن تشارك بقدر ما تستطيع في تغيير الأوضاع ستبكي في ظلمة المسرح والسينما والسرير. ستظل تلعب لعبة البكاء لتوهم نفسها أنها لم تمت وما زالت تعيش. أدموع التكفير عن الذنب هذا السيل من الدموع أم دموع التطهير؟ وتمتمت وهي تستشعر وخز الحصى: «شيء ما خطأ في بنياني». وأضافت تطلب النجدة من ناس لم يعد لهم وجود يومي حي في كيانها: «بالله عليكم دلوني أين موطن الخطأ ».

ـ الناس تقول إنك تحلمين على الورق، تناضلين على الورق، تحققين على الورق ما لا تستطيعين تحقيقه على مستوى الحياة .

قالت لها ممثلة تكن لها الاحترام معلقة على روايتها الأولى، وهما تجلسان في كافتيريا الإذاعة، ووصلتها الوخزة هذه المرة، وبدلًا من الإقرار بالحقيقة أجابت يومها في حدة واعتداد :

ـ فليحلم من يستطيع رواية مماثلة في الجودة .

وما كاد التعليق الساخن والرد السريع ينتهيان حتى انصرفت كل منهما إلى أداء دورها على الوجه الأكمل، الممثلة لدور من الأدوار التي تتغير كل يوم، وهي: إلى أي دور انصرفت؟ دور الكاتب الذي بزغ فجأة من المجهول إلى المعلوم وهو يملك مفاتيح لعبة الكتابة، الفنان القادر على أن يمنح من يريد أن يلعب مفاتيح اللعبة .

وأسوأ ما في الأمر أن اللعبة ليست بلعبة على الإطلاق. وأنها أصبحت، وقد انتهت روايتها الأولى، أشبه ما يكون بجحا ضاع صندوقه، وإن تبقت معه مفاتيح الصندوق. مفاتيح حرفة الكتابة مكتملة لا تملك أن تصنع هذا الوله الخالص بالحياة الذي هو مادة الفن. فأين هي الآن من هذا الوله الخالص الذي يتحول بدونه الفن إلى مادة للتسلية أو لعبة زخرفية؟

ـ أردت أن أمسك برؤيتي للحقيقة كشابة، قبل أن تفلت مني هذه الرؤية نهائيًّا .

داهمتها العبارة قالتها لمذيع محطة أجنبية، سأل :

ـ لماذا هذه الرواية بالذات وفي سنة ١٩٦٠ بالذات؟

ودهشت يومها وهي تستمع إلى نفسها تقر بحقيقة غيبتها طويلًا، ولا شك أنها عادت وغيبتها، فها هي العبارة تداهمها وهي تسير في حديقة جفت أعشابها وكأنها جديدة وقديمة، عرفتها وغيبتها. وأقرت أن الرؤية في روايتها الأولى ليست برؤية عمر معاش، وإنما عمر انقضى وسقط عن هذه الإنسانة التي تلعب لعبة البكاء .

وصعدت درجات السلالم المتآكلة تقسم الحديقة إلى مرتفعات ومنخفضات وهبطتها... لا شك أن هذه المرتفعات والمنخفضات عنت الكثير والزهور تتفتح للشمس والهواء والأشجار سامقة، جذورها في الأرض وفروعها في السماء، ولم تعد تعني شيئًا. يستوي الصعود والهبوط الآن وقد جفت الحديقة .

حين نقلتها روايتها الأولى إلى قلوب الناس عني الوصول الكثير ولم يعنِ شيئًا، وكأن التي وصلت إنسانة أخرى غيرها، مخلوقة انتحلت هي ولهها الخاص بالحياة. في عيون البنات رأت بريق التعرف عليها وعلى الذات وفي شدَّة يد ممتنة لشاب يصافحها على استحياء... وحلمت ذات ليلة أنها مدعوة إلى حفل. على درجة من درجات السلم المؤدي إلى قاعة الاحتفال وقفت مع بقية المدعوين، يسبقها ناس ويلحق بها آخرون، تعرفت بينهم على بعض كُتاب مصر المعروفين، ونقلها مس كهربي وهي تقف في الصف على درجة من درجات السلم إلى حالة اليقظة تتساءل: هل أصاب الوخز بقية المدعوين أم انفردت هي بالشعور بالوخز؟

ويومها شعرت أنها غشت قليلًا لكي تصل إلى قلوب الناس وأن الوخز قد أصابها لأنها فعلت، ومن يومها لاحقها الشعور بالفشل وهي تتحرك في دائرة النجوم التي تعبر، في خطوة واثقة وابتسامة مدروسة مصنوعة، ممرات مبنى الإذاعة والتلفزيون لتنتهي بالقول: «في الواقع»... وما من واقع فيما تقول .

وتهالكت جالسة على مقعد صخري وقد وجدت نفسها في كشك خشبي آيل للسقوط. وأقرت بأن لون التخشيبة قد تحول من الأخضر إلى الترابي. وألح عليها تعليق في يسار الدفتر الرملي يهدم مشروع رواية لا تكتمل في يمينه. ووجدت نفسها بلا وعي تردد كلماته :

الهروب من المواجهة لا يشكل حلًّا، يساوي الإقدام على الانتحار كبديل لانتظار استكمال عملية القتل .

وأقرت بأن حبل خداع الذات طويل، وإن التف في نهاية الأمر على عنق الإنسان. وأخافها الإقرار فهربت إلى فسحة حقل قريب .

*

حاولت أن تتعرف على النبات الأخضر في الحقل. بدا لها من الضروري أن تفعل. ومدت يدًا مرتجفة وقطعت ورقة من أوراق النبات وقربتها إلى أنفها، وتركزت كل حواسها في حاسة الشم. ولم تتعرف على النبات. قطعت الورقة نصفين وذاقتها، مضغت جزءًا منها واستحلبته وهي تتذوق لتعرف ولم تزدد علمًا. بصقت الرحيق ومضت تتدحرج في الحقل .

تذكرت أنها أكلت، شابة، كوسة خضراء نيئة من الحقل وأحبتها في حومة الوله بالحياة الذي يعطي لكل شيء، مهما صغر وتباين، مذاقًا خاصًّا وفريدًا. حلمت صبية أن تجري هي وحبيبها حافية القدمين في حقل فول أخضر. أن تتمدد وحبيبها تضمهما الخضرة ورائحة الأرض الخصبة. أن تأكل وحبيبها الفول بشوكة مع الجبن القريش. وانتهت هي وزوجها يتناولان العشاء على ضوء الشموع كالعاشقين، وما من عشق تبقى بينهما. وأرادت كل مرة، وهو يسحبها إلى هذه الدائرة اللامعة أو تلك، أن تصرخ: «كذبة هذه الشموع، كذبة زيجتنا، كذبة كل دائرة ندور فيها». وبدلًا من أن تصرخ تبدُّد الكذبة، عاشتها. وتساءلت: هل أصبحت بدورها كذبة، جزءًا لا يتجزأ من مؤسسة تدمن المسكنات وتتحاشى الاصطدام وتقنِّع الكلمات حتى لا يتفجر صراع الحياة الحي الصاخب؟

بدلًا من أن تصرخ، قرأت على زوجها ذات صباح قصيدة عن زيف المثقفين الساهرين في كافتيريا «الليل والنهار» نشرها صلاح عبد الصبور في أهرام الجمعة. لا تذكر الآن من القصيدة سوى بيت واحد وربما المعنَى دون الكلمات، المرأة تقول للرجل يسهر معها في الكافتيريا :

قم بنا يا حبيبي قبل أن يطلع الصبح وتزول مساحيقي

ولكنها تذكر أن عينيها غُصت بالدموع وهي تقرأ القصيدة، وتطهرت، واستمرت تعيش الكذبة. وتذكر أنها لم تنسَ، وهي في حومة الانفعال، أن تقرأ القصيدة كما ينبغي أن يقرأ الشعر الجيد المتذوق الجيد. وما بين الانفعال وضروريات اللياقة عاشت الكذبة .

في المطعم الأنيق تجلس وجهًا لوجه مع زوجها، تفصل بينهما الشموع، وأنصاف الحقائق، ومرارة الحقيقة، وقسوة الخديعة، والرفض المتبادل لماهية الآخر، والخوف من الاصطدام، والحرص على الصورة الاجتماعية، والتظاهر بنجاح مشروع أفلس من زمن طويل، وكلمات قلم الحب أظافرها، وبعد الحب الجبن الاجتماعي أو «تمدين المثقفين» كما يُسمى، كلمات لا تفصح أبدًا، تهرب كالزئبق، تلف وتدور متقنعة في المسالك الجبانة. تود لو تصرخ ولا تصرخ. وفيم الصراخ وجلسة الشموع ليست سوى طقس آخر من مجموعة الطقوس التي تشكل حياتهما معًا، حركتهما معًا ومع الآخرين، طقس من هذه الطقوس التي تدمرها، ولا تكف تساهم في صنعها؟

حديثهما الليلي معًا طقس من الطقوس، إن جاز أن يُسمى حديثًا. كان يومًا ولم يعد. على مر الأيام تحولت إلى أذن تستمع بعقل يثقله ركام الأكاذيب وأنصاف الحقائق يتكاثر يومًا بعد يوم، وهو لا يكف يتكلم، ينسج المزيد من الأكاذيب وأنصاف الحقائق، وعقلها يشت يومًا بعد يوم دون أن تدري حتى أنه يشت ...

تحت وطأة الركام يشت عقلها الآن وهي تتكلم، في حضور زوجها وفي غيابه. في جمع من الناس تتكلم كما يتكلم الناس، وفجأة ترتد إليها نظرة الاستغراب في عين مستمع إلى كلامها، وتدرك أن عقلها يضيع، وبدلًا من أن تهب صارخة: «كفى!»، تلتزم الصمت معقودة اللسان .

طقس الطقوس الليلي وهي تستمع، إن كانت نائمة أيقظها، لا يكتمل اليوم دون طقس الطقوس. يعد لها طعام العشاء على صينية ويجلس على طرف سريرها يحكي عن نجاحاته اليومية التي لا نهاية لها. عند النجاحات الغرامية ترد في الحكاية أنصاف الحقائق: «تصوري أن الناس تقول إني على علاقة بفلانة؟». وصعب عليها في يوم من الأيام أن تتصور، لأن فلانة فعلًا في موقع الابنة منه، حتى إذا ما وصلتها الحكاية قال: «ألم أقل لكِ؟»، وخرج بريئًا كالذئب من دم الحمل. ومن سنين صاحت فيه :

ـ توقف عن الكذب أرجوك، لجوؤك المستمر إلى الكذب شيء مهين لك ولي، وهو إهانة مجانية لكلينا، لم أطالبك بالتفسير ولن أطالبك .

ولكنه لم يتوقف، استحال عليه أن يعيش دون مستمع ليلي لنجاحاته اليومية التي لا نهاية لها، ولمراراته اليومية من جحود الناس والدنيا التي لا نهاية لها أيضًا. وعلى مر الأيام تحولت هي إلى أذن تستمع وفم معقود اللسان. يتأتى أن تنام لتذهب إلى عملها مبكرة وقادرة على أداء هذا العمل . لو اختلفت سيبقيها الليل ساهرة حتى تقتنع أو، وهذا هو الأسوأ، حتى تتظاهر بالاقتناع لتنام. على أمل اللقاء الفكري سهرت سنين تتناقش، ثم كان أن تحولت إلى أذن تستمع بفم معقود اللسان بعد أن اكتشفت أن لا أرضية بينهما للقاء . حتى اللقاء بينهما في السرير استحال، تحول بدوره إلى طقس مدمر .

منذ سنين صرخ فيها في السرير ولم يعد يصرخ، لم يعد ينطق إطلاقًا وهو يؤدي «واجبه الزوجي» وينام. يوم لم يكن لقاؤهما في السرير طقسًا صرخ فيها :

ـ أنت تحتقرينني .

وتطلعت إليه في اندهاش مستفسرة، وأضاف موضحًا :

ـ جسدك يرفضني، يحتقرني .

ولم تكن تعرف أن الجسد يكون أحيانًا أذكى من العقل، وأفصح تعبيرًا، ولم تكن تعرف أن خداع الذات الذي يجوز على العقل لا يجوز على الجسد. ما من شيء يخدع الجسد عن أحاسيسه. وعرفت ولم تزْدد علمًا وقد عرفت. توقعت أن يكف عن العملية الجنسية ولم يكف. تعمدت أن تباعد المدة وإن لم تكف. وتحولت العملية إلى طقس مدمر. حولها إلى أداة إشباع وبدلًا من أن تهب صائحة: «كفى!»، مضت متورمة العينين من السهر العقيم في سريرها المنفرد بهذا الشعور الذي لا يريم بالغثيان والإخفاق .

ـ ولكن شخصيتكِ ليست بشخصية المحارب .

قال لها منذ أيام زميل في العمل وقد استدعت الأوضاع الفاسدة تجميع الجهود في معركة مفتوحة وطاحنة مع الإدارة، وأجابت هي ربما في تبرير وربما في اعتذار :

ـ فلنجرب. أنا أشتري راحة البال بكثير من التنازلات الصغيرة. ولكن عندما تصبح المسألة مسألة مبدأ تجدني عنيدة كما الحمار .

وأقرت، وهي تتمدد وسط خضرة لا تعرف لها مُسمى، أن سفح الجبل هو نفس السفح. وأن لا قرار للتنازل، وتنازل صغير يسلم الإنسان إلى تنازل أكبر، والتنازل اللامبدئي يختلط على الإنسان بالتنازل المبدئي على مر الأيام، ويفيق الإنسان ذات يوم ليجد نفسه في الهوة بلا قرار .

وأقرت بأنها لم تصرخ في زوجها لأنها استحالت بدورها إلى أكذوبة، تلعب نفس اللعبة وتلتزم بنفس قواعد اللعبة، وأن زوجها أفضل منها لأنه لا يتظاهر بغير ما يفعل ...

وأقرت بأن الغضب لم يعد من حقها. الغضب حق القادر على أن يبتر ويصل .

*

غنى المغني ليلة السفر بعد عودة المجموعة واجمة ومتوترة من المرور بالقرية وزيارة منزل الخولي. حكى حكاية قرية تخنقها تلال رملية وصخرية، وناس عاشوا في القرية يحيلون على مر السنين الصخر خضرة. وبددت آهات الناس وضحكاتهم عبر السنين حالة الوجوم والتوتر التي استبدت بالمجموعة لحظة عادت إلى البيت. وجلست هي جافة العينين تستمع إلى حكايات الزرع والحصاد، الأمل والجوع، العشق والموت. لم تعد لعبة البكاء تجدي .

لم تشارك هي في لحظات الوجوم ولا التوتر الذي تلا الوجوم، بعد المرور بالقرية وزيارة منزل الخولي. تجاوزت مرحلة الشعور بالذنب، ومرحلة التخفف من الشعور بالذنب بمحاولة إسقاط المسؤولية على قوى مجهولة أو على الآخرين. انعزلت عن المجموعة مع إدراك جديد بأن عالمها في شقة تطل على النيل قد انتهى .

شيء في ما حدث في مغرب اليوم ومسائه أنهى هذا العالم بلا رجعة. ولم تعرف على وجه التحديد، هل انتهى وهي تمر بمسالك القرية الطينية، تقاوم وتنتصر على رغبتها في الوقوع في حالة الإغماء؟ أم انتهى في منزل الخولي لحظة صرخت مخنوقة: «أخرجوني من هنا»؟ ولكن الأكيد أنه انتهى. لم يعد اجترار التعاسة على ضوء الشموع ممكنًا ولا ممارسة الحلم على الورق .

ووضعها الشعور بحتمية النهاية أمام ضرورة وضع القرار موضع التنفيذ. وانعزلت عن المجموعة تسأل: «هل أستطيع؟ هل تبقَّى من الشابة التي كنتها بقية تعينني على بتر ما هو قائم ووصل ما انقطع؟ ».

لم يكن من الصعب عليها التكهن بما حدث في البيت في أعقاب مرور المجموعة بالقرية وزيارتها بيت الخولي، عاشت لحظات مماثلة من قبل عشرات المرات، وإن لم تعرف لقسوة اللحظات التي عاشتها الليلة مثيلًا. جلس أفراد المجموعة في الصالة بعضهم في مواجهة بعضٍ أغرابًا، يتحاشى الواحد منهم النظر إلى الآخر خشية أن تفضح النظرة المستور. ولم يلبث الوجوم أن تحول، كما توقعت، إلى توتر، وكل يحاول أن يتخفف من المسؤولية يلقيها على قوى غير مرئية أو على الآخر ...

الإقرار بالمسؤولية يعني انهيار القوقعة البراقة، بارعة الجمال، التي بناها كلٌّ لنفسه في القاهرة ليعيش، التي يحتمي فيها كلٌّ ليعيش. والسؤال: «ماذا فعلتُ لأغير الأوضاع؟»، سؤال يتأتى تجاوزه بأي ثمن لأن الكثير في الميزان .

وحل التوتر، كما توقعت، محل الوجوم، واتهم كلٌّ الآخر أنه تعامل مع الحدث كالسائح جاء يتفرج على تعاسة الفلاحين، وضاقت دائرة الاتهام في النهاية وانصبت على الطبيبة التي لم تتفرج كالآخرين. وصلت ما بينها وبين الفلاحين وهي تتبادل الحديث، تعالج أطفالًا في مرحلة الخطر وأطفالًا يحتضرون، ترسل إلى بني سويف لشراء الأدوية والحقن الطبية، توصي بعلاج طويل يستمر بعد مغادرتها القرية، تتمزق وهي تدرك أن أحدًا من أهل المرضى لا يملك من المال ما من شأنه أن يضمن العلاج الطويل، تصرخ في طوب الأرض احتجاجًا على انعدام الرعاية الصحية في القرية وفي المنطقة بأجمعها .

قيل إن الطبيبة طرحت، كالسواح، أسئلة ما كان ينبغي أن تُطرح على الفلاحين .

*

في لون واحد ثابت لا يريم بدت القرية في عتمة المغرب، في لون الطين. واستبد بها الدوار وبيوت الطين تغيب أبعادها في عتمة المغرب، وناس من طين يجلسون على عتبات البيوت، وبطون منتفخة وشفاه جافة، ودم في لون الطين يسيل من أفواه أطفال يحتضرون. وناس يختفون في مسالك القرية كدُمى من الطين، وأعناق قلقة نحيلة متصلبة لحيوانات كلعب الأطفال. ولا شيء يقطع الصمت سوى سعال دموي، وامرأة تنعي وليدها بصوت خافت لا يكاد يبين .

وترنحت كالمخمورة بالألم، وأدركت أن هامشًا دقيقًا يفصل بينها وبين فقدان الوعي وأن خلاصها يتوقف على تجاوز هذا الهامش والبقاء واعية، وبدلًا من أن تهرب هذه المرة أيضًا، تمهلت تترنح بدوارها. وبدلًا من أن تغمض عينيها لكي لا يطعنها الألم كالسكين فتحتهما على اتساعهما لترى. ورأت وسمعت واستوعبت، وتوقفت تجتر في ذاكرتها ووجدانها تفصيلًا بعد تفصيل لكيلا تنسى، لكيلا تغضب .

لا لم تفر من القرية هذه المرة ولا من الناس، من الطين. إليهم عادت بعد طول غيبة .

من بيت الخولي هربت .

*

شيء ما زائف ومصنوع في بيت الخولي. من البيت الطيني أراد الرجل أن ينسلخ إلى بيت من الطوب الأحمر، ولم تساعده فيما يبدو إمكانياته. بقي معلقًا بلا بيت كمن رقص على السلم، لا هو ينتمي إلى حيث ينتمي الفلاحون ولا هو ينتمي إلى أصحاب البيوت من الطوب الأحمر. بيت الخولي ليس ببيت على الإطلاق. بيت الخولي حجرة في الدور الثاني معلقة في الهواء بسلم بلا سور. ولا شيء في الدور الأرضي على الإطلاق، لا غرف للأولاد من مختلف الأعمار ولا زريبة للحيوانات، لا فرن لخبز العيش وطهي الطعام ولا دورة ماء. مجرد حجرة معلقة في الهواء على سلم بلا سور كديكور تمثيلية لن يلبث أن يُزال .

لم يكن الصعود إلى الحجرة المعلقة صعبًا، تبقت في الغروب بقية من ضوء جعلت الصعود هينًا . الخروج من الغرفة المعلقة هو الصعب وقد تبددت البقية الباقية من ضوء النهار. ووجب الخروج أيًّا كانت الظلمة وأيًّا كانت الصعوبة. لا بديل للخروج إلا الموت اختناقًا .

وتساءلت وهي تستمع إلى مغني القرية يحكي حكاية الزرع والحصاد، الأمل والجوع والعشق والموت: هل حملوا المرأة المريضة قسرًا، أم ساهمت هي راضية في الاستعراض الذي أعد كديكور لحساب ضيوف قادمين من القاهرة؟ ورجحت الاحتمال الأخير، فما من أحد ينقل أحدًا قسرًا على ما لا يرتضيه .

كم بدت غريبة ومنبتة المرأة المريضة وهي ممددة على السرير المعدني الأسود في حجرة معلقة في الهواء ما زالت بقايا الجير تعلق ببلاطها. كم بدت غريبة ومنبتة وهي تنام ربما لأول مرة على سرير، نومة غير نومتها. وتساءلت: هل يتأتى للمرأة المريضة أن تعود الآن إلى حيث تنتمي وقد انتهت اللعبة؟

*

لم تدرِ هي على وجه التحديد ماذا حدث للمرأة بعد أن انهار السرير المعدني الأسود. على العتبة وقف الرجال من الضيوف وأصحاب البيت، وفي الحجرة المعلقة وقفت هي وبقية الضيوف من النساء لصق الحائط ليفسحوا مجالًا للطبيبة. بعد تبادل السلامات والتحيات بدأ الكشف الطبي .

عرت الطبيبة المرأة من ملابسها وما كادت تميل تضع السماعة على قلبها حتى انهار السرير بالمرأة عارية، وخرجت هي من الغرفة مختنقة بخزيها تهمس للصديق أستاذ علم النفس :

ـ أخرجوني من هنا .

وفي الهواء الطلق خارج منزل الخولي وقفت ترتجف بخزيها، تتحسس جسدها، تستشعر عمق الجراح التي أصابتها لحظة انهار السرير بها عارية .

*

وتساءلت هي والمغني قد رحل، وصاحبة البيت تدس شرائط تسجيل الأغاني في حقيبة السفر استعدادًا للعودة إلى القاهرة، هل تملك المرأة القدرة على بتر ما هو قائم ووصل ما انقطع؟ ورعت غضبها كما ترعى الحامل الجنين، وهي تدرك أن طلب النجدة لم يعد يجدي. يتأتى على المرأة، وقد انتهت اللعبة، أن تقف على قدميها، أن تؤوب إلى نفسها، إلى أهلها وناسها، إلى بيتها، بعد غيبة عشر سنين .

١٩٨٥

مختارات الكرمة

1. 1. مليم الأكبر ـ عادل كامل
2. 2. دنقلا ـ إدريس علي
3. 3. مذكرات جندي مصري في جبهة قناة السويس ـ أحمد حجي
4. 4. الشبكة ـ شريف حتاتة
5. 5. الناس في كفر عسكر : أولاد عوف ـ أحمد الشيخ
6. 6. النزول إلى البحر ـ جميل عطية إبراهيم
7. 7. ملك من شعاع ـ عادل كامل
8. 8. إجازة تفرغ ـ بدر الديب
9. 9. رابعة ثالث ـ علي الشوباشي
10. 10. رباعية أيام الطفولة ـ إبراهيم عبد الحليم
11. 11. الرحلة (الجزء الأول) ـ فكري الخولي
12. 12. الرحلة (الجزءان الثاني والثالث) ـ فكري الخولي
13. 13. حديث شخصي: أربع تنويعات ـ بدر الديب
14. 14. الباب المفتوح ـ لطيفة الزيات
15. 15. أوراق شخصية ـ لطيفة الزيات
16. 16. الشمندورة ـ محمد خليل قاسم
17. 17. بيت سري ـ عثمان صبري
18. 18. هوامش الفتح العربي لمصر ـ سناء المصري
19. 19. صدمة طائر غريب ـ كمال القلش
20. 20. صاحب البيت ـ لطيفة الزيات
21. 21. الوسية ـ خليل حسن خليل
22. 22. الوارثون (ثلاثية «الوسية» 2) ـ خليل حسن خليل
23. 23. السلطنة (ثلاثية «الوسية» 3) ـ خليل حسن خليل